انكليز في حياة فيصل الأول

يعقوب يوسف كوريه

للنشر والتوزيع

الجليز في حياة فيصل الأول

الأهليــة للنشــر والتــوزيع
المملكة الأردنية الهاشمية - عمـان / وسط البلد
خلف مطعم القدس ؛ ص . ب ٧٧٧٢
هـاتف ٤٦٣٨٦٨٨ - فاكـس ٤٦٥٧٤٤٥

منشورات الأهلية لعـام ١٩٩٨
يعقوب يوسف كوريـه / انكليز في حياة فيصل الاول
الطبعة الاولى

تصميم الغـلاف [illegible] ®
التنضيـد : مؤسسة ياقوت للخدمات المطبعية

طبــع في لبنــان

المقدمـــة

كان طبيعياً كنتيجة مشاركة القوات البريطانية لقوات الثورة العربية ضد الأتراك ابان الحرب العالمية الأولى أن تتمخض عن تلك المشاركة الفعالة بين الجانبين بروز شخصيات من الجانبين كان لها دورها المميز ضمن أركان القيادة في كلا المعسكرين وكان الشريف الحسين بن علي وأبناءه الشرفاء الاربعة اللذين تولى كل منهم مسؤولية القيادة في القاطع المخصص له من أبرز شخصيات المعسكر العربي حيث أن أباهم هو قائد الثورة التي أعلنت بعد مضي سنتين على الحرب العالمية الأولى (١٩١٦) وخلال هذه المدة برز في المعسكر البريطاني شخصيات بالغة الأهمية في الحقلين السياسي والعسكري على حد سواء اذ التعاطف والتحالف بين رجال الفريقين الصديقين كان له أبعاد سياسية برزت نواتها أثناء الحرب وقطفت ثمارها بعد انتهاء تلك الحرب وانعكست تلك الصداقات والروابط بصورة خاصة على التطور السياسي لنظام الحكم في العراق . ان النقطة الأساسية التي هي محور هذه الدراسة التاريخية هي ولادة صداقات حميمة بين بعضاً من أفراد الحملة البريطانية على العراق وبين شخصية الملك فيصل ومدى تأثر الملك العربي بهم والعوامل والأسباب التي جعلت من كل واحد منهم صديقاً صدوقاً لفيصل سواء كان ذلك نتيجة تزاملهم واياه في سلك الجندية في ساحات الحرب مثل (Lowrance) أو أثناء تهيئة العرش العراقي له مثل (Sir Cox) وزميلته (Mis Bell) أو من الذين مكثوا في خدمته وخدمة أفراد عائلته سنين طويلة امتدت حتى بعد وفاته مثل (Dr. Sindrson) التي امتدت خدمته الى اكثر من ربع قرن بصفته طبيباً

خاصاً للعائلة المالكة التي سبق له أن تعرف على عميدها الملك فيصل منذ العام ١٩٢٠ .

لا ريب أن الانكليز كانوا قد ساعدوا الملك فيصل لاعتلاء عرش العراق كما أنهم ساعدوه من قبل لاعتلاء عرش سورية حيث بذل لورنس كل ما في وسعه من أجل ذلك غير أن اختلافاً في وجهات النظر السياسية بين فيصل من جهة وبين الوطنيين السوريين اللذين كانوا يتمتعون بحس وطني مرهف الذي جعل منهم متطرفين في وقت لم يكن للتطرف الوطني في سبيل الحصول على مكسب استقلالي مكاناً في عقلية فيصل ومخيلته .

ان الفوز بعرش الشام يختلف كثيرا في مساره في الفوز بعرش العراق ففي سورية لم يكن لفيصل منافسين لزعزعة ترشيحه الذي سعى له لورنس من وراء الستار بعد أن اجتمع المؤتمر السوري للمناداة به ملكاً على سورية أما في العراق فان الأمر يختلف عن ذلك كثيراً فقد قامت عراقيل بوجه ترشيح فيصل منها كثرة المنافسين له مما حدا بأخلص أصدقاءه (Cox & Bell) العمل على التحرك السريع لضمان هذا الترشيح والعمل على فوز فيصل بعرش العراق لقد عمل كل من هذين الانكليزيين ما بوسعهما على تدعيم وتركيز حكمه بعد تربعه على العرش .

ورغم أن الاثنين قد عملا معا وفي نفس الفترة الحرجة لتقوية نظام حكمه الا أننا نفاجأ أحياناً بتصلب موقفهما ازاء مصالح الامبراطورية البريطانية وسياستها الاستعمارية فكانا يقفان موقفا يزعزع كيان الملك لا بل يتعدى الأمر أحياناً لتوجيه اللوم عليه شخصياً عندما يحسان منه اندفاعه في المطالبة بحق البلاد وهو سيدها الأعلى لقد تحمل فيصل الكثير من أصدقائه

الانكليز لقد كان يطلب المشورة والعون من حلفائه فيأتي الجواب بما لا يرتضيه ضميره ولا يقبله بمنطق العقل فيرد عليهم برؤية الحاكم وبصيرة القائد وعقلية المفاوض الناجح واضعاً نصب عينيه الحكمة التي اعتبرها محور لسنين حكمه (خذ وطالب) ما كان يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك .

لا أستطيع الادعاء بأن ما ذكرته عن شخصية فيصل في هذه الدراسة هو الكل في حياة فيصل ذلك الرجل الانسان فان اللذين كتبوا عنه لكثرة من عراقيين وعرب وأجانب كل واحد منهم تناول جانباً من جوانب تلك الشخصية العربية الفذة أو فترة معينة من فترات حكمه ولكن الجميع أجمع بوضوح تام لا شائبة فيه أن شخصية فيصل كان لها موقفها المتميز سواء في أثناء الثورة العربية أو خلال سنوات حكمه متربعاً على عرش العراق .

رحم الله فيصلاً لقد كانت الخسارة بوفاته لا تعوض .

المؤلف

فيصل الأول

١٨٨٣ - ١٩٣٣

ان فيصل رجلاً فوق كل الرجال

(لورنس)

مولـــده

ولد الشريف فيصل في مدينة الطائف وسط الحجاز في يوم الأحد الموافق ٢٠ أيار ١٨٨٣ (١٢ رجب ١٣٠٠هـ) وأخذ وهو طفل الى عرب عتيبة النازلين باتجاه البادية الحجازية للرضاع بسنة الهاشمية التي درجت عليها منذ قدم الزمان لكي تنشئ أبنائها نشأة بدوية ويشبوا على ما امتاز به البدوي من شظف العيش والاعتماد على النفس .

في العام ١٨٩٨ دعي والده الشريف حسين للاقامة في عاصمة الخلافة الاسلامية فرافقه أفراد عائلته وهناك أمضى فيصلاً عهد صباه وأول أيام شبابه حتى عاد الى الحجاز بعد ثمانية عشر عاماً,عندما تعين والده شريفاً لمكة وأميراً للحجاز وعند بلوغ فيصل الثانية والعشرين من عمره احتفل بزواجه من الشريفة حزيمة ابنة عمه الشريف ناصر باشا فأنجبت له ثلاث بنات هن الأميرات رفيعة ، عزة ، راجحة وابناً واحداً هو الأمير غازي .

الشريف الثائر

بدأت أولى اتصالات فيصل بالجمعيات السرية[1] العربية عندما كان

ينزل الشام أقام في مزرعة آل البكري في منطقة القابون ومن الذين اتصل بهم للتداول في شؤون أمة العرب وهي ترزح تحت نير الاستبداد التركي والعمل يداً واحدة لشق الطريق الجديد نحو حرية العرب وسعادتهم وتحررهم السادة الأفاضل الدكتور أحمد القدوري ، الدكتور عبدالرحمن الشهبندر ، محمد الشريفي ، ياسين الهاشمي وعلي رضا الركابي وبعد المداولة المستفيضة معهم وتبادل الآراء غادر فيصل الشام متوجهاً الى الطائف حيث اجتمع مع اخوته ووالده وعاد الأربعة من جديد الي مكة بعد أن تم اتفاقهم على الثورة وفي شهر كانون الثاني من العام ١٩١٦ وصل الشريف فيصل الى الشام وبرفقته حرسه الخاص فنزل ومن بمعيته ضيوفاً على آل البكري في مزارع القابون قرب دمشق وهناك علم بالفاجعة الكبرى عندما تم اعدام الرعيل الأول من شباب العرب بأمر من جمال السفاح فتأثر كثيراً وقال قولته الشهيرة (طاب الموت يا عرب) كان ذلك في السادس من أيار عام ١٩١٦ . وعندما أعلنت الثورة العربية الكبرى في التاسع من شعبان ١٣٣٤هـ الموافق العاشر من حزيران ١٩١٦ ثارت ثائرة جمال باشا وألقى القبض على مجموعة من رجالات العرب البارزة منهم شكري القوتلي ، فارس الخوري ، شكري الأيوبي ، زكي العظمة وأراد بهم ما أراد باخوانهم اللذين سبقوهم الى المشانق ولكن فيصل تدخل في الأمر وكتب الى جمال السفاح بأنه في حالة اعدام أي منهم فسينتقم من الضباط الأتراك اللذين أسرهم في الطائف ومكة وأنه لن يتردد من قتل عشرة ضباط ترك مقابل أي عربي يعدم من قبله .

فيصل يدخل الشام

عندما دخل فيصل سورية(٢) محرراً استقبل استقبال الأبطال استقبالاً لم

تشهد مثيلاً له عاصمة الأمويين دخل الأمير فيصل في الثلاثين من أيلول فاتحاً منصوراً وكانت معالم الزينة وأفواج المستقبلين له اللذين هتفوا بحياته هتافات وطنية (٣) تردد صداها في كل أرجاء الوطن العربي الذي ما كان القسم الكبير منه قابعاً تحت الاستبداد التركي حتى أن سموه لم يتمالك نفسه من البكاء من شدة التأثير وهو يشق طريقه بصعوبة بالغة ممتطياً صهوة جواده العربي المطهم في شوارع دمشق وقد حل سموه في أول يوم دخل فيه دمشق في قصر محمود بك البارودي وأمضى هناك أسبوعاً ريثما تم تهيئة قصراً خاصاً لسموه .

الأمير فيصل في مؤتمر فرساي

دخل الأمير فيصل مؤتمر فرساي في الأسبوع الأول من شهر شباط عام ١٩١٩ وطرح على المؤتمرين قضية الوطن العربي فلعل صوته مطالباً بحقوق العرب ولقد أجمع المؤتمرين بصورة عامة على نجاح دور فيصل في المؤتمر المذكور وأعجبوا أيما اعجاب بفكره النير وعدم تعصبه لرأيه ومرونته في القضايا السياسية والنقاشات التي كانت تحصل بينه وبين باقي أعضاء المؤتمر يسمع من هذا ويرد على ذاك ويناقش رجال الصحافة بروح من الرضى السيايس الذي تولد نتيجة لتربيته الوطنية وايمانه المطلق بالقضية العربية التي دافع عنها بكل ضرووة ولقد وصف السير Robert Langsing سكرتير الرئيس الأمريكي ولسن الملك فيصل بهذه السطور عندما التقى به في مؤتمر فرساي (ان قوامه النحيف وجسمه المنتصب الذي يبدو كأنه أطول مما هو عليه وعباءته السوداء الفضفاضة وعقاله المذهب وكوفيته المطرزة المدلاة على كتفيه من تحت العقال كل ذلك زاد من وقاره والذي ينظر الى محياه حيث لم تفارقه أبداً ابتسامته الساحرة يؤمن بأنه أمام رجل قد أضانته الطبيعة ليكون زعيماً وأنه أهل لتلك الزعامة) .

فيصل وعرش الشام

في اليوم الثامن من شهر أذار نادى المؤتمر السوري الذي يضم ممثلين من كافة طبقات الشعب بالأمير فيصل بن الحسين ملكاً على سورية بلقب (صاحب الجلالة الملك فيصل الأول) وفي الوقت الذي كانت فيه دولة سورية تحت ظل جلالة الملك فيصل تعمل بجد ونشاط لدق ركائز الاستقلال الوطني بخطوات متزنة قوية المبدأ أثمرت تلك التحركات عن انبثاق قرارات جديدة تلائم الدولة السورية المشكلة تحت زعامة فيصل وكان من أول تلك القرارات رفض التعامل بالعملة الفرنسية التي كانت ما يزال التعامل بها سائداً كذلك منعت قوات الجيش الفرنسي من التحرك كيفما يشاؤون دون رقيب على تلك التحركات وطالب بمنفذ على ابحر ثم أعلن أن الجيش السوري لا بد له أن يجهز بأحدث التجهيزات العسكرية لمواجهة كل موقف قد يطرأ على سلامة البلاد غير أن مثل تلك القرارات الوطنية ذات المساس التام باستقلال الوطن وحريته لم تروق للجنرال (غورو) فأرسل في اليوم الرابع عشر من تموز عام ١٩٢٠ انذاراً الي الملك فيصل ملخصه الغاء التجنيد الاجباري القبول بالانتداب الفرنسي على سورية ، القبول بالتعامل بالعملة الورقية الفرنسية محاكمة المجرمين من أعداء فرنسا فما كان من الحكومة السورية بعد أن تسلمت ذلك الانذار الا وعقدت اجتماع لمجلس(٤) الوزراء برئاسة فيصل فرفضت كل تلك المقترحات الفرنسية جملة وتفصيلاً مما حدى بالقوات الفرنسية دخول الشام في اليوم الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٠ أثر معركة بطولية دامية دارت في ميسلون غرب دمشق ولقد استشهد في تلك المعركة البطل الفريق يوسف العظمة وزير الحربية .

أما الملك فيصل فلقد أبلغه الجنرال (غورو) بوجوب مغادرة الشام فغادرها

في اليوم السابع والعشرين من شهر تموز في قطار خاص قاصداً درعة وما لبث أن ذهب الى حيفا ثم غادر الى ايطاليا واتخذ من (كومو) القريبة من الحدود السويسرية مقراً له ولحاشيته واستقر هناك قرابة الشهرين حتى غادر الى أوروبا .

آخر ليلة لفيصل في سورية

كان الدكتور عبدالرحمن الشهبندر الوطني السوري المعروف والذي شغل منصب وزير الخارجية في حكومة فيصل في الشام والذي يعتبر أحد كبار العاملين في الحقل الوطني العربي قد نشر مقالاً في مجلة (الحرب[٥] العظمى وما بعدها) في ذكرى وفاة الملك فيصل ولقد أورد في مقالته تلك الوصف التالي لآخر ليلة قضاها فيصل في دمشق قبل أن يدخلها الجيش الفرنسي في يوم الأحد السادس والعشرين من شهر تموز ١٩٢٠ قال الدكتور الشهبندر (أما الملك فيصل فقد غادر دمشق في اليوم السابق بواسطة سيارته الى قرية قريبة من دمشق تدعى الكسوة على أن نتبعه نحن اليها بواسطة القطار ولم يتخلف من الوزراء الا واحداً أو اثنين ولما قاربت الشمس أن تغيب هب نسيم عليل يحمل رائحة الشيح والقيسوم فأعاد ذكريات الثورة العربية الكبرى في نفس جلالته وكان مستنداً الى الأحجار السود فقام ونزل الى خندق في الأرض طبيعي وصار يتمرن على بندقيته ولما صار الليل قمنا الى المركبات التي أقلتنا وكانت واقفة في المحطة فتناولنا عشاءنا من خبز وكعك وتفاح معفن . . . منظر غريب . . . ملك وحاشيته يبيتون على الطوى أين تلك المهرجانات؟ أين تلك الاحتفالات؟ أين رمضان بلياليه؟ والبلاط بمدعويه؟ أين تلك الأهازيج والأناشيد والزغاريد للفاتح العظيم منقذ سورية؟ ومن حسن حظ الملك أنه (ديمقراطي) لأنه بين (الديمقراطيين) تستوي في نظره الوسائد والأحجار وقطع

اللحم وكسر الخبز والركوب في السيارة والمشي على الأقدام) .

ولقد عادت بي الذاكرة يوم البيعة حيث بويع جلالته ملكاً على سورية وكانت دار البلدية في اليوم الثامن من أذار ١٩٢٠ قد أقامت احتفالاً عظيماً في هذه المناسبة التي أمسى فيها فيصل ملكاً على سورية وأن أنسى لا أنسى وقفته على الدكة يصافح المبايعون واحداً بعد واحد ولولا كسوة الملك البراقة على جسمه النحيف وهو أمام العرش لم تكن هيئته يومئذ لتختلف كثيراً عما رآه لورنس لأول مرة في (وادي صفراء) فقال عنه (وعلى الجانب الآخر من الدار وقف شيخ أبيض ينتظرني بلهفة وشوق ولما وقعت عيني عليه شعرت أنه الرجل الذي سيتولى زعامة الجزيرة العربية وأنه الزعيم الذي يستطيع تتويج الثورة العربية باكليل الظفر) .

الأمير فيصل المرشح لعرش العراق

بعد أن أمضى الأمير فيصل ردحاً من الزمن في كومو غادرها الى لندن ولقد وجدتها الحكومة البريطانية فرصة ذهبية لبحث موقف الأمير من ملك الانكليز شخصياً أمضى فيصل أياماً في لندن وكانت تلك زيارته الأولى لها واجتمع مع الملك البريطاني في اليوم الرابع من شهر كانون اثاني ١٩٢٠ وهناك لوح له بعرش العراق وأثناء انعقاد مؤتمر اقاهرة الذي حضره من الجانب البريطاني Sir P. Cox والجنرال E. Haldin القائد العام للقوات البريطانية في العراق Miss Bell وبعد استعراض كافة الأسماء المرشحة لاستلال منصب عرش العراق والذين طرحت أسماؤهم على طاولة المؤتمر وهم عبدالرحمن الكيلاني ، طالب النقيب ، الأمير عبدالعزيز ، أمير نجد الشيخ خزعل ، الأمير برهان الدين العثماني ، هادي باشا العمري الموصلي غير أن وزير المستعمرات

البريطاني السير ونستون تشرشل الذي كان لورنس مستشاره السياسي الخاص أعلن أن المرشح الأكبر حظاً في عرش العراق هو الأمير الهاشمي فيصل حيث قال في معرض دعمه لترشيح فيصل أن فيصلاً من بيت رفيع وأنه ابن الملك حسين شريف مكة المكرمة لذلك نال دعم وموافقة الحكومة البريطانية في ترشيحه على عرش العراق . وبعد انتهاء جلسات مؤتمر القاهرة غادر تشرشل الى لندن وهناك ألقى خطاباً في البرلمان البريطاني حول هذا الموضوع فقال في اليوم الرابع من شهر حزيران ١٩٢١ (كان الشريف حسين قد تلقى دعوات من رجال العراق وزعمائه لترشيح الشريف الأمير فيصل على عرش العراق فأذن الوالد لولده بذلك ولقد أعلنت الحكومة البريطانية بأنها لا تمانع في هذا الترشيح بل تدعو له وأن الشريف فيصل في الوقت الحاضر في طريقه الى البصرة) جدير بالذكر أن وفداً من زعماء (٦) العراقيين قد غادر الى مكة للقاء الملك حسين والطلب منه ترشيح أحد أنجاله لملوكية العراق بعد أن كانوا قد طلبوا منه ذلك بواسطة الرسائل والمضابط (٧) التي أرسلت له وبعد لقاؤهم به قال انكم تطلبون ولدي (عبدالله) لملوكية العراق واني قد اخترت لكم الآن ولدي (فيصل) وهو محل ثقتي واعتمادي فهل توافقون؟ ان هدفنا هو أن يكون أحد أنجالك ملكاً على العراق وليس لنا أن نرجح أحدهم على الآخر والذي أنت تختاره وتعينه ووافقوا على اختياره لفيصل ملكاً على العراق ثم وجه الملك حسين كلامه الى السيد نور الياسري باعتباره أكبر الحاضرين سناً وقال يا سيد نور اني أعتبرك كأخي الأكبر قد أودعت ولدي فيصل عند جدتنا فاطمة الزهراء عليها السلام ثم أودعته عندكم . فأجابه السيد نور الياسري بأننا سنرحب بفيصل وسيكون موضع احترامنا ومحبتنا ونضحي في سبيله كل ما نملك ثم انفض الاجتماع . وحول نفس الموضوع يتطرق السيد علي البازركان

الذي سبق له أن تشرف بمقابلة الملك حسين فيقول (٨) في الليلة التالية لمكوثي في القصر جلسنا على عادتنا على سطح القصر مع جلالة الملك حسين وأخذنا نتحدث عن العراق وخيراته ومحصولاته وفجاءة مد الملك عين يده تحت فراشه وأخرج ورقة قال لي أنها برقية من أهالي بغداد وردت جلالته في ذلك اليوم ثم قال لي .

خذها يا شيخ علي واقرأها .

فقرأها وقد قال مرسلوها فيها «نرجو ارسال الملك فيصل الى العراق ليكون ملكاً دستورياً منتظرين تشريفه» أصحاب التواقيع

السيد محمد مهدي الصدر نوري السعيد ، حمدي البجه جي ، محي الدين السهروردي ، بهجت زينل ، فقال لي جلالة الملك حسين (هل تعرف أصحاب تواقيع هذه البرقية) فأجبته أنني أعرفهم تماماً أما السيد محمد مهدي الصدر فهو من خير سادات العراق وهو نجل الحجة السيد اسماعيل الصدر المجتهد الأكبر . وجلالتكم يعرف نوري السعيد تمام المعرفة والبقية من وجوه وسادات العراق . فقال لي جلالته (ان العراقيين طالبوا بالأمير عبدالله في بادئ الأمر ليكون ملكاً دستورياً عليهم بعد أن توج الأمير فيصل ملكاً على سوريا ولكن بعد أن خرج الأمير فيصل من سوريا وهو الآن من غير شغل لذلك فانهم يطلبون تتويجه ملكاً عليهم .

فقال لي جلالته – ولكنني أخشى يا شيخ أن يعامل أهل العراق فيصلاً كما عاملوا جده الحسين (ع) من قبل .

فقلت لجلالته – سيدي لقد تغير الزمن وان أهل العراق اليوم ليسوا كأسلافهم في زمن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام فهم الآن

يقومون باكرام الضيف وبخدمة ملكهم .

وما أن انتهبت من جملتي الأخيرة حتى ضرب كفاً بكف وصاح بلهجته الحجازية (يا عيال نادوا فيصل) ، وبعد برهة من الزمن حضر الملك فيصل فقال له جلالة الملك حسين (ان الشيخ علي شرح لي صفات الموقعين ويرجح سفرك الى العراق .

فتسنع (فحضر نفسك وكن على أهبة السفر) .

ولنستمع الآن الى رأي نقيب أشراف بغداد السيد عبدالرحمن الكيلاني في موضوع ترشيح فيصل على عرش العراق فقد ورد في مذكرة للمس بل(٩) رفعتها في العام ١٩١٩ الى لندن حول ترشيح فيصل على عرش العراق ما يلي (قال لي النقيب انني من أقارب الشريف فيصل وأنحدر من نفس السلالة وأشاركه في مذهبه الديني لذلك أرجو أن تفهموا بأنني لست مدفوعاً بدافع الاختلاف في الدم والعقيدة عندما أقول لكم بأنني سوف لم أوافق ولن أوافق على تعيين الشريف أو أحد أنجاله أميراً على العراق فان الحجاز ليس العراق وليس هناك علاقة بينهما غير علاقة العقيدة فسياستنا وتجارتنا وزراعتنا هنا تختلف عن تجارة وسياسة وزراعة الحجاز انني أفضل ألف مرة عودة الترك الى العراق على أن لا أرى الشريف أو أحد أبنائه ينصبون على دست الحكم هنا .

بعد أن وافق الملك حسين عل ترشيح فيصل ليكون ملكاً على العراق بناء على طلب الزعماء العراقيين أبرق الى بغداد البرقية التالية :

نشكركم على دعوتكم لنا لمعاونتكم فيما ينتابكم من المشكلات وليس يخاف على أهل العراق ولا على غيرهم ما بللنا من المجهودات والقوى أثناء الحرب الكبرى في سبيل تحقيق رغبات

العرب القومية وذلك بمعونة الله عز وجل وحلفائي [١٠] والتي لم أزل أبذل مثل هذا الجهد حتى الآن وحيث اني أنظر الى دعوتكم كدعوة عربية خالصة فاني سأبعث اليكم فيصل ليعينكم في العراق والله أسأل أن يتوج أعمالنا بالنجاح ويهدينا جميعاً لما فيه خير الأمة وسعادتها .

الحسين

كما أن فيصل أبرق الى نقيب أشراف بغداد بالبرقية التالية :

من فيصل الى صاحب السعادة نقيب أشراف بغداد

عندما كنت في أوروبا ومنذ زمن بعيد اتضح ل أن أهل العراق يرغبون الينا أن نشاركهم في ادارة شؤونهم والآن رجعت الى مكة والتحقت بوالدي واستشرته فوافق على أن أساعد مملكتي وأهاليها بقدر طاقتي فاذا كان أهل العراق يرغبون حضوري فأنا مستعد للحضور ولي آمال وطيدة بأن سعادتكم ستعينوني ولا تحرموني من مؤازرتكم ومسؤوليتكم أسأل اله أن يعيننا على ما فيه الخير .

فيصل

وقد أرسل فيصل رسالة أخرى الى طالب باشا النقيب الذي كان منافساً له في الترشيح على عرش العراق هذا نصها :

السيد طالب باشا النقيب بغداد

بعد أن أمضيت مدة من الزمن في أوروبا رجعت الى مكة وقابلت والدي ولقد تحقق لي في أوروبا وهنا أن الشعوب العربية ترغب في

معاونتنا لهم ولأجل اعداد مستقبل بلادهم فان الأمل أن أجد منك معاونة واخاء في تحقيق رغائب أهل العراق وأنا أومل أن تكون النتيجة أحسن منها الآن وأن يتوج الله أعمالنا بالنجاح أنه على كل شيء قدير .

أخوكم فيصل بن الحسين

وعند شروع فيصل في التحرك نحو العراق أبرق والده الملك حسين بن علي برقية الى نقيب أشراف بغداد يعلمه فيها بأمر تحرك فيصل نحو بغداد .

بغداد فرع الدوحة النبوية فضيلة السيد الأجل حضرة النقيب

ضروري أبلغكم توجه ولدي فيصل الى طرفكم بناء على طلبات الأهالي المتعددة ولامتزاج عائلتنا بكم فلا أحتاج أن أبعث عما يجب لسعيكم جميعاً فيما يستلزم راحة البلاد ومضاعفة الرغبة وتأمين مستقبل الكل هذا ما أنتظره من همم فخامتكم والحمية الدينية والقومية والله يتولانا واياكم بالتوفيق .

الحسـين

١٧ حزيران ١٩٢١

ولقد غادر فيصل مع حاشية جدة في اليوم الثاني عشر من شهر حزيران ١٩٢١ وكان بمعيته بعض رجال العراق أمثال السويدي الكبير ، محمد الصدر ، علون الياسري ، هادي مكوطر ، محسن أبو طبيخ ، الحاج رابح العطية ، كما كان في معيته كل من السادة رستم حيدر ، علي جودة الأيوبي ، وتحسين قدري وابراهيم كمال وصبيح نجيب ومكي الشريفي اضافة الى السير كورنواليس .

فيصل في العراق

رست الباخرة North Pork في ميناء البصرة في اليوم الثالث والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٢١ فاستقبل الأمير العربي استقبالاً رائعاً وتوجه الى محل اقامته في البصرة بعد انتهاء مراسم الاستقبال وهو قصر أحمد باشا المانع وأثناء اقامة سموه في البصرة قبل توجهه الى بغداد أقيمت له الحفلات فألقى الشعراء قصائدهم وتفوه الخطباء بخطبهم ثم ان سموه ألقى خطبة وطنية رائعة دعا فيها العراقيين أن يكونوا يد واحدة لاستقبال عهد جديد وأن يكون تآزرهم كالبنيان المرصوص . جدير بالذكر أن وفداً مؤلفاً من ستين شخصاً يمثل العاصمة بغداد وبلديتها بالاضافة الى مجموعة من المسؤولين تحرك نحو البصرة لمشاركة في استقبال الأمير الهاشمي فيصل أثناء وصوله اليها . وكان الأمير فيصل قد أبرق البرقية التالية الى رئيس الوزراء نقيب أشراف بغداد يخبره فيها بموعد وصوله البصرة .

الباخرة البريطانية – North Pork

٢٢ حزيران ١٩٢١

بغداد فخامة رئيس الوزراء حضرة النقيب

بمزيد السرور أخبر فخامتكم بأني واصل البصرة صباح الجمعة القادمة نشكر المولى عز وجل الذي سعدني بقرب لقؤكم ومشاهدة البلاد التي هي محط مفاخر الأجداد واثقاً من ازدياد عواطفكم الودية أنتم وزملاءكم وكافة أفراد الشعب العراقي الكريم .

فيصـــــل

كما أن مزاحم الباجه جي كان قد أرسل برقية الى جريدة العراق حول وصول الأمير فيصل الى البصرة هذا نصها

جريدة العراق - بغداد

يصل سمو الأمير فيصل البصرة اليوم فعلى جميع الوطنيين القدوم الى البصرة لاستقباله .

١٧ حزيران مزاحم الباجه جي

ولعل أطرف ما وجدناه حول استقبال الأمير فيصل عند وصوله البصرة برقية اعتذار من داود الكيلاني لعدم تمكنه من المشاركة في استقبال سموه هذا نصها

البصرة - جعفر باشا العسكري وبواسطته ترفع الى أنظار
سمو الأمير فيصل أيده اله

أعرض لعظمة سمو الأمير واضح العذر لتأخري عن مشاهدة تلك الطلعة النبوية التي لا أزال متشوق اليها رافعاً أكف الدعاء بأن يمن الله تعالى علينا بقدومك المبارك مقروناً باليمن والاقبال .

داود ضياء الدين الكيلاني

من البصرة وصل الأمير فيصل الى بغداد عصر يوم ١٩٢١/٦/٢٩ بواسطة قطار خاص أعد له وكان في استقباله كبار رجال السلطة البريطانية يتقدمهم السير Sir P. Cox وقائد القوات البريطانية في العراق وقد قدم السير برسي السير ليملر فحياه تحية عسكرية رسمية وكان الآلاف من العراقيين[١٢] يصطفون للمشاركة في الاستقبال الشعب الكبير الذي أعد بهذه المناسبة فقامت البلدية بنصب أطواق النصر[١٣] في الساحات العامة والشوارع المهمة

وقد نشرت الاعلانات حول منهاج الاحتفال بمقدم سمو الأمير في الصحف المحلية . وقد احتفلت الطوائف والمدارس ومعاهد العلم في كل أنحاء العراق بمقدم سمو الأمير(١٤) . ففي اليوم الأول من شهر تموز قام وفد من الأدباء والشعراء العراقيين يتقدمهم فيلسوف العراق الزهازي وشاعره الكبير بزيارة الى سمو الأمير فيصل فما مثلوا بين يديه أنشد الزهازي قصيدة عصماء هذه بعض أبياتها .

عج العراق مُرحباً	بك أيها الملك الجليل
والرافدان كلاهما	بك ماؤهم شكر يسيل
للقطر عرش ان علاه	فيصل سر الرسول
ولسوف يسعد في العراق	بفيصل جيل بجيل

ومنذ وصول فيصل بغداد في ٢٩ حزيران ١٩٢١ وحتى يوم تتويجه في ١٩٢١/٨/٢٣ قام بعدة زيارات الى مختلف الأماكن والمدن العراقية لغرض التعرف على الناس هناك كما أنه قام بزيارة العتبات المقدسة في بغداد في أول يوم وصوله اليها ففي مدينة الكاظمية نحرت له عشرات الذبائح عندما وقعت قدميه على مدخل الصحن الشريف وأقامت له المدرسة الجعفرية حفلة كبرى بمناسبة قدومه بغداد بويع فيها بالملك ولقد تبرع بالمال لدعم مشاريع المدرسة المستقبلية كما أنه سجل اسمه باعتباره أحد أعضاء الهيئة التدريسية فيها وأقامت له الطائفة الموسوية في بغداد حفلة رائعة في السابع عشر من تموز ١٩٢١ (١٥) ألقى فيها الأمير فيصل كلمة رائعة تدل على ما في عقله الجبار من حكم وسياسة بعيدة الآفاق وألقى الزهاوي خطبة بعنوان وحدة العراقيين بدأها بهذين البيتين :

لا يعيش امرؤ من الناس ما لم يتغير مطابقاً للمحيط

في جدل الحياة قد كتبت القوة على الأرض للقوي النشيط

وبعد كلمة الزهاوي رتل نشيد وطني (نحن نفتح الطريق) وألقى الحاخام الياهو ناحوم دعاء باللغة العبرية ثم تقدمت فتيات صغيرات وقدمت احداهن الى سمو الأمير طائفة من الأزهار البهية وقد خاطبت الطفلة سموه (ان الهدايا على قدر من تهدى له) فابتسم لها سمو الأمير وقبل هديتها ثم ألقى شمعون أفندي دعاء باللغة العربية ثم قدمت التورات بعد ذلك الى سموه فقبلها بما كان له أفضل وقع في القلوب .

الاستفتاء

اجتمع مجلس الوزراء العراقي برئاسة سماحة النقيب عبدالرحمن وقرر المناداة بالأمير فيصل ابن الحسين ملكاً على العراق وكان ذلك في الحادي عشر من شهر تموز ١٩٢١ وقد طلبت دار الاعتماد(١٦) اجراء استفتاءً شعبياً في كافة المدن العراقية ونواحيها للتأكد من قبوا وقناعة كل العراقيين بانتخاب الأمير فيصل ملكاً عليهم . عندما تم عملية الاستفتاء تبين بأن نسبة ٩٦٪ من العراقيين تطالب بالأمير فيصل ملكاً على العراق وحدد يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر آب ١٩٢١ موعداً لحفلة تتويجه جرت حفلة التتويج في الساعة السادسة من صباح اليوم المذكور وكانت متميزة في تنظيمها حضرها أكثر من ألف وخمسمائة مدعو يمثلون مختلف قطاعات الشعب العراقي وقد حضر جلالته برفقة السير بيرسي كوكس وألقى سكرتير مجلس الوزراء حسين أفنان بيان دار الاعتماد البريطاني ثم نهض السيد محمود النقيب وألقى دعاء(١٧) بالمناسبة هذا نصه (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع

الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) .

نحمدك اللهم حمداً يوافي نعمك ويكافي فريد فضلك وكرمك حمد الشاكرين لسوابغ آلائك وشكر المخلصين لترادف نعماتك سبحانك لا يحصى لا ثناء عليك نعوذ بك من شرور الأنفس وسيئات الأعمال ونستعين بك في تسويد الأحوال وتأييد الأقوال ونصل ونسلم على خير خلقك وصفوة أنبيائك سيد المرسلين المبعوث رحمة للعالمين الذي نمت فيه مكارم الأخلاق وأشرقت بشمس معارفه جميع الآفاق وعلى آله الذين أذهب عنهم الله الرجس وطهرهم تطهيراً وأصحابه اللذين آزروه في السراء والضراء فكان كل منهم ناصراً وظهيراً اللهم انا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تؤيد بتأييداتك السرمدية وتوفق بتوفيقاتك الأبدية عبدك وابن عبدك الناصر لدينك النافع لسلطانك ومجدك الذي عظمت شأنه ورفعت مكانته وعززت سلطانه واخترته ملكاً على الخطة العراقية من الأقطار العربية لاصلاح البلاد واسعاد العباد ودر الفساد من بينهم بالسوية اذ يواتيه سرير المملكة العراقية كي لا ييأس الفقير من الحصول على حقه وليخشى كل ظالم من سطوته وبطشه وأعني به الأجل الأكرم والملك الأفضل صاحب العظمة والجلالة حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل الأول ابن حضرة سيدنا الأفخم ملك الحجاز الأعظم سيد السادة الأشراف ودرة تاج بني عبد مناف فرع دوحة النبوة ونور شجرة النبوة ونور بيت الرسالة أيد الله دولته بتوفيقاته وجعلها عون له في مهماته اللهم أره الحق حقاً وأره الباطل باطلاً وحببه للرعية وحبب الرعية اليه ويسر له صعاب الأمور واشرح بحبه الصدور انك على ما تشاء قدير وبالاحسان جديدر سبحان ربك ربت العزة وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

خطاب التتويج

بعد ذلك نهض الملك فيصل وألقى خطاب التتويج وهذا نصخ (أتقدم الى الشعب العراقي الكريم بالشكر الخالص على مبايعته اياي مبايعة حرة . دلت على محتبه لي وثقته بي . فأسأل الله عز وجل أن يوفقني لاعلاء شأن هذا الوطن العزيز . وهذه الأمة النجيبة لتستعيد مجدها الغابر وتنال منزلتها الرفيعة بين الأمم الناهضة الراقية وانه ليجدر بي في مثل هذه الساعة التأريخية التي برهنت فيها الأمة العراقية على خالص ودها نحو أسرتنا الهاشمية . ان أذكر ما لجلالة والي الملك حسين الأول من الأيادي البيضاء فقد رفع لواء العرب منضماً الى الحلفاء ونهض بالعرب لا غاية له سوى تحريرهم وتأييد استقلالهم القومي الذي كانوا ينشدونه منذ قرون كما اني أرى من الواجب المحتم في مثل هذا اليوم أن أذكر محيياً تلك النفوس الطاهرة الأبية من أبناء النهضة العربية اللذين استبسلوا مع أبطال الحلفاء وذهبوا ضحية أوطانهم العزيزة أولئك هم أصحاب الذكرى الخالدة فسلام عليهم وألف تحية .

وهنا واجب آخر يدعوني بأن أرتل آيات الشكر للأمة البريطانية اذ أخذت بناصر العرب في أوقات الحرب الحرجة فجادت بأموالها وضحت بأبنائها في سبيل تحريرهم واستقلالهم . واني اعتماداً على صداقتها ومؤازرتها التي أظهرتها وتعهدت لنا بها . أقدمت على القيام بشؤون هذه البلاد شاكراً للحكومة المؤقتة همتها ولفخامة المندوب السامي محبته وللحكومة البريطانية العظمى اعترافها في ملكاً للدولة العراقية المستقلة التي دعيت لملكيتها بارادة الشعب مباشرة .

أيها العراقيون الأعزاء كانت هذه البلاد في القرون الخالية مهد المدنية

والعمران ومركز العلم والعرفان فأصبحت بما نابها من الخطوب ولا حوادث خالية من أسباب الراحة والسعادة فقد فيها الأمن وسادت الفوضى وقل العمل فتغلبت الطبيعة وغارت مياه الرافدين في بطون البحار فأقفرت الأرض بعد أن كانت يانعة نضرة . وطغت القفار على المعمور وأضحت المدينة التي قويت على مقاومة النائبات أشبه شيء بواحة واسعة فنحن الآن تجاه هذه الحقيقة المؤلمة ولا يجدر بشعب يريد النهوض الا أن يعترف بهذه الحقائق .

اننا لم ننهض الا لمكافحة هذه العقبات ولم نخص غمار الحرب الا لأحياء هذه المعالم الدارسة واذا كان الناس على دين ملوكهم فديني هو تحقيق أماني هذا الشعب وتشييد أركان دولته على المبادئ الدينية القومية . وتأسيس حضارته على أساس العلوم الصحيحة والأخلاق الشريفة متوكلاً على الله ومستنداً على روحانية أنبيائه العظام ومعتمداً عليكم أنتم أيها العراقيون .

وقد صرحت مراراً بأن ما تحتاج اليه لترقية هذه البلاد يتوقف على معاونة أمة تمدنا بأموالها ورجالها وبما أن الأمة البريطانية أقرب الأمم لنا وأكثرها غيرة على مصالحنا فاننا سنستنمد منها ونستعين بها وحدها على الوصول الى غايتنا المنشودة في أسرع وقت ولا يغرب على الأذهان أنها اذا كان الناس على دين ملوكهم فالملوك على دين شعوبهم فعلى قدر التضامن يكون النهوض . ونحن الآن أحوج الأمم الى التضامن والتعاضد والعمل بجد ونشاط ضمن دائرة السلم والنظام واني لا آلو جهداً بأن أستعين برجال الأمة على اختلاف مواهبهم وتباين طبقاتهم وتفاوت معتقداتهم فالكل عندي سواء لا فرق بين حاضرهم وباديهم . ولا ميزة لأحد عندي الا بالعلم والمقدرة والأمة بمجموعها هي حزبي لا حزب لي سواها ومصلحة البلاد العامة هي مصلحتي ولا مصلحة لي غيرها .

ألا وان أول عمل أقوم به هو مباشرة الانتخابات وجمع المجلس التأسيس . ولتعلم الأمة أن مجلسها هو الذي سيضع بمشورتي دستور استقلالها على قواعد الحكومات السياسية الديمقراطية ويعين أسس حياتها السياسية والاجتماعية ويصادق نهائياً على المعاهدة التي سأودعها له فيما يتعلق بالصلات بين حكومتنا والحكومة البريطانية العظمى ويقرر حرية الأديان والعبادات شرط أن لا تخل بالأمن العام والأخلاق العمومية . ويسن قوانين عديدة تضمن منافع الأجانب ومصالحها وتمنع كل تعرض بالدين والجنس واللغة . وتكفل التساوي في المعاملات التجارية مع كافة البلاد الأجنبية واني لواثق بأن الاستشارة مع فخامة المندوب السامي السير برسي كوكس الذي برهن على صداقة للعرب خلدت له الذكر الجميل .

سنصل الى غايتنا هذه بأسرع وقت ان شاء الله .

فالى الاتحاد والتعاضد – الى الروية والتبصر – الى العلم والعمل أدعو مني والله الموفق والمعين .

نص بيان المندوب السامي في حفلة التتويج

من فخامة السير برسي كوكس الحاصلة على الوسام الأكبر للامبراطورية الهندية ووسام نجمة الهند العالمية من درجة فارس ووسام القديس ميخائيل من درجة فارس والقديس جرجيس من درجة فارس المندوب السامي لجلالة ملك بريطانيا .

الى الأمة العراقية بواسطة ممثليها الحاضرين

لقد قرر مجلس الوزراء باتفاق الأمراء بناء على اقتراح سمو رئيس الوزراء المناداة بسمو الأمير فيصل ملكاً على العراق في جلسته المنعقدة في اليوم الرابع

من شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٩هـ الموافق ١١ تموز ١٩٢١م على أن تكون حكومة دستورية نيابية مقيدة بقانون وبصفتي مندوباً سامياً لجلالة ملك بريطانيا رأيت أن أقف علي رأي الشعب العراقي قبل موافقتي على ذلك اقرار فأجري التصويت العام بموافقة مني وأسفرت نتيجة التصويت عن أكثرية كلية ممثلة بنسبة ٩٦٪ من جملة المنتخبين (١٨) المتفقين على المناداة بسمو الأمير فيصل ملكاً على العراق وعليه أعلن أن سمو الأمير فيصل نجل جلالة الملك حسين قد انتخب ملكاً على العراق وأن حكومة جلالة ملك بريطانيا قد اعترفت بجلالة الملك فيصل ملكاً على العراق .

برقيات التهاني التي تبودلت بين الملك جورج والملك فيصل

لندن ٢٦ آب ١٩٢١

الى جلالة الملك فيصل الأول بغداد

أتقدم الى جلالتكم بالتهاني المخلصة بهذا الحادث التاريخي المؤثر بانتخاب أغلبية العراق لجلالتكم وبه أصبحت بغداد مرة ثانية عاصمة دولة عربية .

ان اتحاد مساعي القوات البريطانية والقوات العربية مع حلفائها والحادث التاريخي الذي نجم ليسرني ويسر شعبي جيداً انني لواثق أن المعاهدة التي ستبرم بيننا عن قريب لتخليد المحالفة التي دخلناها في الأيام المحرجة أثناء الحرب ستمكنني من اكمال واجباتي الخطيرة لافتتاح عصر السلام وبنجاح جديد في العراق .

جـــورج

ملك وامبراطور

برقيــة الجــواب

بغداد ٢٦ آب ١٩٢٦

الى جلالة الملك والامبراطور جورج الخامس لندن

لقد فرحت كثيراً وتأثرت جداً بالرضا الملوكي الذي أبديتموه نحوي ونحو شعبي في رسالة جلالتكم في هذا اليوم السعيد حين أصبحت بغداد (مدينة الخلفاء) مرة ثانية عاصمة لدولة عربية أتذكر بافتخار ما لجلالتكم ولشعبكم النبيل من الأيادي البيضاء في تحقيق الآمال العربية . واني واثق بأن الأمة العربية ستحقق اعتماد جلالتكم بنجاح مساعيهم في استرداد مجدهم السالف على شرط أن يبقوا متمتعين بمساعدة وصداقة بريطانيا العظمى .

انني لواثق بأن المعاهدة التي ستبرم بيننا عن قريب ستزيد قيود التحالف التي سبق اتخاذها بامتزاج الدم البريطاني والعربي في ساحات الحرب العظمى وانها ستؤسس على أساسات لا تتزعزع .

وأخيراً أتمنى لجلالتكم المحترمة النجاح والمجد الدائميين .

فيصــــل

الملك فيصل في العهد الدستوري

بعد الانتهاء من احتفالات التتويج وجد الملك فيصل أن الاسراع بالعمل الجاد والمثمر لاسعاد الشعب ورفاهيته وضمان استقلال البلاد والحرص على توطيد العلاقات البريطانية العراقية في تلك الفترة الحرجة من تاريخ العراق السياسي هو الهدف الذي سيسعى الوصول اليه للعمل على تحقيقه بالصورة السليمة التي ينظر اليها جلالته والتي هي أصلاً مطمحاً ملحاً لأبناء شعبه

فعمل ما بوسعه لتنظيم الهيكل الاداري للدولة الحديثة حيث قسمت أراضي العراق الى أربعة عشر لواء (محافظة) يدير كل منها متصرف (محافظ) يكون مسؤولاً مسؤولية مباشرة أمام وزير الداخلية كما تم تعيين هيئة التفتيش الاداري ولما كان الملك قد أخذ على عاتقه اقامة نظام ديمقراطي حيث أن الاستقلال لا يكون تاماً ما لم تتبع في نظام الحكم فيه الأصول الدستورية . لقد تم تشريع الدستور وشرع قانون الانتخابات النيابية وكان يوم السابع والعشرين من شهر اذار ١٩٢٤ يوماً مشهوداً في تاريخ العراق الحديث ولقد افتتح الملك بنفسه المجلس التأسيسي في احتفال كبير شيق ولقد ألقى جلالته خطاب العرش الأول موجهاً كلامه الى النواب قائلاً أن الأمة قد انتخبتكم للنظر في الأمور التالية :

١ - البت في المعاهدة العراقية البريطانية .

٢ - سن الدستور العراقي .

٣ - سن قانون انتخابات المجلس النيابي وختم جلالته خطابه بالدعاء والتوفيق لأعضاء المجلس .

بين الملك فيصل والانكليز

كان السير تشرشل قد قطع عهداً على نفسه أمام الملك فيصل الأول على أن تقوم أركان المملكة العراقية على الاستقلال التام في حالة قبول الملك فيصل لعرش العراق وظل الملك العربي متمسكاً بذلك العهد الانكليزي الذي جاء على لسان وزير المستعمرات تشرشل طيلة فترة المفاوضات والمحادثات بين الجانبين ويذكر أمين الريحاني عن معاناة الملك من عدم الوفاء بالعهود البريطانية التي قطعت له أثناء تفاوضه مع الجانب الانكليزي قبل ترشيحه لعرش العراق فقال الريحاني عما سمعه من الملك فيصل نفسه (حدثني الملك

عما تم بينه وبين المستر تشرشل قبل انعقاد مؤتمر القاهرة فتم الاتفاق على أن تقوم الحكومة البريطانية بالاعتراف باستقلال المملكة العراقية وتتعهد بالغاء الانتداب وتساعد العراقيين على تأسيس حكومة وطنية موطدة الأركان وتعقد لقاء ذلك معاهدة صداقة بين العراق وبريطانيا تضمن فيها الحكومة العراقية بعض الحقوق في انماء اقتصاديات العراق واستثمارها واستخدام مستشارين واختصاصيين من الجانب الانكليزي لهذه الغاية ولمعاونة الموظفين العراقيين كذلك في ادارة أركان المملكة العراقية الجديدة .

قال الملك وعدني السيد تشرشل بالغاء الانتداب والاعتراف باستقلال البلاد ولقد جاءني الآن بمعاهدة طافحة في الانتداب وعصبة الأمم فاذا كان الانتداب فما الفائدة من المعاهدة وما الغرض منها واذا كانت المعاهدة فما الحاجة الى الانتداب ؟ غني عن البيان أن أحد الصكين غير لازم وغير مفيد أننا مصرون على ما وعدنا به المستر تشرشل وهو ما يطلبه العراقيون المتطرفون منهم والمعتدلون واني لا أزال أعتقد وآمل أن يبر بوعده والا فالموقف حرج يا أخي حرج جداً .

لقد ظل العراق قائماً بين الملك فيصل تلك الشخصية الساحرة التي كان المندوب السامي البريطاني السير برسي كوكس من أولئك الأعداء اللذين اعترفوا بقوة وجاذبية وسحر ذلك الملك العربي لقد كان يحترم فيصل ويحبه ولكنه لم يدع لنوافذ قلبه أن تبقى مفتوحة الأبواب في مجالسته للملك وفي أحاديثه معه .

عندما جاء قرار عصبة الأمم في ١٦ كانون الثاني ١٩٢٥ بحل قضية الوصل وفقاً لما يريده العراقيون بابقاء ولاية الموصل عراقية وأقرت الحكومة

التركية قرارات اللجنة الخاصة التي أشرفت على الاستفتاء العام الذي جرى في المنطقة المتنازع عليها حيث تأكد للجنة المذكورة أن العراقيين هم الغالبية العظمى من سكنة المنطقة وهم يفضلون استمرارية الانطواء تحت لواء المملكة العراقية ولقد اشترطت عصبة الأمم في قرارها أن يمدد أجل المعاهدة المعقودة بين الانكليز والعراقيين سنة ١٩٢٢ والاتفاقيات الملحقة بها الى ٢٥ سنة وقد عقدت معاهدة ثانية بين الطرفين بهذا الشأن في ١٩٢٦/١/١٣ صادق عليها مجلس الأمة بعد خمسة أيام من ذلك التاريخ وفي العام ١٩٢٧ بدأت في بغداد محادثات لتعديل المعاهدة وعقد معاهدة جديدة وعند المباشرة في المحادثات المتعلقة بتعديل المعاهدة لم يتوصل كل من الطرفين الى أية نتائج مما حدى الى نقل المحادثات الى لندن ولقد كان المندوب السامي السير همفري دوبس متمسكاً بوجهة نظره كما أن الجانب العراقي ظل مطالباً بتغيير صيغة بعض المواد الواردة بالمعاهدة وجعلها فضفاضة أكثر من صيغة المسودة المقترحة حتى تكون ملائمة في مضمونها لحفظ حقوق الشعب العراقي . ولقد أظهر الملك فيصل أثناء تلك المفاوضات وهو في لندن تصلباً في الرأي وتمسكاً بأماني العراق وشعبه حتى أنه خطب في مأدبة أقامها له وزير المستعمرات بمناسبة قرب مغادرته لندن قائلاً بوضوح (انه يؤثر العودة صفر اليدين على أن يحمل للشعب العراقي معاهدة لا هي أجود من سابقتها بشيء بل هي دونها في بعض موادها) وعند توقيع الاتفاقية في ١٩٢٧/١/١٤ تألفت لجنة في بغداد بموجب ارادة ملكية للدخول في مفاوضات مع الجانب البريطاني لتنظيم ملاحق المعاهدة ١٩٢٧ وعند البداء بالمحادثات حول تنظيم تلك الملاحق تمسك من جديد كل طرف بوجهة نظره حيث أن الجانب العراقي يوضح بصورة علنية بأن المقترحات البريطانية حول تعديل المعاهدة لا تخدم مصالح البلاد ولا هي معززة

لاستقلاله فأحبطت المفاوضات ولم يتوصل الجانبان الي أي اتفاق بينهما وظلت وزارة عبدالمحسن السعدون في موقفها مما أدى ذلك التصلب في دعم وجهة نظر الحكومة العراقية وبعد أن تم ابدال السير همفري دوبس المندوب السامي في العراق بالسير Sir Masion اجتمع هذا الأخير مع الملك فيصل في ١٩٢٩/٩/١٤ وأبلغه ما يلي (ان الحكومة البريطانية مستعدة لدعم قبول العراق في عصبة الأمم المتحدة وأن الحكومة البريطانية ستبلغ مجلس العصبة في دورته القادمة عدم العمل بمعاهدة ١٩٢٧ وفعلاً فقد تم قبول العراق في عصبة الأمم في ٣ تشرين الأول ١٩٣٢ فصار عضواً جديداً في أسرة الأمم برقم ٥٣ وبهذه المناسبة أذاع الملك فيصل بياناً على الشعب العراقي شكر فيه الله وهنأ نفسه وهنأ الشعب العراقي على هذا الانجاز الذي حصله والذي جاء نتيجة جهاده المثر ولقد توجهت الى جنيف وفود[١٩] شعبية ورسمية وممثلون عن الطوائف للمشاركة في احتفالات دخول العراق عصبة الأمم .

فيصل يوضح سياسة الانكليز

كان وفد من أهالي الموصل قد قصد بغداد في زيارة الى الملك فيصل لرفع الشكر والتبريك بمناسبة قرار عصبة الأمم بابقاء محافظة الموصل ضمن الرقعة الجغرافية العراقية وبعد ان القى الخطباء خطبهم تفضل جلالته والقى الكلمة التالية :

(اقول لكم بان الحكومة البريطانية جنحت الى سياستها الرشيدة وعزمت كل العزم على الوفاء بعهودها التي ضربتها لوالدي خلال الحرب المنصرمة حتى تكسب العرب وتتخذ منهم حليفا صادقا في منطقة الشرق الاوسط وان ما وقع بيني وبين الفرنسيين من الحوادث المؤلمة قد اخطرتني الى مضاعفة

جهادي في سبيل المهمة التي قمنا من اجلها في قطر عربي اخر . . ولما كان العراق يهمنا ويهم العرب جميعا انتدبني والذي بناء على رغبة العراقيين للقيام بهذه المهمة الخطيرة واطمئنكم بان العراق لا يعيش الا مستقل له حكومة دستورية ملكية خالية من كل الشوائب وفي القريب العاجل سيدعى المؤتمر العام الى الانعقاد لسن القانون الاساسي للقطر والمستقبل كشاف واني اذكركم بالواجب الخطير والملقى على الاهلين في هذه المرحلة الخطيرة وهو الاعتصام بالتآخي والاتحاد في سبيل مصلحة البلاد وليعلم الجميع بان الانقسام يؤدي بحياتنا الاستقلالية) .

الصدام الاخير بين فيصل والانكليز

اخر صدام وقع بين الملك فيصل والانكليز كان حول مشكلة الاثوريين هذه المشكلة او بالاحرى هذه الازمة السياسية كانت قد كلفت الملك المتعب[٢٠] حياته فعند مغادرته العراق لغرض اجراء الفحوصات الطبية في شهر حزيران عام ١٩٣٣ اشتعل فتيل الفتنة الاثورية في العراق واخذت المراسلات بينه وبين حكومته التي كان يرأسها رشيد عالي الكيلني من جهة وبينه وبين الحكومة البريطانية من جهة ثانية لقد كانت الكتب والبرقيات التي كان يزوده بها السير همفريز السفير البريطاني في بغداد والذي كان في لندن اثناء المشكلة الاثورية . وفي احد الايام استلم مقر اقامة الملك في بيرن كتاب شبه رسمي ينذر فيه البريطاني الملك بانه اذا حصل ما لا تحمد عقباه فان الملك فيصل هو المسؤول عن ذلك وينصح السفير الملك بصورة حازمة Strongly advise[21] بالعودة الى بغداد حالا لمعالجة الموقت وكان هذا الكتاب بمثابة القول الفصل فما كان من الملك الا وان يقرر العودة الى بغداد . لقد كان الامير غازي نائبا للملك وهو اضافة الى نزعته القومية شاب عديم الخبرة في امور السياسة والملك . ان ما

حصل في العراق من حوادث دامية كان اثرها السلبي على مستقبله السياسي واضحا في الاوساط السياسية الدوليةة وخاصة في المنطقة الاوروبية واخذت الصحافة الغربية وبصورة خاصة الفرنسية منها تكيل التهم الى حكومة العراق واصفة اياها بعدم الادراك ذلك لتخليها عن الانتداب البريطاني وكان الزعيم الديني (المار شمعون(يغذي الاشاعات ويزيد من تكاثرها حتى استطاع ان يصور ما حدث بمذبحة قام بها المسلمون ضد نصارى العراق وصل الملك فيصل الى بغداد فاستقبله الاميز غازي واعضاء الوزارة وهم مرتاحون من انتهاء الفتنة وعودة الهدوء الى ارجاء الوطن فسر الملك لتلك النتيجة بزوال الخطر عن مملكته وبعد ان امضى جلالته قرابة الاسبوعين في بغداد قرر العودة الى سوييسرا للعلاج وكان بمعيته كل من وزير الخارجية نوري السعيد ورستم حيدر وتحسين قدري والملك علي وصل الملك متعبا ولقد اخبر نوري السعيد(٢٢) موسى الشابندر (بان خلال مكوث الملك في بغداد لم يتناول غير البيض والبرتقال) .

فيصل في معترك الحياة

لم يكن من السهل على فيصل وهو متربع على عرش العراق ان يساير الاحداث كما يشتهي الانكليز وكما يطلب العراقيون في آن واحد ولمثل هذ السبب كان كثيرا ما يعاني الامرين وفي خضم الاحداث حاكما غريبا على الشعب ليس من السهولة قيادته من غير مصاعب لذلك حاول الملك ونجح في محاولته ايجاد نوع من الثقة المتبادلة بينه وبين شرائح الشعب وقادته فكان يطلبهم للمشاورة حين تتأزم الامور ويتخذ من تطرف المعارضة احيانا وسيلة للمساومة والضغط على دار الاعتماد لاستخلاص حقوق البلاد من قبضة الاجنبي وكان يلين في جانب اخر من جوانب حياته السياسية ويظهر بمظهر

المتجاوب مع رغبات دار الاعتماد وهو في داخله يوازن بين القوى السياسية ويحاول ان يستفيد من الظروف المناسبة ما استطع الى ذلك سبيلا بغية عدم وصول الازمة الى النقطة المستعصية التي قد تتحكم عليها الامال وعلى العموم فقد كان الملك فيصل في هذه الفترة الحرجة من عمر العراق السياسي المحور المنظم والقوة الدافعة الرئيسية في تنظيم شؤون ابلد والسهر على معالمه وبقي على ذلك المنوال من الجد والمتابعة حتى تمكن بعد كفاح استمر اكثر من احد عشر عاما من ادخال العراق الى عصبة الامم بعد جهد جهيد وكانت سياسة الملك في ادارة شؤون البلاد وغموض بعضا من جوانبها قد عرضته الى اتهامات عديدة وقد عبر عن تلك السياسة امين الريحاني عندما قال :

(اما الملك فيصل فقد اساء الناس موقفه في تلك الايام فلم ينصفه الانكليز ولا انصفه العراقيين قال الانكليز اصدقاؤه انه انقلب عليهم بعد التتويج وقال المتطرفون التقدميون انه يخدم مصالح الانكليز ويعمل بمشورتهم وينصاع الى اوامرهم اما الحقيقة وان بدا شيء منها هنا وهناك الحين بعد الحين فهي اصلا واساسا واحدة لا انكليزية ولا وطنية بل فيصلية عراقية كان فيصل واقفا في تلك الايام موقف المدافع وكان همه الاول ان يحافظ على الفرص فيعزز مركزه كملك على العراق ليعمل بعد ذلك على تعزيز موقف العراق من خلال المعاهدات المبرمة مع حليفته) ولعل اهم الاحداث التي شغلت الملك واكثرها حسسية اثناء فترة حكمه الممتد من العام ١٩٢١ الى ١٩٣٣ هي كالاتي :

١ – موضوع الحاق ولاية الموصل بالعراق .

٢ – ادخال العراق الى حظيرة عصبة الامم .

٣ – العناية بالجيش .

٤ – تمرد الاثوريين .

ولقد اخذت كل واحدة منها الشيء الكثير والجهد العصيب والايام الطوال من عمر جلالته فقد كان يعالج كل منها بنفس طويل وتروي وحكمة يدلان على ما كان يتمتع به من عقل جبار واضعا نصب عينيه مصلحة الوطن والشعب في المقام الاول واستطاع بما عرف عنه سياسي محنك ان يرضي كل الاطرف المتنازعة لكل مشكلة من تلك المشاكل حتى استطاع تذليلها بما يرضي ضميره فما كاد يرتاح بعد حل مشكلة حتى يفاجأ باخرى اعقد منها واصعب ويعمل من جديد في سبيل اسعاد الشعب وفاه الامة ودعم السيادة الوطنية ويحمي الاستقلال حتى يطمئن على مصالح فيرتاح قليلا ويزول عنه الهم الكبير الكثير .

قال فيصل

١ – الاستقلال يؤخذ ولا يعطى .

٢ – ان كل اعتمادي على الشباب .

٣ – ان الحكم يكون قائما اما على المحبة او الرهبة وانا اريد ان يكون حكم شعبي على المحبة .

٤ – غايتي هي استقلال العرب .

٥ – انا ومن معي سيف مسلول بيد العرب .

٦ – لا اعتبر الرجل رجلا الا اذا كان صادقا لبلاده .

٧ – ان من يلقي الشقاق بين المسلم والنصراني واليهودي هو غير عربي .

٨ - نحن عرب قبل ان نكون مسلمين ولقد كان (محمد ص) عربيا قبل ان يكون نبيا .

٩ - اني لم اسعى للملوكية بل بذلت قواي لاستعادة مجد قديم .

١٠- الشعب وديعة الله في يد زعمائه .

١١- اذا كان الناس على دين ملوكهم فالملوك على دين شعوبهم .

١٢- انا لست بملك بل جندي في سبيل امتي .

١٣- لست اخاف الموت ولكن لدي الشيء الكثير الذي يجب أن احققه قبل ان اموت .

١٤- العرب امة واحدة لا فرق بين لبناني ودمشقي ولا فرق بين مسلم ودرزي ومسيحي .

١٥- للحاكم وظائف وللشعب وظائف وكما ان الحاكم يريد ان تعطى له الصلاحيات كذلك الشعب يريد ان يحتفظ بالحقوق .

١٦- ان اذكركم بالواجب الخطير الملقى على الاهلين في هذا الوقت الخطير وهو الاعتصام بالاتحاد والتآخي في سبيل مصلحة البلاد وليعلم الجميع بان الانقسام يؤدي بحياتنا الاستقلالية .

١٧- املي ان نكون جميعا نسعى يدا واحدة لاعمار هذا الوطن وارجاعه الى سابق عهده وما كان عليه من حضارة ومدنية .

١٨- ليس بالامكان اعمار بلادنا في زمن قليل واعادتها على ما كانت عليه بعد دمرتها المصائب في قرون طويلة ولكن يجب ان نمشي على قاعدة (كل من سار على الدرب وصل) .

١٩- انا ابن الصحراء لقد صهرتني الشمس حتى اصبحت صافيا لا اعرف الديار ولا التمويه .

٢٠- سنصل الى ما نصبو اليه باقرب وقت ان شاء الله فالى الاتحاد والتعاضد الى الرؤية والتبصر الى العلم والعمل ادعو ابناء امتي والله الموفق المعين .

قالوا في فيصل

لقد كان فيصل زعيما وطنيا كبيرا من غير السهولة ان تنجب الامة العربية مثيلا له في العقود التالية .

الامير شكيب ارسلان

ان وفاة فيصل خسارة كبرى لسياسة العرب وللسياسة البريطانية في الشرق لا تعوض .

جريدة Daily Hiralod

معاونته للحلفاء عظيمة الفائدة كثيرة النفع لي بصورة خاصة لقد كان بطلا شجاعا مخلصا ونحن نحتفظ له ولاسرته ولجيشه كل تقدير واحترام .

المارشال اللنبي

لقد كان فيصل الصديق الصادق لبريطانيا وانه الشخصية الفذة التي استطاعت ان تقرب بين السياستين الانكليزية والعربية .

جريدة Near East

ان فيصلا رجل فوق كل الرجال

T.E. Lowrance

كان فيصل شخصية مرهوبة الجانب من خصومه واعدائه على حد سواء وذلك لقوة شخصيته وسحرها .

رئيس الوزراء طه الهاشمي

ان فيصل ينبوع ذكاء واخلاص وصفاء وهو اليوم اعظم بكثير مما كان عليه في العام ١٩٢٠ لقد كنت اخذ عليه انه اضاع عرش سورية لنقص في تجربة حاشيته اما اليوم فانني احتقر نفسي واحتقر الكثيرين من رجالنا عندما اقارن بينهم وبين هذا الرجل العربي الذي كان دائما يخلق شيئا من العدم بينما رجالنا رغم كل ما توفرت لهم عناصر الابداع فانهم لا يصلونه بشيء .

المفكر الفرنسي يوجين تونغ

ان فيصل لم يكن صديقا لبريطانيا فحسب بل كان منذ البداية وحتى النهاية صديقا لشعبه اما بريطانيا فلم تكن الا الواسطة التي يحقق فيها غايته في اقامة كيان شعبي على قاعدة من الرفاه والحرية .

جريدة Satarday Review

كان المرحوم الملك فيصل يتصف بصفات ممتازة عالية تجعله دائما في طليعة رجالات الشرف والعظمة . كان شعلة من الذكاء الحاد كما كان مجموعة من اعصاب باردة هادئة وصدر رحب وشيء من الحزم ان مجموعة تلك الصفات كانت تشكل حيزا كبيرا في حياة العراق السياسي .

رئيس الوزراء توفيق السويدي

لقد كان فيصل الاول مثال الوفاء والاخلاص للقضية العربية واستمر بخدمتها حتى لفظ انفاسه الاخيرة وهو يطمع الى تحقيق الحكم العربي بتوحيد امة العرب .

دمشق بنية العظمة

لقد اتخذ فيصل على عاتقه في العراق ان يخدم القضية الوطنية بمنعه قطع الحبل بي الوطنيين والانكليز حتى يصير العراق قادرا على الدفاع عن نفسه .

الدكتور عبد الرحمـــن الشهبندر
وزير خارجية سوريا في عهد فيصل

يـــا شـــراعا وراء دجـلة يجـري   في دموعي تجنبتك العوادي
امـــة تنشـــي الحيـــاة وتبنـــي   بنـــاء الابـــوة الامجـــاد
تحت تاج مـن القـرابة والملـك   عـلى فـوق اريحـي جواد
ملك الشـط والفراتين والبطحاء   اعظـم بفيصـل والبـــلاد

احمد شوقي

فضل فيصل على العرب وقضيتهم وعلى قضية العراق بصورة خاصة فضل عظيم ولو بقي حيا الى هذه الايام لرأينا له اثرا كبيرا في سياة الجامعة العربية وخاصة في القضية الفلسطينية لقد فاضت روح الملك فيصل العظيم في مدينة بيرن وانا ادخل غرفته ويذكر اللذين كانوا هناك اننا كنا نبكي حظ الامة العربية .

الامير عادل ارسلان

الملك فيصل يتذكر

هذه سطور عن حياة الملك فيصل اثناء فترات متباعدة من عمره فهو يثبت هنا فصولا من حياته ابتداء من الاستانة ومرورا بالحجاز ابان الثورة العربية الكبرى ثم عن الاشهر التي قضاها في الشام ملكا على السوريين واخيرا وهو ملك العراق ولقد اباح بكل هذه الذكريات للفيلسوف امين الريحاني اثناء

زيارته للعراق والذي امضى الوقت الكثير الى جانب فيصل يستمع منه وينصب اليه ليسجل بقلم حر سطورا عن حياة هذا الجليل قال الريحاني(٢٣) حدثني الملك فيصل عن ايام الاستانة فقال :

(كنا في الاستانة نذهب مع الوالد لنسلم على السلطان فندخل لردهة العرش متكفتين محنيي الرؤوس فنجثوا امام الباديشاه ونقبل يده ثم نرجع بضع خطوات نقف ساكتين وبعد ذلك نخرج كما دخلنا والقلوب تنبض بالخوف والخشوع اي والله . ولت الايام وولى السلطان حاربنا الاتراك وانتصرنا عليهم ثم رجعت الى الاستانة وانا ملك على العراق وعندما وصلنا الى حيد باشا قادمين من انقرة كانت بانتظارنا على المرسى هو اليخت المخصص للباديشاه ايام حكمه فاقلنا الى غلطة .

وعندما نزلنا الى الشاطئ الاوربي رحنا نزور القصر قصر طولمة بقجة اقصر الذي كنا ندخله خائفين مرتعبين بين صفوف من الجند لنقف مثل العبيد امام الباديشاه فدخلناها هذه المرة بسلام وكانت الاروقة والقاعات خالية خاوية اما ردهة العرش فقد هالني فراغها عندما وقفت في الباب ولكن العرش . . . العرش الفرغ المهجور لا يزال فيها فتقدمت نحوه هذه المرة بخطوات ثابتة وصعدت درجاته ساحر الرأس وجلست على الكرسي وكان سروري والله عظيما فحمدت الله رب العروش مشيدها وهادمها وقلت لنفسي لقد ادركت ثأرك اليوم) .

وفي مكان اخر سجل الريحاني ما سمعه من فيصل عندما وجه اليه سؤالا عما يعتقده ان كان هناك ثمة ايام مرت عليه اعتبرها اشأم ايام حكمه في العراق فدار بينهما هذا الحوار القصير :

(سألت الملك ذات ليلة ان يخبرني بما يحسبه اشأم ايام حياته بعهده

العراقي فقال اسمعني يا امين سأكون صريحا معك ان اشأم الايام يوم الجراحة ومجيء السير برسي كوكس بذلك الامر العصيب الذي طلب مني ان امضيه قبل دخول صالة العمليات الامر الخاص بنفي مجموعة من الوطنيين العراقيين سوف لن انسى ذلك اليوم ما دمت حيا) .

بعد نجاح الثورة العربية واستقلال الوطن العربي من الهيمنة التركية وبعدما دخل فيصل الشام محررا اخذ يستقبل وجهاء بيروت اللذين قدموا للسلام عليه وتهنئته بالفوز العربي الكبير الذي تم تحقيقه على يده فاستقبلهم بحرارة وشكر لهم مشاعرهم واخذ جلالته(٢٤) يشرح اسباب ثورة ابيه على الترك اللذين ظل الوطن العربي تحت سيطرتهم قرونا خمسة فقال في ذلك المجلس :

(انا ابن الصحراء لقد صهرتني الشمس حتى اصبحت صافيا لا اعرف معنى الرياء والتمويه ولكني صريح في كل ما يصدر عني من قول وفعل لقد ضغط علينا الاجنبي حتى كدنا نموت من العطش فضلا عن الجوع وانت تعلم اننا نعيش في واد غير ذي زرع فبقينا نصبر ونتلمس الاغاثة من دولتنا المسلحة فاذا هي تتشفى فينا وذا جمال السفاح ينصب المشانق ويعلق رجالات العرب فوقها ولم اسلم منه الا بعناية الله من اجل ذلك ثرنا بعد ان اخذنا عهدا من الاجنبي ان تكون ثورتنا في من استقلالنا فما كنا على حذر في ذلك ايها الاخوان) .

نقلت المس بيل في احدى رسائلها

قصة طريفة عن فيصل رواها لها في بغداد وهو يتذكر ايام مكوثه في لندن قبل ان يكون ملكا على العراق وكانت ذكرياته تلك تتعلق حول المقابلة التي تمت بينه وبين الملك جورج الخامس فقالت(٢٥) :

(يوم الاربعاء الماضي ٧ ايلول ١٩٢١ كنت في زيارة للملك في بيته الجديد المطل على النهر حضرنا دعوة عشاء مسلية فيصل وانا ونوري ورستم واحد المرافقين استعاد فيصل ذكرياته في لندن لما وصلها بعد ان اخرجه الفرنسيون من الشام وذهب الى وزارة الخارجية وقابل سير جون تيللي الذي وصفه بحق بانه شخص خالي من الضرر فاخبره السير جون انه اثناء مقابلته للملك جورج الخامس لا يجوز له ان يتطرق الى سورية لا بل حتى عن الفرنسيين والاهم من كل ذلك عدم التطرق الى اتفاقيات الانكليز مع العرب كونها مناقضة لاتفاقاتنا مع الافرنسيين ولكن السير جون لسوء الحظ فاته ان يزود الملك (جورج) بالتوجيهات نفسها واثناء المقابلة بدأ الملك البريطاني حالا الى اثارة الموضوعات المحرجة وانتهى بانه ليس لفيصل ان يقلق ابدا لاننا نحن وراءه وندعمه بقوة في كل شيء) .

ومن مذكراته ابان الثورة العربية الكبرى قال فيصل : اذكر مرة ان ابي اشرف مرة على تمويل الحملة فجهزناها بما يلزم من السمن والدقيق والرز والبن والشاي والسكر ثم طلبت شيئا من العدس وكان الوالد يرحمه الله يفحص كل شيء قبل الرحيل وكان قاسيا في احكامه قاسيا والله لا يريدنا الا مثل البدو في معيشتنا فلا يكون لنا ما ليس لديهم فعندما جاء يفحص المؤن وقف الى جانب كيس العدس فقال هل يأكل البدو العدس قلت لا يا سيدي فقال وهل انت احسن من البدو وأمر ان يعاد كيس العدس الى بيت المال .

فيصل يبرر صداقته للانكليز

نقل امين اريحاني ما كان قد سمعه من الملك فيصل حول علاقته بالانكليز وكيفية وجوب التعامل معهم وهو المدرك دائما ما عليه اهم ويوزان ويقارن بين حقيقتين التصاقه بالوطن وتعلقه بالشعب والحفاظ على استقلال

البلاد وبين وقفته مع الانكليز وهم يومئذ اصدقائه الوحيدون في المنطقة كما صرح هو بذلك وكانت صراحته تعبر عما يجول في خاطره واعماق نفسه من هموم وغموم قال فيصل :

(لو رحت ابحث اليوم عن حليف للعراق فاين اجده؟ في فرنسا؟ الفرنسيين اعدائي في تركيا؟ ما انتهت الحرب بيننا وبين الاتراك في العجم؟ ان حكومة العجم تزيد من متاعبي في تدخلها بشؤون الشيعة في العراق اين اجد الحليف؟ في نجد لا تزال خطة ابن سعود حربية اكثر منها سلمية وفيه الخطر عليه وعلينا سواء فلا ترى اننا محاطون بالاعداء ولا اصدقاء لنا غير الانكليز هذ الحقيقة يا اخي واذا اعترفت بها وقبلتها وعلاجتها بالتي هي احسن قالوا اني امالي الانكليز واخدم مصلحتهم وسياستهم الانكليز «العياذ بالله» هم يطلبون مني ان اوقع على معاهدة لا تمكنني من تأسيس حكومة وطنية صادقة قوية ولا تمكننا بذلك من القيام بتعهداتنا خذ الجيش مثل نحن نبغي جيشا وطنيا ولا احد يتطوع وفي البلاد انتداب البرهان بسيط يقول العراقيون اذا كان الانكليز مقيمون في البلاد العراقية فليدافعوا هم عنه بجيوشهم هذا حق بل هذا منطق) .

يقول الريحاني كان الملك فيصل يحدثني بلهجة هادئة صافية الا انها شديدة بليغة وقد ظهرت شدتها حتى في همسه وبدت بلاغتها حتى في وقفاته وفي ملامحه وحركاته فكان ينزع الخاتم من اصبعه ويلعب به تهدئة لاعصابه .

فيصل يتذكر ايام تلمذته في الاستانة

من ذكريات الملك فيصل التي اباح بها الى امين الريحاني هذه السطور عن ايام تلمذته على المعلم صفوت باشا العوا المعلم الخاص لاولاد الشريف

حسين هناك قال فيصل (انا اعرف طعم القضيب واكثر من طعم ما كنت مجتهدا مثل اخي عبدالله بل كنت دائما متأخرا في العلم وكان معلمنا (صفوت العوا[٢٦]) يعلمني هكذا ضم الملك اصابع يده بعضها الى بعض وطفق يضربها بكف اليد الاخرى هكذا يا امين تلقينا العلم واذكر ان والدي قال لي انك شريف وابن شريف ولكن هذا لا يعني شيئا ما لم تكن ملما بالعلم والمعرفة .

وفاة الملك فيصل

انتقل جلالة الملك فيصل الاول الى جوار ربه في الساعة ١١,٤٥ من ليلة ٧-١٩٣٣/٩/٨ في اليوم الثامن نقل جثمان الملك لاجل التشريح في المستشفى لمعرفة اسباب الوفاة وجاء في التقرير ان مرض تصلب الشرايين المزمن الذي كان يعاني منه ادى الى نوبة قلبية حادة قضت عليه . قامت الحاشية الملكية بزيارة المستشفى لالقاء نظرة الوداع الاخيرة على الجثمان فبكى هناك كل من نوري السعيد وجلالة الملك علي وكل الحاضرين ثم نقلت الجنازة وهي ملفوفة بالعلم العراقي ووضعت في احدى صالوناته وظل الطلاب العرب القادمون من لوزان ومدن اخرى قائمين بواجب حراسة الجثمان مناوبة حتى الصباح وبعدها نقلت جنازة الفقيد الى القطر وحضر جعفر باشا العاسكري من لندن ثاني يوم الوفاة .

اسباب الوفاة

يقول موسى الشابندر الذي كان حاضرا وفاة الملك فيصل ما يلي في كتاباته ذكريات بغدادية عن اسباب وفاة فيصل :

(مات الملك فيصل اما عن اسباب موته فقد ذكر انه كان يعاني من مرض

تصلب الشرايين وهذا المرض بالذات حسبما اثبته كبار علماء امراض القلب ناتج بصورة اكيدة عن الارهاق الذهني وهذا ما كان يعاني منه الملك فيصل فان الاحداث الجسام التي مرت ضمن حياته القصيرة كان مردودها سلبيا على صحته) هذا اضافة الى استمراريته بالتدخين المفرط وشرب القهوة العربية المرة بكميات كبيرة اثناء فترة النهار وهذا ما اكده الدكتور سندرسن طبيبه الخاص من ناحية اخرى لم يكن غذاء الملك بوجباته الثلاث غنيا بالمواد الضرورية التي يحتاجها الجسم بل كان يقتصر غذاءه على شيء بسيط من الحساء والفواكه والاكثار من اكل البيض مما سبب له مضاعفات في سوء الهضم غير انه في يوم انتقاله الى الرفيق الاعلى تكاثرت الشائعات عن اسباب اصابته بالنوبةا لقلبية التي ادت بحياته ويذكر الشابندر مايلي عن تلك الاشاعات .

(اخذت الشائعات تتكاثر عن اسباب اصابة الملك بالنوبة القلبية وكل واحد يروي الاسباب حسب اجتهاده وشعوره قال البعض ان الذنب يقع على تحسين قدري لانه لم يعتن بصحة الملك كما ينبغي وانه قدم اليه الفتاة الفارسية من فرس الهند التي كانت تسكن نفس الفندق مع اخيها وانه برغم تحذير الطبيب بلزوم الابتعاد عن اللقاءات الغرامية فقد دبر تحسين تلك الاجتماعات التي ادت الى النوبة القلبية . وقال البعض الاخر ان البلاء قد جاء من النزهة الى (انتربلاكن) فالسائق الانكليزي لا يعرف الطريق ولقد اخذ مسار طريق الجبل وارتفع نحو ٣٠٠٠ قدم ونزل من ذلك الارتفاع بيوم واحد وقال اخرون ان اسباب الوفاة كانت نتيجة الابرة التي زرقها له الدكتور المعالج عند عودته من النزهة . اذ كان جلالته يشعر بتعب شديد وكان من الواجب على الطبيب ان يتركه يرتاح ذلك اليوم . ويضيف الشابندر قد تكون تلك الاسباب صحيحة ولها تأثيرها ولكن الحقيقة ان الملك كان مريضا وقد

ذهب ضحية جهده وكثرة متاعبه في سبيل بلاده) .

من مذكرات فيصل

يبدو ان الملك فيصل كان يدون مذكراته عن مراحل جهاده وفي ثان يوم الوفاة شاع ان مذكرات فيصل قد فقدت وان الخادم الارمني المكلف بخدمة سيده هو سارقها وبعد تفتيش وتحقيق وجدت بحوزة تحسين قدري غير ان المرحوم قدري لم يتطرق في احاديثه وتصريحانه ومذكراته عن خدمته الطويلة لملوك العراق بأي شكل من الاشكال عن موضوع المذكرات الملكية لمؤسس العراق الملكي ولم تزل ضربا من المجهول ولا احد يعلم شيئا عنها واغلب الظن انه في حالة عودتها الى العراق بعد وفاة فيصل اودعت في مكتبة البلاط الملكي او قصر الرحاب وبات مصيرها مجهولا يوم الثورة في الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ من جهة اخرى اني لم اعثر على اية ملاحظة عن مذكرات فيصل او اية اشارة عنها في كثير مما كتبه الساسة العراقيون في مذكراتهم فلو ان مثل تلك المذكرات ان كانت حقيقية الوجود لكان من الطبيعي ان يشار اليها من قبل الرعيل الاول من اصحاب فيصل وهم يدونون تاريخ العراق السياسي وعلى اية حال فان وجود المذكرات او عدم وجودها لم يغير شيئا عن حياة فيصل العظيم او لم يقلل من مسار طريقه الجاد الطويل في سبيل حرية واسعاد شعبه وبلاده ان الكثيرين من عرب واجانب اجمعوا على ان العراق خسر بوفاة فيصل قائدا محنكا وملكا عادلا ورجلا من الطراز الاول كانت مملكته وشعبه بأمس الحاجة اليه .

ردود الفعل العربية لوفاة فيصل

(عمان) على اثر تلقي الامير عبدالله النبأ المشؤوم سارع وابرق الى الملك

غازي البرقية التالية :

جلالة ولدنا الملك غازي - بغداد

مع الحزن العميق ارجو قبول العزاء وآمل ان تمثل المرحوم امام الله والشعب والبيت الهاشمي حق التمثيل وان نلاقي هذه المصيبة بكل المتانة وان تقوم بمهمتك الشاقة التي اراك كفؤا لها خير قيام .

وقد قصد اهالي عمان قصر الامير عبدالله لتقديم التعازي لسموه فقابلهم عبدالله باكيا ثم خطب فيهم قائلا (لا حي يدوم الا وجهه تعالى) اعارنا الله انسانا ثم عاد واسترده وتلك مشيئته ثم ان الاسترداد صعب على النفوس لانه جاء في زمن فيه العرب محتاجون الى الراحل العظيم ولكننا دائما اهل البيت دائما مصابون والله لم ينسكم ولكم في الرسول اسوة حسنة بارك الله فيكم واحسن جزاءكم .

بيـــــروت

ما وصل خبر النعي الى مدينة بيروت حتى ارتجت من اقصاها الى ادناه فخرجت الوف مؤلفة الى واجهة شارع المعرض حتى ضاقت بهم مداخل الشارع على سعتها وكلهم رافعين الرايات السوداء وهم في عويل ونحيب وقد رفعت لافتة سوداء على اكف الرجال عليها صورة الفقيدة منقوش عليها (اذا مات سيد قام سيد) توجهت جموع ابناء الشعب الى المسجد العمري الكبير لتصلي صلاة الغائب وبعد الانتهاء من الصلاة تجمعوا في احدى ردهات المسجد والقيت الخطب والقصائد في تأبين العزيز وبعد انتهاء الخطب سار الموكب تتقدمه فرق الكشافة فالموسيقى الوطنية وسار في مقدمة الموكب نخبة من رجالات بيروت فتوجه الجميع الى دار القنصلية العراقية لتقديم واجب العزاء الى القنصل العراقي فاستقبلهم القنصل وشكرهم على مشاعرهم والقى

فيهم كلمة بالمناسبة .

في دمشق

ما كاد النبأ يصل دمشق حتى التهبت مشاعر السوريين حماسا وبدأت المسيرات الحزينة واخذ الناس يتوافدون الى دمشق من مختلف انحاء سوريا وفي عصر الجمعة كبّر المؤذنون في الجوامع ذاعين المغفور له باصوات مؤثرة ونشرت الاوساط السياسية والجمعيات المختلفة بيانات شتى على الامة فاحتفلت دمشق احتفالا مؤثرا وعطلت الاعمال واغلقت الاسواق وارتفعت لافتات الحداد على الاماكن العامة والتصقت شارات الحداد على الصدور وباتت المدنية وهي مدثرة بالسواد .

في صيداء

هلعت النفوس حزنا على الفقيد وعقدت الاجتماعات في الجوامع والمساجد واذيع بيان على الناس تعبر فيه فيصل العظيم وقصة الشيخ سعد الدين الصالح وقد اقفلت المدينة ورفعت اللافتات السوداء على المآذن واعتلى المنبر للخطابة كل ممثلي ابناء صيداء ولبناء الطوائف فتم تأبين الفقيد بما يليق من فصاحة المنطق وبلاغة البين ولقد تقرر ان تقام للفقيد العزيز حفلة تأبين كبرى في ذكرى الاربعين لوفاته .

في المدن السورية الاخرى

وفي حمص وحما واللاذقية اعلن الحداد العام بهذه الفاجعة العربية الكبرى وعطلت المدارس وشلت الحياة العامة في كافة مرافقه وابرقت الهيئات المختلفة في كافة المدن برقيات التعزية الى جلالة الملك غازي المعظم ونشر نواب الامة ورجال الكتلة الوطنية بيانات مختلفة يعزون فيها الامة العربية على الفاجعة التي المت بها ولقد تجمع الالوف من ابناء المدن السورية المذكورة في

النوادي والجمعيات ومقرات الاحزاب والجوامع والساحات وهم يرفعون اللافتات السوداء التي تحمل عبارات وشعارات لنعي الفقيد الجليل كما اقيمت صلاة الغائب في الجوامع ومجالس العزاء في الكنائس وقرعت الاجراس واصبحت الساحة السورية من كل جوانبها حزينة كئيبة على المصاب الجليل الذي حل بالامة العربية لوفاة الملك فيصل ملك سورية السابق وملك العراق اللاحق .

متفرقات من حياة فيصل

١) عن علاقة فيصل بالانكليز يعلق جعفر العسكري على لقاء تم بينه وبين ساسون حسقيل وزير المالية في وزارات النقيب فيقول جاءني يوما السيد ساسون حسقيل لزيارتي فوجدته مهموما عبوسا بشكل لم اعهده به قبلا فسألته ما الخبر يا ابا خضوري خير ان شاء الله فاجابني والعبرة تكاد تخنقه : اسمع يا باشا لقد طرق سمعي بأن سيدنا فيصل قال لاحد معارفه ومقربيه ان الانكليز كانوا وراء تعيين ساسون وزيرا للمالية في وزارة النقيب فاستشهدني بقوله ايصح هذا يا باشا وما كاد ان ينتهي من كلامه حتى ارسلتها ضحكة عالية فبهت الرجل ازاء موقفي ثم قلت له ان سيدنا نسي ان الانكليز كانوا وراء تعيينه ملكا فان كان هو نفسه قد نصب من قبلهم فما الضرر اذاً ان يكون وزراء دولته معينين من قبلهم .

٢) ذكرت جريدة فتى العرب الصادرة في الشام ان فيصلا كان مستعدا في ابان الحرب ان ينضم الى تركيا على انكلترا بشرط ان تكفل له تركيا تأليف دولة عربية وكتب ذلك القائد فون سندرس باشا في مذكراته وانه كلف الحكومة التركية بأن تتعهد بتأليف هذه الدولة .

٣) اثناء فترة حكم فيصل في سورية سكت نقود ذهبية من فئة (الدينار السوري الذهبي) باسم فيصل الاول ولكن لم يضرب من ذلك الدينار سوى احد عشر دينارا ولقد حفظت في المتحفة السورية .

٤) في رحلته الاخيرة الى سويسرا لغرض العلاج كانت الصحافة الغربية ما تزال تثير الضجة الكبرى حول المسألة الاثورية التي وقعت احداثها في صيف ١٩٣٣ وقد التقى مراسل جريدة الديلي ميل البريطانية بالملك فيصل في مدينة بيرن وسأله عن العلاقات العراقية البريطانية ومدى تأثرها على ضوء المسألة الاثورية فقال المالك ان الحكومة البريطانية تعلم بكل شيء عن تفاصيل ما حدث ولا شك بأن بعض الجهات لمنافع ذاتية في نفسها حاولت ان تعكر صفو العلائق الودية القائمة بيننا غير اني استطيع ان اكرر بكل تأكيد بأن سياستنا هي تقوية وتنمية العلائق بين العراق وبريطانيا خطوة فخطوة .

٥) ذكر شاكر [٢٩] الوادي الذي عمل مرافقا للملك فيصل انه كان برفقة سيده في نزهة بضواحي بغداد وفجأة شعر الملك ببعض التعب والاعياء فأمر السائق ان يعود الى مزرعة الحارثية فلما وصلناها سألني الملك ان اطلب من الخادم تهيئة بعض الطعام لتناول وجبة الغذاء فلما قصدت الخادم لاطلب منه ما امر به جلالته فاجأني بعدم وجود اي شيء جاهز للاكل حيث لم يطلب منه ذلك ولما علم الملك فيصل بالامر ضحك قائلا دبر لنا اي شيء نأكله فلم اجد في مطبخ دار الاستراحة في الحارثية سوى بيضة ورغيف من الخبز وهما كل ما تبقى من اكلات لحارس فقال الملك الحمد لله وشكرا لله فتم قسمة البيضة ورغيف الخبز بيني وبينه بالتساوي .

٦) يعتبر الثلاثي جعفر العسكري ونوري السعيد ورستم حيدر اعمدة الحكم الفيصلي من العراقيين بصورة اكيدة لا تقبل اي شكل فلقد سبق للملك فيصل ان تعرف عليهم ابان اثورة العربية الكبرى ومن الوهلة الاولى لتعرفهم جند كل واحد منهم نفسه ليكون في خدمة سيده في منتهى الاخلاص والتفاني ونكران الذات مما حدا به ان يضع ثقته المطلقة بهم وان يمنحهم ارفع الامتيازات مقارنة بزملائهم من الذين خدموا معه في معية الملك لقد ظل رستم حيدر يعمل سكرتيرا خاصا للملك منذ ان تم اول تعارفهما في سورية وتوجه معه الى اوربا وعند اختيار فيصل ملكا على العراق كان رستم من اعضاء حاشيته التي قصدت العراق لقد شغل رستم حيدر وهو شخصية علمية وسياسي محنك تخرج من فرنسا مختصا بالعلوم السياسية والاقتصادية مناصب وزارية كان اخرها منصب وزير المالية في وزارة نوري سعيد حيث قتل وهو في مكتبه بالوزارة المذكورة في عام ١٩٤٠ . اما جعفر العسكري فانه وزميله نوري السعيد وضعا نفسهما في خدمة فيصل بشكل استثنائي مما وجب على دائرة المندوب البريطاني ان تبارك لهما هذا الاخلاص وتعتبر المس بل اخلاص هذين الاثنين للملك شيء يدعو للفخر والاعتزاز لقد عمل العسكري في حقل الجيش باعتباره ضابطا ذو مكانة عالية اضافة لترأسه الوزارة مرتين واشغاله منصب وزير الدفاع لمرات متعددة ولقد قتل في العام ١٩٣٦ اثناء انقلاب بكر صدقي .
اما نوري السعيد فان اهم شيء كان يتباهى به هو اخلاصه اللامحدود للعائلة المالكة ويعتبر نوري(٣٠) من اهم تلاميذ فيصل ومحور فضله ودعامة حكمه لما امتاز به هذا الانسان العبقري من صفات قد لا يجود به الزمن على غيره ببساطة ويسر ظل نوري يعمل في خدمة العائلة المالكة حتى اخر

يوم في حياته حيث قتل في الخامس من شهر تموز عام ١٩٥٨ اثر قيام ثورة ١٤ تموز .

يوم التشييع في بغداد

ارتج العراق بأجمعه حين وصل نعي الراحل العظيم فخرجت الالوف من ابناء الشعب العراقي الى الشوارع على شكل مواكب العزاء ولقد نكست الاعلام الرسمية ورفعت الاعلام والرايات ولافتات السوداء على كافة معالم عاصمة الرشيد وعلقت الشارات السوداء على الصدور فلبست بغداد بسكانها والعراق بابنائه حدادا يوحي بحزن عميق على المصاب الجلل ولقد تدفقت افواج الماطنين من خارج العاصمة الى بغداد ولقد وصلت بعض القبائل المجاورة لبغداد راجلة وعلى الخيل وبدأت الوفود العربية تصل بغداد للمشاركة في تشييع جنازة الفقيد العزيز فوصلت وفود الاردن وسورية وبيروت وفلسطين وفي ليلة وصول الجثمان الطاهر قرعت الطبول والدفوف فتجمعت المواكب المتعددة واتجهت على شكل مسيرات متوجهة الى المطار المدني .

ولقد حلقت في الجو تسع طائرات من طائرات القوة الجوية الملكية صباح يوم ١٩٣٣/٩/١٥ في سماء بغداد لاستقبال طائرة جثمان الملك .

وعند وصول الطائرة المقلة للجثمان الى اجواء بغداد احتوتها طائرات القوة الجوية الملكية ورفرفت عاليا فوق سماء بغداد ليودع جثمان فيصل ابناء شعبه من سكان بغداد وبعدها هبطت طائرة الجثمان ونزل منها الملك علي ونوري السعيد ورستم حيدر وجعفر العسكري وتحسين قدري وكان في استقبال الجثمان في المطار كل من صاحب الجلالة الملك غازي والاميران عبدالله وعبدالاله ورئيس الوزراء وكبار رجال الدولة من عسكريين ومدنيين ثم خف ستة من قادة الجيش الى الطائرة واخرجوا منها الجثمان وقد وضع محنطا في

نعش صنع من الخشب الغالي ثم وضع الجثمان على عربة مدفع تجرها ثمانية خيول مدثرة بالسواد ووضعت صورة كبيرة للفقيد الغالي ثم دثر النعش بدثار اسود كتب عليه بحروف بيضاء الجملة التالية : سنمشي الى المجد والوحدة والحرية على اثارك .

ووصل الموكب الى البلاط الملكي وهناك اعد حصان الملك الخاص وهو مدثر بالسواد حاملا جزمته العسكرية وقد وضعت مقلوبة وسيفه الذهبي المرصع فجره احد ضباط الحرس الملكي الى قرب النعش ثم جيء بأوسمة جلالته يحملها ضباط على وسائد واصطف الموكب بعد انضمام من كان في البلاط اليه على الترتيب التالي :

١ - جماعة الرمي
٢ - رعيل الحرس الملكي راجلا
٣ - ممثلو وحدات الجيش
٤ - الجوق الموسيقي
٥ - ضباط الجيش
٦ - العلماء والرؤساء الروحانيون
٧ - جثمان الملك على عربة مدفع
٨ - حملة الاوسمة
٩ - حصان الملك .

وقد سار وراء النعش راجلا كل من جلالة الملك غازي والامراء عبدالله وعبدالاله وحسين ثم انزل الجثمان من عربة المدفع فوقف امامه رجال الدين والروحانيون فاقيمت الصلاة ثم دفن بالمقبرة[٣١] الملكية المعدة له وقرئت بعض أي من القرآن الكريم واطلقت المدفعية ٩٩ اطلاقة مدفع تحية لوداعه الاخير .

عندما فكر العراقيون بخلع الملك فيصل

استبشر العراقيون بقدوم الامير فيصل لاعتلاء عرش العراق وعقدوا عليه الامال فقد يكون تواجده على رأس الحكم فاتحة عهد جديد بنهاية عه دمرير

ذاق فيه الناس ما ذاقوا على ايدي السلطة التركية التي هيمنت على بلادهم اكثر من اربعمائة سنة فكان مطلب العراقيون لعهده الجديد الاستقلال والسيادة الوطنية حتى انه عندما زار مدينة الكاظمية وعرج على مدرسة الخالصي وبرفقته رجال حاشيته للقيام بزيارة الامام الخالصي والاجتماع به وكان قد حضر ذلك الاجتماع جمعا كبيرا من رجال الدين ووجوه المجتمع الكاظمي ويذكر السيد محمد مهدي(٣٢) كبة انه كان حاضرا ذلك الاجتماع ولقد سمع الخالصي يوجه للملك فيصل بعض النصائح بوجوب رعاية مصالح الشعب والسير بالحكم على سنن الحق والعدل ثم صافحه يدا بيد قائلا (اننا نبايعكم ملكا على العراق على ان تسيروا بالحكم سيرة عادلة وعلى ان يكون الحكم دستوريا ونيابيا وان لا يتقيد العراق على عهودكم بأية عقود اجنبية) فوعده الملك فيصل خيرا وقال له انه لم يأت الى العراق الا ليقوم بخدمة ابنائه واعلاء شأنه ولكن الملك فيصل الذي فقد عرشه في سورية وعوضه الانكليز بعرش العراق لم يكن بوسعه الا ان يجاري سياسة الانكليز وينصاع لتوجيهاتهم بالرغم مما له دالة عليهم للدور الذي لعبه في الثورة العربية ضد الاتراك .

وبعد التتويج بدأت فعلا في بغداد المعارضة لعقد اية معاهدة تضر بمصالح الشعب وكانت حصيلة المفاوضات التي دارت بين الجانبين المتفاوضين العراقي والبريطاني معاهدة ١٠ تشرين الاول ١٩٢٢ .

كان من ردود الفعل لدى بعض العاملين في الحركة الوطنية في العراق تجاه الملك فيصل وموقفه الغير حاسم مع الانكليز وتجاهله مصالح الشعب والتعطيل بانتخاب المجلس التأسيسي للشروع بسن الدستور انهم بحثوا موضوع خلع الملك (فقد عقد جعفر ابو التمن اجتماعا في داره في ٢ اب ١٩٢٢ بحث

فيه امر خلع الملك فيصل) وكان اول رد فعل لعقد المعاهدة الجائرة تلك موقف الشيخ الخالصي من الملك فيصل واعلان نقض بيعته له فقد اعلن في حشد من الناس في مدرسته قائلا (بايعنا فيصلا ليكون ملكا على العراق وفقا لشروط وقد اخل بتلك الشروط ولم تعد له في اعناقنا واعناق الشعب العراقي اية بيعة) . فكان لهذا التصريح من لدن الخالصي الكبير دوي في الاوساط الوطنية وبلغ الملك فاستاء منه اشد الاستياء واضمر له الحقد . ويذكر السيد عبدالرزاق (٣٣) عبد الدراجي في كتابه جعفر ابو التمن ما يلي حول موضوع خلع الملك انتعشت الحركة المناوئة للانتداب حتى ان الزعماء الوطنيين امثال يوسف السويدي وجعفر ابو التمن واحمد الشيخ داود ومحمد الصدر وغيرهم قد عدوا بتاريخ ٢١ و٢٣ تشرين الثاني ١٩٢١ قائمة بالمطاليب التي كان عدم تحقيقها سيسبقه اعلان خلع الملك فيصل .

الهوامش

١) للوقوف على المزيد من التفاصيل عن حيـــاة الملك فيصل الاول في كافة مراحل حياته وايام تحمله المسؤولية شريفا اميرا وملكا راجع كتابنا مملكة العراق من فيصل المؤسس الى فيصل الشهيد .

٢) يعلق نوري السعيد على دخول فيصل الى الشام بما يلي : في صباح يوم ٢٧ ايلول وصل سمو الامير فيصل الى دمشق قادما من درعا فاستقبلته العاصمة الاموية استقبالا رائعا لم يسبق له مثيل وبعد ان استقر المقام بسموه اخبرته ان القوات التركية في شمال دمشق ضئيلة لا يؤبه بها وان الخط البرقي مفتوح الى بيروت واطلعته على برقية وجهاء بيروت وجوابي عليها (محاضرات عن الحركات العسكرية للجيش العربي في الحجاز وسورية ٩١٦-٩١٨ بقلم الفريق الركن نوري السعيد مطبعة اجيش ١٩٤٧ ص٦٧) .

٣) اما رستم حيدر يعلق في مذكراته عن دخول الامير فيصل الى دمشق بما يلي : الخميس ١٩٢٠/٢/٢٥ جاءتنا الجرائد من دمشق وفيها استقبال الامير ومطالب السوريين استقلال – وحدة – تجنيد فصرح الامير ان ابن محمد ﷺ وحفيد اولئك الاجداد العظام لا يمكن ان يقبل لبلاده بغير الاستقلال . (مذكرات رستم حيدر تحقيق نجدت فتحي صفوة ٥٦٥-٥٦٦) .

انظر كتاب The big four and others of the peace conference . كان اعضاء الوزارة الفيصلية الاولى في دمشق بعد تتويج الملك فيصل على العرش السوري كالاتي علي رضا الركابي رئيس للوزراء رضا الصلح وزير الداخلية عبدالحميد قلطقجي وزير الحربية جلال زهدي العدلية فارس الخوري مالية

ساطع الحصري معارف يوسف الحكيم النافعة وكان يوسف العظمة رئيسا لاركان الجيش وعلاء الدين الدروبي رئيس لمجلس الشورى .

٥) انظر مجلة الحرب العظمى وما بعـــدها السنة ١٩٣٩ عمـــر ابو النصر العدد ١١ .

٦) البطولة في ثورة العشرين عبدالشهيد الياسري ص٣٤٠ .

٧) اورد امـين سعيد في كتابه الثورة العربيـة الكبرى مجلد ٢ صفحة ٣١ ما يلي نصه حول موضوع الرسائل المرسلة التي ارسلت الى الملك حسين طالبا منه ترشيح احد ابنائه لملوكية العراق . تقرر ان يسافر العلامة المجاهد الشيخ محمد رضا الشبيبي ممثلا لزعماء العراق ليوصل الرسائل المرسلة الى الملك حسين التي طلبوا فيها ارسال احد انجاله الى العراق لتولي عرشه ولتغطيه نفقات سفر الشبيبي زود بثمانين ليرة ذهبية اربعين من السيد نور الياسري واربعين من الحاج عبدالواحد سكر وقد وقع علماء الدين وزعماء ورؤساء العشائر والمثقفون الشباب عن تلك الرسائل المرسلة الى الملك الحسين نورد اسماء بعضا منها مثلا رجال الدين : ١- الامام الشيرازي ٢- الحجة الاصفهاني فممثلوا زعماء العشائر : عبدالواحد سكر ، سيد نور الياسري ، سيد محسن ابو طبيخ ، سيد علوان الياسري . كما وقع كل من عبدالرزاق الوهاب والسيد عبدالحميد علوان الياسري ممثلين عن شباب النجف . غادر العلامة الشبيبي في اواخر شهر رمضان ١٣٣٧ الى البصرة ومنها الى نجد ضمن قافلة لاداء مناسك الحج واجتمع بوادي فاطمة بالامير بن علي وعبدالله وقابل الملك وسلمه المضابط فاكبر الملك حسين ما سمعه من العراق وسر له وقال ساكون عند حسن ظن العراقيين ان شاء الله .

٨) انظر الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية ط١ سنة ٥٤ ص١٢٩/١٣٠ .

٩) انظر فصول من تاريخ العراق القريب المس بيل ترجمة جعفر الخياط ص ٤٨٠ .

١٠) يذكر السيد فهمي المدرس ان الانكليز اخذوا ينفقون ١٥ الف باون في الشهر الواحد على البدو العربان اللذين يتألف منهم الجيش الهاشمي وبعد فتح (الصويج) بلغت المصاريف ١٧٥ الف باون وعند الاستيلاء على عقبة خصصت بريطانيا ٢٠٠ الف باون وفي العام ١٩١٨ بلغت المخصصات ٢٢٥ الف باون وخصص للملك سوى ٦٠ الف باون في الشهر لقاء توطيد الامن في الجزيرة .

١١) في الاحتفال الكبير الذي اقيم في البصرة احتفاء بقدوم الامير فيصل القى الشاعر كاظم الدجيلي قصيدة امام الامير بالمناسبة هذه بعض ابياتها :

حَيت عُلاك طلائع البشر يا مالكا للنهي والامر
جئت العراق وفيه رغبته حقق مطامحه مدى العمر
ان العراق وانت سيده يأبى الحياة بجانب الضر
ان العراق لكم به صلة ترقى لعهد المرتضى الطهر
ان العراق لست مفتخرا يا ابن النبي لمورد الفخر

١٢) كانت بلدية بغداد قد نشرت اعلانا في الصحف المحلية تحث فيه الناس على المشاركة في استقبال فيصل عند قدومه الى بغداد وهذا هو نص الاعلان : دعوة من البلدية الى فضلاء العاصمة المرجو من حضرات اشراف بلديتنا وعلماءها وسادتها ومعتبريها ان تشرفوا يوم الاربعاء الجاري ٢٩ الساعة السابعة زوالية صباحا محطة البصرة في جانب الكرخ ليحضروا حفلة استقبال سمو الامير فيصل

رئيس بلدية بغداد
عبد المجيد الشاوي

١٣) ورد في اعلانات الصحف ما يلي حول الاحتفال لمقدم الامير فيصل بلغنا ان اطواق النصر ستنصب في المحلات الاتية وهي من ضمن احتفالات الاهالي بقدوم سمو الامير فيصل الى بغداد ١- رأس جادة الصالحية - الكرخ ٢- مدخل جسر مود-الكرخ ٣- مدخل جسر مود-الرصافة ٤- ملتقى جادة جسر مود بالشارع الجديد ٥- في الشارع الجديد قرب جامع مرجان ٦- في الشارع الجديد قرب جادة الجسر القديم ٧- في رأس جادة الاكمكخانة . بقي ان تعلم عزيزي القارئ ان (الجادة) معناها الشارع والشارع الجديد يقصد به شارع الرشيد الحالي الذي شق اثناء فترة حكم الموالي خليل باشا وكان يسمى بالتركية (خليل باشا جاده سي) وبعد قيام الحكم الملكي اطلق عليه شارع الرشيد وما زال يحمل تلك التسمية حتى الان .

١٤) انشد الزهاوي في الحفلة التي اقامتها مدرسة التفيض بمناسبة قدوم الامير فيصل الى بغداد في ١٩٢١/٧/١٩ قصيدة هذه بعض ابياتها :

برعاية الملك المعظم	فيصل السامي الخصال
ملك حياه الله	بسلطة العراق بلا سؤال
الشعب يبذل في مرتضاه	كل رخيص وغال
الشعب يفدي عرشه	بالمال منه والرجال
الشعب ينتظر الوصول به	في اوج الكمال

١٥) للوقوف على تفاصيل اوفى عن احتفالات العراقيين بمقدم الامير فيصل الى العراق راجع صحف العراق العالم العربي في تلك الفترة .

١٦) كان لويد جورج قلقا بشأن ما ستكون عليه ردود الفرنسيين على تنصيب

البريطانيين فيصلا ملكا على العراق فكتب الى تشرشل يقول اظن انه من الجوهري ان تصدر المبادرة من العراقيين انفسهم حول المطالبة بفيصل ملكا عليهم . ولقد افقد تشرشل جواب لويد جورج صبره فكتب الى رئيس الوزراء يفيده بان هناك خطة لتبني العراقيين ترشيح فيصل وضعها السير برسي كوكس والمس بيل ولورنس واضاف اننا متفقون معكم انه من المستحسن ان تنطلق حركة عفوية تطالب بفيصل من العراقيين انفسهم تمهيدا لاحتضانه من جانبنا وما لم نسعى نحن على افتعال تلك الحركة فليس من المؤكد انها ستقوم من تلقاء نفسها .

١٧) نص الدعاء في جريدة العراق المؤرخة في ١٩٢١/٨/٢٥ .

١٨) نعرض هنا بعض الامثلة عن الاستفتاء الذي جرى في العراق والذي وافق العراقيون بموجبه على ان يكون فيصل ملكا على العراق .

اهالي بغداد اجتمع سراة العاصمة في رويال سيّما ولقد تقرر بالاجماع ان يبايعوا الامير فيصل بملوكية العراق .

اهالي الموصل بغداد – جريدة العراق الغراء تم التصويت بالاتفاق لجلالة مولانا الملك المعظم ايده اله فنهنئ انفسنا .

مصطفى الصابونجي

اهالي كربلاء

حضرة رئيس بلدية بغداد

نبشركم بان جميع اهالي كربلاء المشرفة قد بايعوا سمو الامير فيصل المعظم ملكا على العراق فنهنئ الجميع .

محمد سعيد

رئيس بلدية كربلاء

١٩) توجه الى جنيف عدد من رؤساء الوزارات العراقية والشخصيات البارزة في المجتمع العراقي منهم علي جودة الايوبي ، نوري السعيد ، جميل المدفعي ، مزاحم الياجه جي ، توفيق السويدي واعضاء من مجلس الامة ويمثل الطائفة المسيحية المطران يوسف خياط والطائفة الموسوية النائب ابراهيم حييم (انظر موسى الشابندر ذكريات بغدادية) .

٢٠) كان الملك فيصل مريضا بعد جهاد مستمر لمدة عشرين سنة مر خلالها بانواع المحن والمصائب وذاق خلالها شتى المرارات جمال باشا . . . الثورة العربية مع لورنس . . . مأساة ميسلون . . . مؤتمر فرساي . . . معاهدة سايكس بيكو . . . الوضع الشاذ . . . انتحار السعدون والمعارضة عصبة الامم . . . مشكلة الموصل فهذه وامور اخرى مثلها اكلت قلبه ونخرت عظمه وانهكت قواه (موسى الشبندر ذكريات بغدادية ص١٣١) .

٢١) نفس المصدر السابق ص١٢٩ .

٢٢) نفس المصدر السابق ص١٢٨ .

٢٣) اميتن الريحاني فيصل الاول .

٢٤) عبدالحميد كرامي مجلة العروبة العدد ٥ سنة ١٩٤٧ ص٣٦ .

٢٥) G. Bell from her personal papers .

٢٦) صفوت باشا العوا سوري قدم العراق بمعية الملك فيصل من سورية واحتل منصب كبير الامناء في القصر الملكي ببغداد وعندما كان ضابطا في الجيش العثماني وبرتبة رائد اختير لتعليم ابناء الشريف حسين اللغة العربية والعلوم الاخرى اثناء اقامتهم في الاستانة .

٢٧) تاريخ الوزارات العراقية السيد عبدالرزاق الحسني الجزء الثالث ص١٨٦ .

٢٨) موسى الشابندر بغدادية ص١٣٤ .

٢٩) شاكر الوادي ضابط في الجيش العراقي وصل الى رتبة لواء وشغل لمرات عديدة منصب وزير الدفاع كما عمل فترة من الوقت بالسلك الدبلوماسي فكان قنصل العراق في فلسطين وكان قد نشر مقالة في مجلة العروبة السورية بعددها الخامس العام ١٩٤٧ عن ذكرياته مع الملك فيصل عندما كان مرافقا اقدم لجلالته .

٣٠) للوقوف على المزيد من التفاصيل حول نوري السعيد راجع كتابنا (نوري باشا حياته ومقتله) .

٣١) المقبرة الملكية ما زالت قائمة في بغداد في منطقة الاعظمية وتحوي قبور كل من الملك فيصل وزوجته الملكة حزيمة الملك غازي وزوجته الملكة عالية الملك علي وابنته الاميرة جليلة اضافة الاميرة رفيعة ابنة الملك فيصل جدير بالذكر ان اثنين من خارج العائلة المالكة وهما جعفر العكسري ورستم حيدر دفنا في حديقة المقبرة تقديرا لهما لدورهما المتميز في الحياة السياسية ولكونهما قتلا حيث اغتيل جعفر العسكري في العام ٣٦ ورستم حيدر في العام ١٩٤٠ .

٣٢) انظر كتاب مذكراتي في صميم الاحداث ١٩٠٠-١٩٥٨ للشيخ محمد مهدي كبة ص٢٤ .

٣٣) جعفر ابو التمن عبدالرزاق عبد الدارجي ص١٦٩ .

ملحق (١)

مذكرة للملك فيصل

كان الملك فيصل في اواخر سني حكمه قد كتب مذكرة اوضح فيها مدى الرؤية العميقة والمفهوم السياسي للمجتمع العراقي ولقد حلل في مذكرته تلك ما يعاني منه الشعب العراقي واثر تلك المعاناة على البنية الاساسية لبلد حديث التكوين مثل العراق الذي عمل هو من جانبه وبكل ما اوتي من بصيرة ثاقبة وعقل مدرك على رفع مستواه بين الامم لقد وزع الملك فيصل مذكرته تلك على بعض الشخصيات العراقية السياسية وبصورة ضيقة جدا حيث لم يوزع منها سوى نسخ قليلة وطلب من تلك اشخصيات التي وزعت عليهم دراسة المذكرة الملكية والتعليق عليها سواء كان تعليقهم سلبا او ايجابا . ومن اللذين وزعت عليهم نوري السعيد ، رستم حيدر ، ياسين الهاشمي ، علي جودة الايوبي ، جعفر العسكري غير ان وفاة الملك المفاجئة لم تدع اي منهم اتمام الرد غير ان المرحوم علي جودة الايوبي الذي شغل منصب رئيس الديوان الملكي لمرات عديدة ورئاسة الوزارة لثلاث مرات وهو اصلا من حاشية الملك فيصل منذ ايام الثورة العربية نشر ملحقا بنص المذكرة في مذكراته التي صدرت في بيروت في العام ١٩٦٨ لكن السيد عبدالرزاق الحسني كان قد سبقه الى نشرها في كتابه تاريخ الوزارات العراقية (٢٧) وليس لي علم بكيفية حصوله عليها .

كنت منذ زمن طويل احس بوجود افكار وآراء حول كيفية ادارة شؤون البلد عند بعض وزرائي ، ورجال ثقتي ، غير افكاري وارائي . وكثيرا ما فكرت في الاسباب الباعثة لذلك . وفي الأخير ظهر لي بان ذلك –كان ولم يزل–

ناشئا عن عدم وقوفهم تماما على افكاري ، وتصوراتي ونظري في شؤون البلاد ، وفي كيفية تشكيلها وتكوينها والسير بها ، نظرا الى ما راه من العوامل والمؤثرات المحيطة بها ، والمواد الانشائية المتيسرة ، وعوامل التخريب والهدم التي فيها كالجهل ، واختلاف العناصر والاديان والمذاهب والميول والبيئات . لذلك ارتأيت من الضروري ان افضي بافكاري ، واشرح خطتي في مكافحة تلك الامراض وتكوين المملكة على اساس ثابت ، واطلع عليها خاصتي ممن اشتركوا واياي في العمل . واني الخص خطتي مختصرا بجملة تحت هذا ، وبعد ذلك اتقدم الى تفصيل نظرياتي ومشاهداتي :

١ - ان البلاد العراقية هي من جملة البلدان التي ينقصها اهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية ذلك هو الوحدة الفكرية ، والملية ، والدينية . فهي والحالة هذه مبعثرة القوى ، مقسمة على بعضها ، يحتاج ساستها ان يكونوا حكماء مدبرين وفي عين الوقت اقوياء مادة ومعنى ، غير مجاوبين لحسيات او اغراض شخصية ، او طائفية ، او متطرفة ، يداومون على سياسة العدل والموازنة والقوة معا ، على جانب كبير من الاحترام لتقاليد الاهالي لا ينقادون الى تأثرات رجعية او الى افكار متطرفة تستوجب رد الفعل .

٢ - في العراق افكار ومنازع متباينة جدا وتنقسم الى اقسام :

(١) الشبان المتجددون بما فيهم رجال الحكومة .

(٢) المتعصبون .

(٣) السنة .

(٤) الشيعة .

(٥) الاكراد .

(٦) الاقليات غير المسلمة .

(٧) العشائر .
(٨) الشيوخ .
(٩) السواد الاعظم الجاهل المستعد لقبول كل فكرة سيئة بدون مناقشة او محاكمة .

ان شبان العراق القائمين بالحكومة ، وعلى رأسهم قسم عظيم من المسؤولين يقولون بوجوب عدم الالتفات الى افكار واراء المتعصبين ، وارباب الافكار القديمة ، لانهم جبلوا على تفكير يرجع عهده الى عصور خوت ، يقولون بوجوب سوق البلاد الى الامام ، بدون التفات الى اي رأي كان ، والوصول بالامة الى مستواها اللائق ، وبالاعراض عن القال والقيل ، طالما القانون والنظام والقوة بيد الحكومة ترغم الجميع على اتباع ما تمليه عليهم .

ان عدم المبالاة بالرأي بتاتا ، مهما كان حقيرا خطيئة لا تغتفر . ولو ان بيد الحكومة القوة الظاهرة ، التي تمكنها من تسيير الشعب رغم ارادته لكنت واياهم . وزد عليه فإن لحين ما نحصل على هذه القوة ، علينا ان نسير بطريقة تجعل الامة مرتاحة ، نوعا ما بعدم مخالفة تقاليدها ، كي تعطف على حكومتها في النوائب .

ان المثل الصغير الذي ضربه لنا (الاضراب العام) يكفينا لتقدير حسياتها ، ووضعها موضع الاعتبار ، وكذلك يكفينا لتقدير مبلغ قوانا لاخماد هياج مسلح ما قاسيناه ابان (ثورة الشيخ محمود) والنقص العديد البارز الذي ظهر في قواتنا العسكرية انئذ . كل ذلك يضطرني ان اقول بأن الحكومة اضعف من الشعب بكثير . ولو كانت البلاد خالية من السلاح لهان الامر ، لكنه يوجد في المملكة ما يزيد عن المائة الف بندقية ، يقابلها ١٥ الف حكومية ولا يوجد في بلد من بلدان الله حالة حكومة وشعب كهذه . هذا النقص يجعلني ابصر وادقق وادعوا انظار رجال الدولة ومديري دفة البلاد للتعقل وعدم المغامرة .

المحت فيما تقدم الى افكاري الخاصة ، وافكار رجال الحكومة والشبان وحالة الشعب كل ذلك توطئة لما ساقوله فيما يلي ، وتصوير البلاد كما اراها في الوقت الراهن ، وكما اشخص امراضها ، وبعد ذلك ابين ايضا ما اراه ضروريا لمعالجتها .

٣ – العراق مملكة تحكمها حكومة عربية سنية مؤسسة على انقاض الحكم العثماني ، وهذه الحكومة تحكم قسما كرديا اكثريته جاهلة ، بينما اشخاص ذو مطامع شخصية يسوقونه للتخلي عنها بدعوة انها ليست من عنصرهم . واكثرية شيعية جاهلة منتسبة عنصريا الى نفس الحكومة ، الا ان الاضطهادات التي كانت تلحقهم من جراء الحكم التركي الذي لم يمكنه من الاشتراك في الحكم وعدم التمرن عليه ، والذي فتح خندقا عميقا بين الشعب العربي المنقسم الى هذين المذهبين كل ذلك جعل مع الاسف هذه الاكثرية او الاشخاص اللذين لهم مطامع ، خاصة الدينيون منهم وطلاب الوظائف بدون استحقاق ، والذين لم يستفيدوا ماديا من الحكم الجديد ، يظهرون بانهم لم يزالوا مضطهدين لكونهم شيعة ، ويسوقون هذه الاكثرية للتخلي عن الحكم الذي يقولون بانه سيء بت . ولا ننكر ما لهؤلاء من التأثير على الرأي البسيط الجاهل . اخذت بنظري هذه الكتل العظيمة من السكان ، بقطع النظر عن الاقليات الاخرى المسيحية التي يجب ان لا نهملها ، نظرا الى السياسة الدولية التي لم تزل تشجعها للمطالبات بحقوق غير هذه وتلك ، وهناك كتل كبيرة غيرها من العشائر : كردية وشيعية وسنية ، لا يريدون الا التخلي من كل شكل حكومي ، بالنظر لمنافعهم ، ومطامع شيوخهم التي تتدافع بوجود الحكومة . تجاه هذه الكتل البشرية ، المختلفة المطامع والمشارب ، المملوءة بالدسائس ، حكومة مشكلة من شبان مندفعون ، اكثرهم متهم بانه سنيون ، او غير متدينين او انهم عرب ، فهم مع ذلك يرغبون في التقدم ، ولا يريدون ان

يعترفوا بما يتهمون به ، ولا بوجود تلك الفوارق ، وتلك المطامع بين الكتل التي يقودونها يعتقدون بانهم اقوى من هذ امجموع ، والدسائس التي تحرك هذا لجموع ، غير مبالين ايضا بنظر السخرية ، التي يلقيها جيرانهم الذين عل يعلم علم بمبلغ قواهم . اخشى ان اتهم بالمبالغة ، ولكنه من واجبي ان لا ادع شيئا يخامرني ، خاصة لعلمي بانه سوف لا يقرأ هذا الا نفر قليل ممن يعلمون وجائبهم ومسؤولياتهم . ولا ارغب ان ابرر موقف الاكثرية الجاهلة من الشيعة ، وانقل ما سمعته الوف المرات وسمعه غيري من اذين يلقون في اذهان اولئك المساكين البسطاء من الاقوال ، التي تهيجهم وتثير ضغائنهم ، ان الضرائب على الشيعي ، والموت على الشيعي والمناصب للسني ما الذي هو للشيعي؟ حتى ايامه الدينية لا اعتبر لها ، ويضربون الامثلة على ذلك ، مما لا لزوم لذكرها . اقول هذا على سبيل المثال وذلك لاختلافات الكبرى بين الطوائف التي يثيرها المفسدون ، وهناك سحيات مشتركة بين افراد الطوائف الاسلامية ، ينقمون بمجموعهم على من لا يحترمها . وهناك غير هذا دسائس اثورية وكلدانية ويزيدية ، والتعصب للتفرقة بين هؤلاء الجهلاء توهم قوى الحكومة تجاه البسطاء . كما ان العقول البدوية والنفوذ العشائر الذي للشيوخ ، وخوفهم من زواله بالنسبة لتوسع نفوذ الحكومة ، كل هذه الاختلافات ، وكل هذه المطامع والاحتراصات تشتبك في هذا الصعيد وتصطدم وتعكر صفو البلاد وسكونها ، فاذا لم تعالج هذه العوامل باجمعها وذلك بقوة مادية حكيمة ، ردحا من الزمن ، حتى تستقر البلاد وتزول هذه الفوارق وتحل الوطنية الصادقة ، محل التعصب المذهبي والديني ، هذه الوطنية التي سوف لا تكون الا بجهود متمادية ، وبسوق مستمر من جانب الحكومة بنزاهة كاملة ، فالموقف خطر وفي هذا الصدد ، وقلبي ملآن اسى انه في اعتقادي لا يوجد في العراق «شعب عراقي» بعد ، بل توجد كتلات بشرية خالية من اي فكرة وطنية متشبعة بتقاليد واباطيل دينية لا تجمع بينه جامعة ، سماعون للسوء ، ميالون للفوضى ،

مستعدون دائما للانقضاض على اي حكومة كانت . ونحن نريد ، والحالة هذه ، ان نشكل من هذه الكتل شعبا نهذبه وندربه ونعلمه . ومن يعلم بصعوبة تشكيل وتكوين شعب في مثل هذه الظروف يجب ان يعلم ايضا الجهود التي يجب صرفها باتمام هذا التكوين وهذا التشكيل . هذا هو الشعب الذي اخذت مهمة تكوينه على عاتقي ، وهذا نظري فيه ، وان خطتي في تشكيله وتكوينه كما يلي : فاعتقادي -وان كان العمل شاقا ومتعبا ، الا انه ليس مما يوجب اليأس والتخوف ، واذا عولج بحكمة وسداد رأي واخلاص- اذا قامت الحكومة بتحديد خطة معينة ، وسارت عليها بجد وحزم . فان الصعوبات تجابه ، وبرقة الامل في الرسوخ السياسي تزداد نورا . والاحظ ان منهاجا يقرر مما سأذكره ادناه ، يكون كافلا لمعالجة المهمة والنجاح . واليك باختصر اولا ، ثم بالتفصيل :

١ - تزيد قوة الجيش عددا ، وبشكله الحاضر ، بحيث يصبح قادرا على اخماد اي قيام مسلح ينشب في ان واحد على الاقل في منطقتين متباعدتين .
٢ - عقب اتمام تشكيل الجيش على هذه الصورة . تعلن الخدمة الوطنية .
٣ - وضع التقاليد والشعائر الدينية بين طوائف المسلمين بميزان واحد ، مهما امكن . واحترام الطوائف الاخرى .
٤ - الاسراع في تسوية مشكلة الاراضي .
٥ - توسيع المأذونية لمجالس الالوية والبلديات بقدر الامكان ، على انموذج القانون العثماني .
٦ - الاسراع في تشكيل مدرسة الموظفين .
٧ - الاعمال النافعة وحماية المنتوجات .
٨ - المعارف .
٩ - تفريق السلطة التشريعية ، والسلطة الاجرائية .

١٠- تثبيت ملاك الدولة .

١١- وضع حد للانتقادات غير المعقولة ضد اجراءات الحكومة في الصحف والاحزاب .

١٢- العدل والنظام والاطاعة في الموظفين ، والعدل عند قيامهم بوظائفهم .

(١) بدأت بالجيش ، لاني اراه العمود الفقري لتكوين الامة ، لاني اراه في الوقت الحاضر اضعف بكثير بالنسبة لعدده وعدده ، من ان يقوم بالمهمة الملقاة على عاقته ، وهي حفظ الامن ، والاطمئنان الى امكانية كفاءته ، نظرا الى ما تتطلبه المملكة ، ونظرا الى العوامل المختلفة الموجودة ، والتي يجب ان تجعلنا دائما متيقظين لوقوع حوادث عصيان مسلح في كل وقت . انني لا اطلب من الجيش ان يقوم بحفظ الامن الخارجي في الوقت الحاضر ، الذي سوف نتطلبه منه بعد اعلان الخدمة العامة ، اما ما ساطلبه من الان ، هو ان يكون مستعدا لاخماد ثورتين تقعان (لا سمح الله) في ان واحد ، في منطقتين بعيدتين عن بعضهما . انن يغر مطمئن الا اننا بعد ستة اشهر ، وبعد ان تتخلى انكلترا عن مسؤوليتها في هذه البلاد ، نتمكن من الوقوف لوحدنا ، ما دامت القوة الحامية هي غير كافية . ولا يمكن ان اوافق على تطبيق الخدمة العامة ، او القيام باي اجراءات اخرى هامة ، او محركة ، او مهيجة ، ما لم اكن واثقا بان الجيش يتمكن من حماية تنفيذ هذا القانون ، او اي اجراءات اخرى . وعليه ارى من الضروري ابلاغه لحد يتمكن معه من اجابة رغبتي المار ذكرها وذلك بشكله الحاضر .

ارى من الجنون القيام بانشاءات واصلاحات عظمى في البلاد ، قبل ان نطمئن الى كفاية القوة الحامية لهذه الاعمال امامنا حركتان بارزتان في الربيع القادم ومن الضروري ان ارى بيدنا قوة احتياطية لمجابهة اي طارئ

اخر يحدث في المملكة .

(٢) علينا ان نطمئن معنويات اخواننا الشيعة بالكيفية الاتية :

١) اعطاء التعليمات الى قاضي بغداد -كما عمل- ان يسعى لتوحيد ايام الصيام والافطار وهذا ممكن وشرعي .

٢) تعمير العتبات المقدسة حتى يشعروا بان الحكومة غير مهملة لتلك المقامات التي هي مقدسة لدى الجميع ، والتي هي كذلك من الاثار التاريخية التي تزين البلاد . فعلى الحكومة من كل الوجوه محافظتها من الخراب .

٣) ان رجال الدين من الشيعة ليس لهم اي ارتباط مع الحكومة وهم في الوقت الحاضر اجانب عنها ، خاصة حيث يرون ان رجال الدين السنيون ، ويتمتعون باموال هم محرومون منها . والحسد (خاصة في الطبقة الدينية) معلوم . فعلينا ما دمنا غير قادرين على تقسيم الاوقاف فيما بينه . ان نفكير في ايجاد اوقاف خاصة ، ومن رأى ان ذلك ممكن بالطريقة التي كنت تشبثت بها ، غير ان الظروف حالت بيني وبين تحقيقها .

(٣) ان احترام الشعائر العامة غير عسير ، خاصة في ايام رمضان والحيلولة دون تفشي الموبقات ، واذا تمكنت الحكومة من سد بيوت الخناء لقامت باكبر عمل يربط العامة بها .

(٤) ثم اتكلم عن الضرائب ، اذ ان قانون ضريبة الاستهلاك ، قطع قول كل مفسد وانه لاكبر عمل جريء . ولسوف نقتطف ثمراته ان شاء الله .

(٥) ان مشكلة الاراضي وحلها سيربط الاهالي بالاراضي ، وهو ذا مساس كبير بالشيوخ ونفوذهم ، ولا لزوم للاسهاب بمنافعه ، ويجب الاسرع

بتطبيقه على قدر المستطاع كما انه يجب ان لا يحس الشيوخ والاغوات بان قصد الحكومة نحوهم ، بل يقدر ما تسمح لنا الظروف يجب ان نطمئنهم على معيشتهم ورفاهيتهم .

(٦) ارجو ان تكون قضية المدرسة مطمئنة لكل سكان العراق ، بانهم سيشتركون فعلا في خدمات الدولة ، والاشتراك في خيرها وشرها ، مع اهل بغداد والموصل بصورة متساوية ، وتزول تهمة (الحكومة السنية او العربية) ، كما يقول اصحاب الاغراض من اكراد وشيعة .

(٧) اقول بتحفظ : انه اذا امكن اعطاء صلاحيات للالوية شبيهة بمجالس الولايات في العهد العثماني ، فسيكون ذلك من جملة اسباب تشويق سكان الالوية للاشتراك بالحكم .

(٨) لقد تحدثنا كثيرا حول تفريق السلطة التشريعية عن السلطة الاجرائية ، ويجب عمل ذلك بتعديل القانون الاساسي .

(٩) علينا ان لا ندع مجالا للاحزاب (المصطنعة) والصحف والاشخاص ، ليقوما بانتقادات غير معقولة وتشويه الحقائق وتضليل الشعب ، وعلينا ان نعطيهم مجالا للنقد النزيه المعقول ، وضمن الادب . ومن يقوم بامر غير معقول يجب ان يعاقب بصرامة .

(١٠) على موظفي الدولة ان يكونوا الات مطيعة ونافعة ، حيث هم واسطة الاجراءات ، ومن يحس منه انه يتداخل مع الاحزاب المعارضة ، او يشوق ضد الدولة ، ينحى عن عمله ، وعليه ان يعلم بانه موظف قبل كل شيء ، خادم لاي حكومة كانت .

(١١) النافعة . اتيت بهذا الاسم الجديد ، ورجعت الى التعبير التركي حيث رأيت انه (اشمل) للاعمال المختلفة في مرافق الامة . حسنا عملنا في

السنة الماضية بتخصيص مبالغ للاعمال الرئيسية ، ولا ننكر ان ذلك القانون صدر بصورة مستعجلة ، على ان يكون قابلا للتحوير والتبديل في بعض مواده ، عندما نرى ضرورة لذلك . وفي اعتقادي انه من الضروري اعادة النظر في مواده خاصة قسم الابنية والطرقات .

اقول بكل اسف : ان الزراعة افلست في بلادنا بالنظر لبعد مملكتنا عن الاسواق . لقد وضعنا الملايين لانشاءات الري ولكن ماذا نريد ان نعمل بالمحاصيل؟ اننا في الوقت الحاضر عاجزون عن تصريف ما بايدينا من منتوجات اراضينا ، فكيف بنا بعد اتمام هذه المشروعات العظيمة؟ هل القصد تشكيل اهرامات من تلك المحاصيل الخام والتفرج عليها؟ ماذا تكون فائدتها منها اذا لم نتمكن من اخراجها الى الاسواق الاجنبية واستهلاكها في الداخل على الاقل؟ ما الفائدة من صرف تلك الملايين قبل ان نهيء لها اسواقا نستهلكها ونحن مضطرون الى جلب الكثير من حاجاتنا من الخارج؟

اعتقد انه من الضروري اعادة النظر من جديد في موقفنا الاقتصادي ، نرى جيراننا الاتراك والايرانيين ، باللذين اقصى جهودهم في الاستغناء عن المنتوجات الاجنبية ، وكم هي العقبات التي وضعوها لمنع دخول الاموال الاجنبية الى بلادهم ، وكيف لا يبالون بصرف الاموال الطائلة لانشاء المعامل لسد حاجاتهم .

علينا ان نقلع عن السياسة الخاطئة التي اتتنا عن سبيل تقييد الام المتشبثة ، وعلينا ان نعاون المتشبثين من ابناء الوطن بصورة عملية فعالة . وعلينا ان نعطي الانحصارات لابناء البلاد الى مدد معينة للذين فيهم روح التشبث . واذا لم يظهر طالب او راغب لانشاء عمل صناعي ترى الحكومة انه مربح ، فعليها ان تقوم هي به ومن مالها الخاص او بالاشتراك مع رؤوس اموال وطنية اذا امكن والا فاجنبية او كلاهما معا .

على الحكومة ان تشكل دائرة خاصة لدرس جميع المشاريع الصناعية على اختلاف انواعها ، كبيرة كانت او صغيرة ، وتبدأ ببناء الاهم فالمهم ، وترشد الاهلين الى كيفية التشبث بالاعمال الصغرى وتقوم هي بالاعمال الكبرى اذا تعذر القيام بها من قبل الاهالي .

انه لمن المخزي والمضحك والمبكي معا ، ان نقوم بتشييد ابنية ضخمة بمصاريف وطرق معبدة بملايين الروبيات . ولا ننسى الاختلاسات وتصرف اموال هذه الامة المسكينة التي لم تشاهد معملا يصنع لها شيئا ما حاجاتها . واني احب ان ارى معملا لنسيج القطن بدلا من دار حكومة ، واود ان ارى معملا للزجاج بدلا من قصر ملكي .

T. E. LOWRANCE
1888 -1935

نبيلا ايرلنديا اسمه روبرت تشايمان وقد غير اسمه فيما بعد الى لورنس كان والده قد هجر زوجته الاولى وله منها اربعة اولاد وتزوج فيما بعد من سارة مادن التي كان تعمل اصلا في بيته كمربية لاولاده وكان شعارها طوال حياتها (الله يكره الخطيئة لكنه يحب الخطاة) الزواج الثاني لم يكن شرعيا رغم ان ثمرته كانت خمسة اولاد «لورنس هو الثاني» ومنذ ان ترعرع بدأت عليه واضحة معالم المخاطرة واحتمال القسوة وعدم المبالاة والتعود على تحمل المصاعب مهما كانت قاسية التي طالما لازمته لفترات متباينة من عمره فعندما كان في العاشرة اصيب بكسر رجله وهذه الحادثة كان لها اثرها الواضح في نموه الجسدي فأثرت عليه تأثيرا بالغا مما جعل نموه الجسدي يقف وهو لم يزل في سن المراهقة ١٦ سنة فلم يزداد طوله عن ٥ اقدام وخمس بوصات . وبعد تلك الحادثة قرر لورنس ا لهروب من منزله لينخرط في سلاح المدفعية لكن اباه اعترض على تصرفه فاعاده الى المنزل بقوة واشترط لورنس على والده ان يعيش خارج منزل الاسرة تان اراده العودة الى منزله فوافق الاب على ذلك وبنى له كوخا ليعيش فيه منعزلا عن باقي افراد اسرته . عندما بلغ من العمر ثمانية عشر عاما درس في احدى الكليات التابعة لجامعة اكسفورد واختار بحثا ليقدمه الى كليته بعنوان (القلع الصليبية) .

في سنة ١٩٠٩ تعرف على الاستاذ هوكارث DR. D.G. HOGRAT وهو احد العاملين المتخصصين في الاثار وواحد من ابرز اساتذة التاريخ يجيد لغات عديدة من بينها اللغة العربية وكان هذ العالم في حقيقة امره احد كبار

العاملين في المخابرات البريطانية وقد تبلورت معالم شخصيته تلك عندما اسندت اليه وزارة المستعمرات وظيفة الاشراف على المكتب العربي في القاهرة هذا الشخص لعب دورا كبيرا في حياة لورنس وكانت اول خدمة قدمها له عندما استطاع مساعدته في سفره الى الشرق لدراسة القلاع الصليبية محور بحثه ورسالته وزوده بتوجيه من اللورد (Lord Kirsow) وزير خارجية بريطانيا في ذلك الوقت . وصل لورنس الى الارض العربية فتجول ماشيا وراكبا بعد ان تعلم اهمية السفر على الاقدام من كاهن سوري بروتستاني يدعى الاب (عودة) وعند تجواله مر على المدرسة الامريكية الارسالية في جبيل حيث حاول ان يتعلم العربية على يد معلمة لبنانية اسمها فريدة عقل والتي كانت ما تزال تعيش في منطقة برمانا حتى العام ١٩٦٨ وتتذكر فريدة عقل معلمة لورنس اللغة العربية ان لورنس قال لها (سأعود اليك بعد حين ولقد اتقنت العربية احسن منك) وفعلا عاد بعد فترة ومعه بدوي اسمه الشيخ احمد كان يتحدث معه باللهجة البدوية التي لم تفهم الكثير من مفرداتها السيدة فريدة نفسها .

ولقد تجمعت عند السيدة فريدة عقل الكثير من رسائل لورنس لكنها كانت على الدوام ترفض نشرها كمنا انها كانت ترفض العروض الكثيرة من دور النشر سوء عربية كانت ام اجنبية وقالت مرة ان اغلى ما احتفظ به في حياتي هي رسائل لورنس مما حدا بالامير فيليب زوج الملكة اليزابيث عندما زار لبنان في العام ١٩٥٧ ان يزور السيدة عقل في منزلها لانه اراد ان يتعرف على المرأة التي علمت لورنس العربية .

عاد لورنس الى اكسفورد حيث قدم اطروحته ونال شهادته الجامعية وكان ذلك في العام ١٩١٠ ومرة اخرى عاد هوكارث الى الظهور في حياة لورنس

حيث رتب له سفرة الى طرابلس ضمن بعثة تنقيبية عن الاثار لحساب المتحف البريطاني ولقد ابحر لورنس الى سوريا في العام ١٩١٠ ولقد شاءت الاقدار ان يوقف المتحف البريطاني اعمال تلك البعثة وذلك لتفاه ابحاثها التي لم تعد مناسبة مع المبالغ التي صرفت على اقامتها وترحالها ولكن الاستاذ هوكارث تدخل في الامر واستطاع من استعمال نفوذه وتمديد فترة عملها الى سنة اخرى حتى قامت الحرب العالمية الاولى في العام ١٩١٤ اي ان لورنس قد امضى في عمل الاثار ما يقارب الاربعة سنين وعند قيام الحرب اصابت لورنس اول ضربة من ضربات الخط في حياته التي امضى معظمها في ديار العرب .

كانت بريطانيا تقوم بمسح كبير في شبه جزيرة سيناء وكان يترأس البعثة البريطانية الى تلك الجزيرة الكابتن نيوكمب (Newcamp) وعندما وصلت الى حدود الممتلكات التركية كانت بحاجة الى وجود تغطية لاستمرار عملياتها وعلى هذا الاساس اخترعت حكاية صندوق التنقيب الفلسطيني وارسلت بعثة عسكرية باسمه كان من بين افرادها لورنس الذي زكاه من جديد الدكتور (هوكارث) ولعل الفترة التي قضاها لورنس في سيناء رغم كونها فترة ليست بالطويلة وانه هو بالذات لم يكن يعرف شيئا عن العملية منذ التحاقه ببعثتها ان المشاركة المشار اليها فتحت امامها سنة ١٩١٤ باب الحصول على رتبة ملازم ثان في القسم الجغرافي بهيئة اركان الحرب البريطانية واصبح مرتبطا فيها بصورة رسمية وتلك كانت بداية قصصه او قصته المثيرة في بلاد العرب .
بدأت الحخرب وقلم المخابرات البريطانية هزياً غير منتظم وغير متكامل بالمعلومات وتفاصيل حالو الجيش التركي المنتشر على طول الساحة العربية واهم نقطة ارتكز عليها ذلك المكتب في الحصول على معلومات كافية مفيدة

عن العدو وتحركاته كانت مجرد اخبار صحفية زودهم بها صحفي بريطاني اسمه (Philip Greavs) [1] ولما كان المكتب غير مقتنع بكل ما حصل عليه من معلومات واعتبرها غير كافية وغير دقيقة كان سهلا ادخال لورنس كضابط في المخابرات وارساله الى القاهرة بعد ان حصل على توجيه من العقيد (هيدي) (Colo Hiadi) من دائرة الاركان وزكاه مجددا الدكتور هوكارث وفي القاهرة صار لورنس همزة الوصل بين مصلحة المساحة المصرية وبين المخابرات البريطانية العسكرية وعندما تم تأسيس المكتب العربي في القاهرة في العام ١٩١٦ اصبح لورنس احد اعضائه وكيف لا يكون كذلك ومعتمده (هوكارث) رئيس المكتب المذكور لقد انيطت بلورنس في بداية عمله بالمكتب العربي مهمة اعلامية محدودة حيث كان يشرف على طبع نشرة باللغة العربية . وهي نشرة سرية كانت توزع اعدادها القليلة على عدد من المسؤولين في القاهرة بصورة خاصة وفي بقية مناطق مصر بصورة اشمل ولكنها محدودة . وفي نيسان ١٩١٦ تقرر عرض رشوة كبيرة على القائد خليل باشا الذي كان يقوم بمحاصرة القوات البريطانية في الكوت وهي برئاسة الجنرال تاوزند Major General Thosiend ووقع الاختيار على هيئة تمثل اصنافا من الجيش البريطاني اضافة الى اعضاء من البرلمان البريطاني والنقيب لورنس من دائرة الاستخبارات[2] في مصر وقد ارسلت برقية من السير وليم روبرتسون رئيس هيئة الاركان البريطانية موجهة الى الجنرال تاوزند هذا نصها (من المقرر ان يصل الكابتن لورنس الى البصرة في ٣٠ اذار قادما من مصر للتشاور معكم ومعرفة ما اذا كان بالمستطاع شراء واحد من القادة الاتراك لجيش ما بين النهرين مثل خليل باشا او نجيب لغرض اسهال انقاذ جيشكم ولهذا السبب انت مخول بصرف مبلغ لا يزيد على المليون جنيه وبالنظر لعدم وجود شخص

من الاهمالي بالسرعة المطلوبة فان لورنس يتوجه وحيدا ومن الجائز العثور على وسيط ملائم في البصرة) غادرت الهيئة المذكورة مصر متوجهة الى العراق في مهمتها التفاوض ورفض القائد التركي الرشوة وذلك فشلت المهمة وعاد لورنس الى عمله في القاهرة وكسب لورنس بسعيه ونشاطه وذكائه وحسن اتقانه لعمله ثقة الجنرال (كلايتون) (هوكارث) اضافة الى توطيد العلاقة مع رونالد ستورس السكرتير الشرقي لدار الاعتماد البريطاني في القاهرة . وقد افاد كثيرا من رعاية هؤلاء الثلاثة له حيث سعى كل منهم بقدر تعلق الامر به لنقله من ملاك وزارة الحربية الى ملاك المكتب العربي التابع الى وزارة الخارجية حيث بقي في عمله هذا الى ان رافق ستورس في رحلة الى الحجاز في ١٦ تشرين اول ١٩١٦ وبذلك يكون ما قضاه لورنس في الاعمال المكتبية منذ انتسابه الى الجيش في ايلول ١٩١٤ وحتى رافقه ستورز الى الحجاز ستة وعشرين شهرا .

اللقاء الأول بين لورنس وفيصل

عن لقائه الاول مع فيصل في العام ١٩١٦ كتب لورنس يصف شخصية فيصل عندما التقى به لاول مرة في (الحمراء) فقال (وجدنا على باب اكبر المنازل في المنطقة المذكورة عبدا اسود شاهرا سيفه قبضته من الفضة فهمس الدليل الذي كان برفقتي بعض الكلمات في اذن ذلك العبد فما كان من العبد المذكور الا وقادني الى احدى الغرف الداخلية فوجدت رجلا ابيض الوجه لم اشك لاول وهلة انه الرجل اذي جئت قاصدا اليه فيصل . . الزعيم الذي اشعل نار الثورة العربية لتحرير شبه الجزيرة من الرق التركي . تطلعت الى فيصل فاذا به طويل القامة اشبه بدعامة من الدعائم ، الجسم نحيل وضعيف وكان يرتدي ثوبا طويلا من الحرير الابيض وعلى رأسه كوفية سمراء

شد عليها عقال من الخيوط الذهبية والقرمزية . وجدت فيصلا بلحيته السوداء ووجهه الشاحب وقد شبك يده فوق خنجره كعادته حييته فسار معي حتى اجلسني في صدر الغرفة وجلس على سجادته بالقرب من الباب فتطلعت في الغرفة فوجدت رجالا حسبتهم تماثيل وكانوا لا ينفكون من النظر الي والى فيصل الذي كان لاهيا عنهم يداعب خنجره .

واخيرا سألني بلطف عن اثر هذه الرحلة في نفسي فاخذت احدثه عن حرارة الشمس فقال لي انك قطعت المسافة في وقت اقصر من المعتاد في مثل هذا الفصل الشديد الحرارة في السنة . ثم سألني عن رأيي في وادي صفرء فأجبته انه بعيد عن دمشق وقعت هذه العبارة في نفوس الحاضرين كالسيف وساد الصمت لحظة وكان بعضهم ربما انصرف في تفكيره باحراز نصر بينما البعض الاخر فكر في الهزيمة واخيرا رفع رأسه وابتسم في وجهي وقال نحمد الله لوجود الاتراك في مكان اقرب الينا من دمشق وشاركته في الابتسام واستأذنت للمبيت على ان اعود اليه في اليوم التالي .

وعـود لورنس

في الواقع انني سررت باتساع الثورة العربية ووعدت فيصل بأن قومي سيمدونه بعدد من أسرى الضباط العرب الذين وقعوا في ايديهم سواء في العراق او مصر وان القوات البريطانية ستقدم اليه عددا من المدافع الموجودة الان في القاهرة واخيرا اشرت عليه ان يستعين بالضابط الانكليز الفنيين على ان تقتصر مهمتهم على الارشاد والنصح والعمل بمعية الجيش العربي بصفة خبراء .

كان فيصل يصغي الي منشرحا واخذ يغمرني بفيض من المديح والشكر وقلت له ان رؤسائي قد يسمحون لي بزيارته في المستقبل اذا قدر لحركته ان

تنجح كما اني سألته ان يقدم لي التسهيلات اللازمة لعودتي الى مصر .

فيصل يقدم لي الملابس العربية

بعد انتهاء مهمتي الاولى التي كانت للتعرف على الشريف فيصل واخوته عدت الى القاهرة مرة اخرى بعد ان امضيت في السودان فترة وجيزة قدمت فيها التقارير الى السير ريجنالد (Sir Rignald) حاكم السودان ولم اكن امضي في القاهرة سوى اسابيع قليلة حتى امرت مرة ثانية بالتوجه الى الحجاز فوصلتها ولم يكن قد مضى على تركي اياها غير شهرين لا اكثر فقصدت قصر فيصل وبعد ان استعرضنا اموقف العسكري اخذ يستقبل الناس الذين يزورونه ولم اجد عربيا واحدا شكا من فيصل بأي شكل من الاشكال وهذا بلا شك ناتج عن مهارته وقوة ذاكرته التي كانت تتجلى لي عند كل حادث سألني فيصل ذات مرة فجأة ان كنمت اريد ارتداء الثياب العربية التي كان هو نفسه يرتديها على الاقل اثناء وجودي في معسكره وقد وجدت هذا الاقتراح في مصلحتي لان الثياب البدوية مريحة الى الحد الاقصى وفضلا عن هذا فان البدو عندما يشاهدوني ارتدي ثيابهم تزول ريبتهم من وجودي بجانب فيصل فان الذين كانوا يرتدون الثياب (الكاكي) كانوا من الضباط الاتراك وكان العرب يميلون الى الابتعاد عما يرتديه الاعداء من ملابس عسكرية من (الكاكي) فان ارتديت العباءة العربية كان ذلك سببا لمودتهم ويصبح بمقدوري ان ادخل واخرج من خيمة فيصل بسهولة .

وافقت على الاقتراح فورا واظهرت له شدة اغتباطي فأمر فيصل ان يجلبوا لي الثياب ا لعربية وهي مصنوعة من الحرير الفاخر وقمصان مزركشة في خيوط من الذهب واجمالا فان هذا النوع من الثياب الفاخرة كانت لا ترتدى الا في الاعراس وبمعنى اخر قد جعلت مني هذه الثياب عريسا بدويا .

محاولات لورنس لتجنيد الضباط العرب في جيش الامير فيصل

المحامي سليمان فيضي من العاملين في الحقل الوطني منذ ايام الترك في العراق وفي اثناء الحرب العالمية الاولى ازداد نشاطه وكثرة دعواته للمطالبة باستقلال الوطن العربي الكبير بصورة عامة ووطنه العراقي العزيز بصورة خاصة ولمثل هذا السبب فان نشاطاته وخاصة في الاعوام ١٩١٦ وحتى ١٩٢٠ كانت متعددة الجوانب ولقد اصدر كتابا في (غمرة النضال) في حياته وفي العام (١٩٢٩) كتب بجريدة[٣] صوت الشعب مقالات متسلسلة عن نشاط لورنس على شكل مذكوات وضع لها عنوانا (مساعي الكولونيل لورنس في العراق) نقتطف منها ما يلي لالقاء الضوء على تحركات لورنس في الساحة العراقية رغم كونه لم يطل البقاء فيها لفترة طويلة . قال سليمان فيضي (كنت قد فهمت هكذا بدأ لورنس حديث معي انه يوجد هنا بعض الضباط الاسرى فهل لك معرفة بهم؟ بأجبته نعم يوجد هنا بعض الضباط ثلاثة منهم من اصحابي واخوتي وهم مولود[٤] مخلص وعلي جودة وعبدالله الدليمي وعندما سمع لورنس بجوابي قال اذن المهمة اصبحت سهلة جدا يمكنك ان تقنعهم من السابقين في الانتماء الى الجيش العربي لمحاربة الترك فقلت له يا حضرة الكابتن اني متأكد بانه سوف لن يقبلوا بالعمل المشار اليه فأكد علي بوجوب مراجعتهم وان ارد له الجواب بعد اجتماعي معهم في دار القيادة العامة (القنصلية البريطانية في البصرة) واضاف لورنس ارجوك ان تجعلهم يوافقون وتعمل على اقناعهم واني واثق من شهامتك واخلاصك لقومك وبلادك اني سأحضر لاعادة الجواب اليك اجبته قائلا ولكني اخشى ان يمنعني الحرس من الوصول اليك فاذا لم احضر فاعلم باني منعت من الدخول ولما سمع مني ذلك

تناول ورقة صغيرة من على منضدته وكتب عليها بضع كلمات بخط يده وبقلم رصاص سلمها لي وهذه ترجمتها :

«الرجاء السماح لحامل هذه الورقة برؤية الكابتن لورنس بواسطة دائرة الاستخبارات في مركز القيادة العامة»

T. E. LOWRANCE

خرجت من عنده وودعني عند السلم وقصدت على الفور دار الاخوة واجتمعت بهم وحضر الاجتماع ايضا عمي السيد طه الموصلي وتداولنا في الامر وكلفوني بان انقل الى لورنس جوابهم .

لورنس يصف فيصل

قال لورنس في كتابه اعمدة الحكمة السبعة (ما كان نظري يقع عليه حتى ايقنت ان هذا هو الشخص الذي جئت بلاد العرب لابحث عنه) لقد وجد لورنس في فيصل الحماسة للاندفاع نحو الشمال لكن الاهم من ذلك ان وجد فيه صفات دبلوماسية الامر الذي لم يجده في اخويه علي وعبدالله هذه الصفات مضافا اليه عدم الحذر في علاقات فيصل مع الاخرين سبب لفيصل الكثير من الانتقاد بافساحه المجال دون حذر الى لورنس .

بعد انتهاء الحركات العسكرية وبالتحديد في اليوم السابع من شهر تشرين الثاني ١٩١٨ وصل فيصل الى بيروت حيث نقلته من هناك سفينة حربية الى فرنسا بدون دعوة رسمية من حكومتها وفي فرنسا انضم لورنس الى فيصل وكان يرتدي الزي العسكري البريطاني ويض على رأسه العقال العربي الا ان الفرنسيين تضايقوا من وجود لورنس ضمن حاشية الامير فيصل ما حدا بالجنرال (Brimond) ان يخاطبه بصراحة قائلا (نحن نعتبرك كضابط بريطاني

اذا ارتديت الملابس العسكرية الخاصة بالقوات البريطانية) وغادر لورنس فرنسا ثم ما لبثت ان عاد اليها مجددا ضمن الوفد البريطاني الى مؤتمر الصلح في فرساي وكان في هذه المرة يرتدي الزي العربي .

في مؤتمر فرساي لعب لورنس دورا كبيرا من اجل دعم شخصية فيصل واستمر بلعب هذا الدور بعد ان سرح من صفوف القوات البريطانية في العام ١٩١٩ حيث انضم هذه المرة الى وزارة المستعمرات واستطاع ان يحصل على وظيفة المستشار الخاص لونستن تشرشل (W.C) الذي كان يشغل حقيبة تلك الوزارة . وخلال تلك الفترة استطاع ان يضع اسس ترشيح الامير فيصل العرش العراق كمنا انه رتب اول لقاء بين بلفور وفيصل واستطاع ان يحصل على تزييد فيصل في دعم موضوع انشاء وطن قومي لليهود ضمن اراضي فلسطين العربية .

في اذار ١٩٢١ عقد تشرشل بصفته وزير المستعمرات مؤتمرا في القاهرة حضره عدد من كبار الشخصيات البريطانية العاملة في حقل الاستخبارات منهم المس بيل ولورنس ثرتشارد Thrthard, Bell, Lowarance اضافة الا Sir P. Cox واثنان من الوزراء العراقيون وهما جعفر العسكري وساسـ حسقيل وكان الاول يشغل حقيبة الدفاع في وزارة النقيب اما الثاني فكان يشغل منصب وزارة المالية في الوزارة ذاتها . كانت مقررات المؤتمر قد رتبت وطبعت من قبل دائرة الاستخبارات البريطانية حيث ان لقاءات تشرشل مع لورنس مستشاره السياسي المتعددة هي التي اثمرت عن تلك النشاطات ولقد حاول لورنس فعلا توزيع المقررات قبل نهاية المؤتمر لكن تشرشل منعه من ذلك .

وفي المؤتمر واثناء انعقاد جلساته التي استمرت لعدة ايام كان الشغل الشاغل للورنس الوقوف بكل حزم الى جانب ترشيح فيصل لعرش العراق .

فيصل في الشام

قبل دخول فيصل الشام منتصرا لا بد لنا من الرجوع الى الاستعدادات والاعمال الحربية التي سهلت الطريق لفتح الشام فعند وصول فيصل الى دعا بعد تحريرها عقد اجتماعا عسكريا مع لورنس واخرون لاعداد الخطة والتهيؤ لدخول دمشق ويصف لورنس ذلك بقوله :

(وصل فيصل بعد يوم واحد من تحرير درعا في سيارة فوكسهول الفخمة وبعد وصوله تقرر عقد اجتماع مع الجنرال (Bichofiel) بالقرب من دمشق للاتفاق معه لوضع خطة معينة لدخول دمشق معا وقد طلب فيصل مني ان انظم جناح الميمنة وكان طلبه هذا يتمشى مع رغباتي) .

تحركت الخطة الموضوعة لتحرير الشام من مكانها بين المفت الى ساحة القتال فنفذت وكان النصر لنا والفوز حليفنا بعد ان قدم العرب وشيوخهم الرجال الذين يعتمد عليهم في الظروف الصعبة الحرجة واننا مدينون في الحقيقة لهم في النصر الذيحرزناه كنا بتضحياتهم وجرأتهم وثباتهم وولاءهم اللا محدود .

اصبحنا على ابواب دمشق وكان القواد العرب ينفذون اوامر الجنرال اللنبي على وجه السرعة وكان سر قوة اللنبي انه يثق في قادة العرب العسكريين ويعتمد اعتمادا جازما في مقدرتهم . وكان دخول فيصل على رأس الجيش العربي من اكبر العوامل التي دفعت الاهلين بأن يفتحوا الابواب بوجوهنا وان يقابلونا بترحاب عظيم . وكانت مظاهر الفرح تعم دمشق من اقصاها الى اقصاها واخذ الدمشقيون يقذفون بطرابيشهم في الهواء من شدة انفعالهم وتأثرهم والدمشقيات ينتزعن الحجاب عن وجوههن وينثرن الورد وقام الرجال يفرشون الطرقات بالسجاد وكانت الهتافات ترن في الفضاء وتتطاير

رائحة العطور الدمشقية البديعة فتنعش وتشرح صدورنا واخذ بعض العامة يركضون وراءنا وامامنا وهم يصيحون هازجين وكانت النسوة بزعاريدهن التي تعلو عنان السماء جنبا الى جنب الرجال يهتفون ليحيى فيصل . . ليحيى اورنز (يقصدون لورنس) .

لورنس يترجم اتفاقية فيصل وايزمن ١٩١٩

لم تقتصر علاقة فيصل مع لورنس على العمل في مجال معين من مجالات الخدمة التي قدمهنا لورنس الى الامير العربي اثناء فترة تواجده معه ابان الثورة العربية ضد الاتراك بل شملت خدمات لورنس كافة النواحي المتعددة الاطراف في حياة فيصل وهذا الشيء نراه ونلمسه بكل وضوح من علاقة فيصل بكل من المس بيل والدكتور سندرسن ولورنس حيث اتخذ من كل منهم مرافقا ومترجما وسكرتيرا ومديرا لاعماله وفي اتفاقية فيصل وايزمن كان لورنس[٥] نفسه هو المترجم ولقد نالت الترجمة التقريبية التي قام بها لورنس في ذلك الحين رواجا خاصة في صحيفة التايمز اللندنية الصادرة في العاشر من حزيران ١٩٣٦ وفي تقرير لجنة التحقيق الملكية في فلسطين بوصفها ترجمة موثوقة الاصل .

نشاط لورنس في الشام على عهد فيصل

يقول لورنس عن نشاطاته التي قام بها دعما لتركيز الحكم الفيصلي في الشام (ان المشكلة التي جابهتها بعد تحرير دمشق كانت مع لفيف من الجزائريين الذين كانوا متعاونين اصلا مع الالمان والاتراك وكان يقود هؤلاء الاخوين عبدالقادر ومحمد سعيد وقد حاول كل من الاخوين المذكورين البطش بي ولكنهم علموا ان نوري الشعلان مع افراد قبيلته ونوري السعيد وهو على رأس جنده وكذلك افراد حرسي الخاص الذين لا يبالون بالموت ايقنوا تماما ان المؤامرة غير مجزية .

ولما كنت وكيلا لفيصل اعلنت باسمه ان الحكومة المؤقتة التي شكلت في دمشق قد الغيت وعينت شكري الايوبي حاكما عسكريا عاما لها على ان يكون نوري السعيد القائد العام وعزمي باشا مساعدا له وجميل باشا مديرا للامن العام .

بعد ان تغلبنا على هذه المشكلة انصرفنا الى اعمار دمشق وتقديم كافة المساعدة لاهلها في شؤون الصحة بالدرجة الاولى حيث كانت الامراض والاوبئة متفشية بصورة تكاد لا تصدق فضلا عن مشاكل اخرى اهمها تهيئة الغذاء للناس ويجاد عملة جديدة للتداول ومشاكل اخرى وكل هذه العراقيل وغيرها قد ذللت بفضل التعاون المثمر مع القادة الانكليز الذين وضعوا كل خبراتهم في خدمة المواطنين السوريين هناك . تركت دمشق في الرابع من شهر تشرن اول ١٩١٨ والسوريون يتمتعون بحكومتهم الوطنية التي دامت حوالي السنتين من الزمان . تركت سوريا وعلى رأسها صاحب الجلالة الملك فيصل تركتها حكة مستقلة بعيدة عن كل تدخل اجنبي وكان الوطنيون السوريون لا يقبلون بالاصغاء لمشورة يقدمها لهم الاجنبي . بينما كنت جالسا وحيدا في غرفتي سمعت صوت المؤذن قد ارتفع يدعو الناس للصلاة الى الله وكانت انوار المدينة تسطع والناس يلهون ويقفون الساعات الاخيرة من الليل في الفرح الذي يغمرهم اصغيت لصوت المؤذن وكان شجيا «حلوا» وكانت كلماته ظاهرة مفهومة اذ ان المسجد كان بالقرب من المكان الذي اعيش فيه سمعته يقول في خشوع واضح : الله اكبر اشهد ان لا اله الا الله ، اشهد ان محمدا رسول الله ، حي على الصلاة . . حي على الفلاح . . الله اكبر لا اله الا الله .

ورأيت القوم يتهافتون الى المسجد للابتهال الى الله الذي كتب لهم الظفر واعاد لهم حريتهم المسلوبة كاملة غير ناقصة وليس احق من الله بالشكر والحمد .

تحليل لنشاطات لورنس في الارض العربية

يميل جورج انطونيوس(٦) الى القول عن تحركات لورنس واسهاماته في الثورة العربية ومداخلاته في كل اعماله على ساحاتها الواسعة بما يلي :

لاسهاب لورنس في مقدرات حركة القومية العربية وجهان احدهما عسكري والاخر سياسي . اما الجانب العسكري فان خدمته نالتا اعجابا وعرفانا بالجميل اصلا في الوطن العربي . اما عن اسهاماته السياسية فانها محوطة بالريبة والشك والاستفهام؟ ولينصب النقد في الدرجة الاولى على نشاطه في موضوع التسوية التي تمت بعد احرب فهو متهم لتأييده لاجراءات بلغت حد اتنكد لما كان يبشر به من قبل وجاءت متناقضة لمصالح الشعوب وانه وافق على تجزئة بعض الاقطار العربية واستعبادها بعد ان كان يكرر دائما لاصدقائه العرب خلال الحرب ان ذلك سوف لن يكون من نصيبهم ابدا . ويقال عادة في تفسير هذا الموقف ان اراء لورنس ومعتقداته السياسية لم تكن قائمة على مبادئ ثابتة وانما كانت تتأرجح حسب الملابسات والاشخاص لهذا الظرف او ذاك . ففي الجزيرة شجع الامال العربية لانه كان يؤمن بها فيما وقع في (هوايت هول) دوي المصالح البريطانية تخرس كل صوت اخر معلق اماله على المستر تشرشل ان لمثل هذه الانتقادت اساس ملموس الا القضية العربية تصل الى الاذان المنصفة كما بفضل الدور الحاسم الذي اداه فأدى الى تغيير السياسة في العراق . وقد يستنتج المرء ان لورنس واصدقاءه العرب فريقان لم يفهم احدهما الاخر اما هو فقد رسم صورة جافة للمشكلات السياسية التي جابهته اثناء الثورة وظل محتفظا بها الى النهاية ، واما اصدقاءه من العرب ابان الثورة فانهم لم يفهموا ما كان اطلق عليه واسماه الخيانة او ارتيابه وتذبذب شكوكه او الانهاك الذي اصاب روحه فجعله بع التجربة

المريرة التي ذاقها في فرساي يخلد الى افق ضيق اسمه (مؤتمر القاهرة) ويطاب من نفسه العزاء فيما يبرمه من قرارات .

لورنس يتذكر

فيما يخص عمله المرهق في سبيل تدعيم ترشيح فيصل على عرش العراق ذكر لورنس في كتابه اعمدة الحكمة السبعة عن الاوليات في هذا الموضوع ما يلي :

(عهدت وزارتنا (٧) المنهكة الى السير ونستون تشرشل لتسوية شؤون الشرق الاوسط فقدر لنا خلال بضعة اسابيع في مؤتمر القاهرة قبل الانعقاد واثناءه وعبده ان نتوصل الى حل كل الرموز والعقد تقريبا وان يجد حلولا تحقق (فيما أرى) وعودنا قولا وفعلا دون ان نضحي بأي شكل من لاشكال بالتفريط في اية مصلحة من مصالح امبراطوريتنا او اية مصلحة من مصالح الشعوب وبذلك تحللنا من المغامرة الشرقية التي خضناها ايام الحرب بأيدي نظيفة الا ان تأخرنا عن الوقت المحدد بثلاث سنوات حرمنا من الفوز بالشكل الذي تستطيع الشعوب لا بل الدول ان تسجله لنا) .

وعن دور فيصل في الجمعيات العربية السرية قبل اندلاع الثورة العربية الكبرى يتذكر لورنس ما يلي (ان فيصل كان عضوا في احدى الجمعيات السرية العربية وانه كان يميل الى فكرة الثورة ولكنني علمت من فيصل نفسه انه لم ينضم الى اية جمعية من هذه الجمعيات قبل الحرب وانه لم يعتنق فكرة القيام بثورة عربية الا حينما ذهب الى دمشق سنة ١٩١٥) .

كان المؤتمر السوري والمؤتمر العراقي اللذان انعقدا في دمشق في العام ١٩٢٠ قد تم فيه ترشيح الامير فيصل ملكا على سورية كما ان المؤتمر العراقي

الذي انعقد في ذلك الوقت كان قد نادى بترشيح الامير عبدالله ملكا على العراق وكانت الدعوى من مجموعة من الضباط العراقيين تسرع دعاة الامير عبدالله العمل الفوري على دعم ذلك الترشيح بكل الوسائل الممكنة ولكن رغم ما بذلوه من جهد لم تثمر الا استجابات متفرقة هنا وهناك مقرونة بتحفظات كثيرة بعد مغادرة فيصل دمشق على اثر معركة ميسلون اخذت اكتب في الصحف البريطانية مقالات ادعوا فيها الى الدعوة الصريحة لاعتلاء عرش العراق من قبل فيصل حيث اكدت في مقالاتي ان الامير فيصل لم يلق الالتفاف اللازم جراء ما قام به من بطولة الى جانب الحلفاء اثناء الثورة ضد الاتراك التي كان والده الشريف حسين قد فجرها . لقد ابرزت في مقالاتي الدور الكبير الذي لعبه فيصل جنبا الى جنب معي وكان لاثار هذه الحملة الاعلامية الت فجرتها في الصحافة البريطانية اثرها الكبير والايجابي لترشيح صديقي فيصل لعرش العراق سابقا بذلك كافة المرشحين الاخرين الذين برزوا كمنافسين له .

فقد مذكرات الكولونيل لورنس

كانت مجلة دار السلام البغدادية قد نشرت في عددها المؤرخ في ٢١ اذار ١٩٢٠ خبرا عن فقدان لورنس لمذكراته ولم يكن لورنس في ذلك الوقت مشهورا بين الاوساط العربية ولم يعرف عنه الا القليل مما دفع مجلة دار السلام ان تكتب عن الرجل قبل الخوض فيما فقده فقالت :

من هو الكولونيل لورنس ؟ (حتى نعرف قيمة ما فقده)

الكولونيل لورنس هو المستشرق الانكليزي الكبير والرحالة الشهير الذي جاب جزيرة العرب ودرس اخلاق اهلها بدوها وحضرها ومهر في لغتهم حتى اصبح لا يفرق بشيء عن اصحابها الذين ولدوا عربا .

دخل هذا المستشرق الجيش العربي بمنزلة مستشار لسمو الامير . وقد دافع عنه في الحرب العامة انه جاء سورية متنكراً ووطئها مرارا عديدة ليعود بأخبارها الى الحلفاء . وقد شعر جمال الدين باشا بتردده هذا الخفي الى ديارهم فبث عليه الرصد والعين وعرض على من يجيئه به مكافأة ابلغها اخر الامر اي خمسة وعشرين الف ليرة ومع ذلك لم يوفق بوضع يده عليه . ومما ساعد الكولونيل على التستر انه كان يتكلم اللغة العربية بلهجة بدوية ويتزيا بزي ابناء الصحراء فلم يكن يمتاز عن العربان بشيء يذكر زد على ذلك ما اوتي المهارة والحذق والدهاء مما رفع منزله في اعين كل من عرفه لا سيما انه خاطر بحياته مرارا فخدم الحلفاء عموما والعرب خصوصا خدمة لا تنسى .

ولما عقدت الهدنة عين مستشارا لسمو الامير فيصل ورافقه في اسفاره الى اوروبا وكان الوسيط المترجم بين جلالته وبين الانكليز .

وقد قدرت الحكومة البريطانية خدماته حق قدرها جادت عليه بوسام سام . وبينما كان المذكور راكبا القطار في بادنتن سرقت منه نسخة كتابه الذي خطه بيده وقد ألفه حديثا وضمنه اختباراته في الحرب . ويعد هذا الفقد من اعظم مصائبه في هذه الحرب .

بين لورنس وفيصل

في العام ١٩٤٧ صدر عدد خاص من مجلة العروبة (٨) بمناسبة ذكرى ميلاد المرحوم الملك فيصل الثاني وكان من بين المقالات التي احتواها العدد المذكور مقالة بقلم المجاهد العربي السوري سعيد حيدر بعنوان «عهود فيصل بين الاستانة ومكة ودمشق وبغداد) تطرق فيه الى علاقة فيصل بلورسن ورد فيه ما يلي (ادرك لورنس لاول نظرة شخص بها فيصلا بانه الرجل المنشود لبريطانيا وللعرب معا ولكوني عريق فراسته الموروثة لخدمة مجده حتى

اصبحت غريزة تبحث العجيب فيمن ادرك ما يرجون اليه من تخمير الرجال للانخراط في سلك العمل السري معهم لقد عرف فيصل لورنس وعرف لورنس فيصل فأخلص كل منهما لصاحبه ولم يزل لورنس مخلصا له حتى آل به اخلاصه الى ان يرد الوسام الاكبر الي قلده اياه ملك بريطانيا وامبراطور الهند جراء خدماته رفض قبول الوسام وغادر وطنه محتجا على ظلم العرب ونكث امته العهود المقطوعة عليها لملك العرب الحسين بن عليه ولانجاله من بعده لوطنه الا جسدا بلا روح) .

وعلى ذكر علاقة لورنس وفيصل يقول الدكتور عبدالرحمن الشهبندر(٩) عن تعاطفهما فان لورنس كان قد اطلع فيصل عل جميع ما استكشفه من اسرار وزارة الخارجية البريطانية وآل على نفسه ان يرفض جميع ما منح من القاب ورتب واوسمة واموال تقديرا لاعماله الممتازة في الشؤون العربية .

دور لورنس في مؤتمر فرساي

عندما غادر الامير فيصل وحاشيته بيروت على ظهر الباخرة الحربية البريطانية الى ميناء مرسيليا استقبلتهم السلطة هناك بأمر يمنعهم من السفر الى فرنسا . فأرسلت برقيات الاحتجاج الى لندن فجاء الجواب مشيرا على الوفد العربي بالسفر حول الحدود الفرنسية الى البلجيك . ريثما تتم المفاوضات بين الحكومتي البريطانية والفرنسية فداروا تلك الدورة وسمح لهم بالدخول الى فرنسا من حدود البلجيك . وقد اعترضتهم في باريس عقبات اخرى اقامها بيشون الذي انكر على العرب حق التمثيل في المؤتمر . وبذل ما في طاقته ليقفل الابواب كلها دون فيصل . كان الكولونيل لورنس يومئذ مع الامير ، فاستشاط غضبا لسلوك الحكومة الفرنسية وراح يحتج الى الوفد البريطاني . فاهتم لويد جورج بالامر في الحال وفي اصيل ذلك اليوم قرع جرس

الهاتف في منزل الامير وزير الخارجية بيشون يريد ان يكلم الامير فيصل تفضلوا – فيصل يخاطبك – قد منحنا العرب حق التمثيل في المؤتمر . كا الخبر قد بلغ الامير ـ جاءه به لورنس ـ وأحسن ما فيه ان العرب نالوا الحق بممثلين بدل الممثل الواحد فقال فيصل لنا ـ وهو يروي الحدث في الحارثية ـ اغتنمت الفرصة لادراك ثأري من بيشون فقلت له (جاءنا العلم بذلك وقد علمنا ايضا ان المؤتمر منح العرب الحق بممثلين اثنين) . فما أجابه بكلمة(١٠) .

أضواء على حياة لورنس

عندما نريد الحديث عن شخصية لورنس لا بد لنا من ان نتصفح كل سجل من سجلات هذا الرجل عبر مسيرته الطويلة في الحياة السياسية العربية فمن الواجب على الباحث ان يكون ملما باطراف حياة لورنس التي سطرها اولا واخرا لخدمة الامبراطورية البريطانية علينا ان ندرس حياة ذلك الانكليزي الذي قدر له ان يعمل في ترشيح من يشء ليتربع على عرش العراق . لقد امسى لورنس بين عشية وضحاها فردا من افراد الجيش العربي الذي كان تحت امرة الشرفاء الاربعة اولاد الشريف الحسين بن علي ولا بد لنا ان نعمق البحث لنصل الى النتيجة التي وصل اليها لورنس نفسه جراء ما قدمه الى العرب والى الانكليز اسياده من خدمات . ان حياة البدو التي امسى لورنس واحدا من ابنائها بعقله ولغته ولهجته البدوية وملابسه العربية وركوب الجمال وقطع الصحاري . ان هذا التكيف العجيب في فترة قصيرة يدعو الى الحيرة والتأمل والاكثر من كل ذلك ان الغرائب والعجائب التفت حول حياة لورنس فكيف يمكننا الجزم والتحليل عن اسباب تركه الخدمة فجأة وانصرافه الى عمل بعيد عن اختصاصه غريبا على نمط حياته فكيف نفسر من كان يوما ما مستشارا لتشرشل وزير المستعمرات البريطانية يفقد فجأة كل اهتماماته

بمنطقة الشرق الاوسط والساحة العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ولقد أكد هو بنفسه على ذلك في رسالة ارسلها الى السير برسي كوكس واخرى مماثلة ارسلها الى رئيس الجمعية الجغرافية الملكية التي اقترح لورنس عليه ان تسهم الجمعية المذكورة في تحمل بعض نفقات طبع بعض البحوث التي سبق له ان كتبها قبل بضع سنوات . لقد ابتدعت عدة فرضيت لتفسير السلوك المحير الذي سلكته هذه الشخصية الغامضة المعالم فقد تحدثت الكثير من هذه الفرضيات عن نزعة جنسية في تكوين شخصيته الذاتية ومن الذين شنوا حملات لاذعة مرة على لورنس ومن الانكليز انفسهم السير ارنولد ولسن وكيل الحاكم الملكي العام في العراق في الفترة ١٩١٨-١٩٢٠ ففي رسالة كان قد بعث بها الى السير P. Cox الذي خلفه ولسن في حكم العراق خلال تلك الفترة ارفق بها الفصل الاول من كتاب لورنس اعمدة الحكمة السبعة Seven Pilors of Wisdom كتب ولسن معلقا على ما ورد في كتاب لورنس المذكور ما يلي (لم احصل على فائدة من قراءتها وانا اكره الرجل وامقت القضية ان الصفّحات الثلاث الاولى مملة وانها تذهب بعيدا لتبرهن على تخنثه وحبه للملبس ولان يتم تصويره في ملابس طويلة . ان ممارسة اعمال اللواط هي مصدر ضعف لورنس وهي السبب في مكوثه ضمن افراد القوة الجوية الملكية وفي جحفل الدبابات) من جانب اخر يعق الدكتور سندرسن على شخصية لورنس بقوله (لا يوجد ادنى شك في ان لورنس كان نموذجا لشخصية قلقة ذات عبقرية وذلك هو الشذوذ الذي تميز فيه الكثيرون من الخالدين في العالم من امثال جان دارك/ سليني/ مايكل انجلو/ موزارت/ تولستوي . ولا نريد ان نذكر سوى القلائل منهم في مختلف النشاطات كان من النادر جدا ـ يقول الدكتور سندرسن ـ ان يسشير الملك فيصل الى لورنس وعندما كان يشير اليه

كان دائما يستعمل على الدوام كلمة مسكين . ويقول A. M. Forster في مذكراته ما يلي عن لورنس (قابلت لورنس صدفة في قاعة الملكة بصحبة رجال اثارت وجوههم في نفسي ريبة غريزية ويجمع كل اصدقائه انه يحتفظ بمجموعة من الاصدقاء الشاذين) ولم يكن فورستر اول من اشار الى شكوكه بالنسبة الى موضوع شذوذ لورنس الجنسي لان لورنس نفسه ترك مجموعة من العلاقات والظواهر التي توحي انه شاذ ومن هذه العلاقات صداقته وملازمته للفتى العربي الجميل دهوم (الشيخ احمد) الذي التقاه لاول مرة اثناء ما كان لورنس يعمل ضمن بعثة اثارية حيث كان المذكور يعمل ساقيا يحمل الماء ويوزعه على افراد البعثة العاملين فيها ولقد توطدت العلاقة بين الشابين فعلم لورنس الشيخ احمد (فن التصوير) ثم اخذه الى اكسفورد ليتعلم الانكليزية هناك والشيخ احمد هذا هو صاحب الحرفين (S.A) الذي اهداه لورنس قصيدته في مطلع كتابه اعمدة الحكمة السبعة والقصيدة غزل بذكر واضح .

ولقد كان حزن لورنس كبيرا جدا وتأثره تأثرا بالغا عندما وصل دمشق في العام ١٩١٨ فوجد الشيخ احمد قد توفي نتيجة اصابته بمرض التيفوس واعلن مبلغ ترثره على صديقه في رسالة بعث بها الى احد معارفه يذكر فيها (الناس لا يصبحون اصدقاء اذا لم يقولوا كل ما يقدرون ان يقولوه اذا لم يكونوا قادرين على ان يعملوا معا ويجلسوا معا ليس لدينا شيء من هذا لكننا نقترب منه يوما وقد مات (S.A.) وبعد موته لم اجرب اي مغامرة من هذا النوع) . بعد مرحلة الشهرة والاضواء والمجد العالي الذي استطاع لورنس الوصول اليه تأتي المرحلة المعاكسة المرحلة غير المستقرة الذي يختلط بها العنف بالشعر الرومانسي الرقيق الكابوس بالواقع الخير بالشر حياته المملوءة حلاوة الشهرة وما وصل اليه من نسيان القصة البوليسية التي لعب ادوارها مجيدا دون كلل

كادت ان تؤدي به الى الجنون حيث انتهت ا دوارها نهاية محزنة مرة لقد هرب من كل شيء يتلو عليه معه مغامراته الصحراوية التي تغنى بها كل عارفيه من اصدقائه او اعدائه ما هو السر العميق في حياة لورنس في فترة انفصاله عن العرب وارضهم لقد ارهق التأمل والتفكير كل النقاد والمؤرخين من ذوي الاختصاص الذين تم لهم دراسة حياة لورنس دراسة سايكولوجية لم يستطع اي منهم ان يتوصل فيما هو باحث عنه منتظرين السنة ٢٠٠٠ عندما يسمح بنشر رسائله المحفوظة في مكتبة بودليان Bodlien وحتى ذلك الوقت الذي امسى قريبا جدا سيطلع الدارسون الباحثون على سطور جديدة عن حياة رجل كتب عليه ان تبقى سيرته الشخصية مدونة بأقلام الاجيال الى امد بعيد بقي ان نذكر في اخر هذه السطور عن حياة لورنس وسيرته ان احد اصدقائه من الصحفيين الانكليز والي كان قد كتب عنه كتابا خاصا هذا الصحفي الذي سبق وان مر ذكره في هذا الفصل (Mr. Philip Greaves) (١١) كتب عن مقابلة لورنس للملك جورج الخامس فقال (ان لورنس شرح بالتفصيل للملك جورج الخامس وبصورج شخصية ان الدور اذي مثله في الثورة العربية لم يكن مشرفا له ولا لبلاده ولا للحكومة البريطانية فقد امر ان يمنى العرب بالأماني الكاذب وهو يرجو اعفاءه من قبول الاوسمة التي سبق للملك ان انعم بها عليه لنجاحه في الخديعة والاحتيال وهكذا رفض الاوسمة التي عرضت عليه واعادها وتطوع جنديا في سلك الطيران .

قصص عن فيصل ولورنس في الصحافة البريطانية

في اخر زيارة له الى المملكة المتحدة اشارت الصحف البريطانية بالملك فيصل الاول واطلقت عليه لقب (الحاكم الرومانسي) كان ذلك في العام ١٩٣٣ وبصورة عامة فان الترحيب بجلالته في بلاد الانكليز كان دون ريب

كان من افخم ما استقبل به ملك في السنوات الاخيرة ويصف الدكتور سندرسن[١٢] باشا الطبيب الخاص لملك العراق والذي كان من ضمن مرافقي الحملة الاعلامية الضخمة التي قوبل بها ملك العراق فيقول (لقد اشادت الصحف القومية منها والاجتماعية ومختلف المجالات بزيارة الملك فيصل ولقد تأثر جلالته تأثرا عميقا بعبارات الود التي نشرتها وتضمنت اعمدة (القيل والقال) المزيد من القصص كان معظمهما خيالية تتعلق بانتصارات فيصل ولورنس في الجزيرة العربية اثناء الثورة العربية الكبرى وتعاونهما الوثيق في محادثات الصلح في لندن وباريس ومن جملة هذه المحادثات كانت اصطدام لورنس بالسلطة والتمسك بالتقاليد شديدة جدا من بين تلك القصص قصة يشك في مدى صحتها لان جلالة الملك فيصل لا يتذكر مثل تلك الحادثة التي وقعت احداثها عند زيارة الملك فيصل الى لندن ومفادها ان لورنس الذي اختير عضوا في حاشية الملك كان يرتدي الملابس العربية وحدث ان سأله شخص له اهمية مستنكرا عن السبب الذي دعاه وهو الانكليزي الى ارتداء تلك الملابس العربية . ولقد رد عليه لورنس التأكيد ولكن باحترام يقول عندما يخدم المرء سيدين فان من الافضل ان يثير انزعاج اكثرهما قوة انا هنا كمترجم رسمي للامير فيصل الذي يرتدي هذا اللباس وانا متأكد ان اختيار هذا الكساء هو من اختيار لورنس وحده لان جلالة الملك يقاوم بشدة اي شخص غير عربي فيختار مثل هذا التنكر .

حوار بين فيصل ولورنس

ضمن نطاق دعم جيش فيصل في القاطع الشمالي كان لورنس قد استطاع الحصول على وعد من الجنرال اللنبي بتجهيز جيش فيصل بألفي جمل وطال الانتظار بعض الشيء وبعد ان تحرك لورنس ثانية في سبيل

الحصول على ما وعد به وصلته موافقة الجنرال اللنبي باعطائه ألفا جمل وقد سر لورنس بذلك الكسد وقصد فيصلا ليلعمه بالامر فكان بين الصديقين هذا الحوار . قال لورنس(١٣) (قصدت فيصلا في المعسكر وتحدثنا في كل شيء عن الطقس والقبائل والارتحال والمراعي والعشائر وكل ما يخص حياة البدو وفي اثناء ذلك اعلمته دون اكتراث ان الجنرال اللنبي قد اعطانا الفي جمل فانتفض وامسكني من ركبتي وهو يقول ولكن كيف؟ وبعد ان رويت قصة ذلك هب واقفا وقبلني ثم صفق بيده فأطل (هجرس) من باب الخيمة فقال له فيصل استدعيهم بسرعة فأجابه هجرس ومن تريد يا سيدي قال فيصل اريد فهد وعبدالله ومطلك ومزعل وعودة وبعد ذلك قلت لفيصل ها هي نهاية المطاف تقترب وبعد مدة وجيزة سوف استئذنك بالرحيل . احتج فيصل على كلامي وقال ورد علي انه يتوجب البقاء معنا دوما وليس فقط حتى دمشق كما وعدت .

بعد لحظات دخل علينا المشايخ وهم يتساءلون خير ان شاء الله ما الاخبار؟ اجابهم فيصل كل الخير ان شاء الله والحمد لله ثم اخبرهم عن قصه الجمال التي ظفرنا بها والتي هي في طريقها الينا والتي ما كادت ان تكون لولا توسط لورنس عند الجنرال اللنبي . فعم الفرح عند جميع المشايخ واخذت الابتسامة تبدو واضحة على وجوههم السمر .

اللقاء الاخير بين فيصل ولورنس

اثناء زيارة الملك فيصل الاول الى المملكة المتحدة لغرض المعالجة الطبية في العام ١٩٢٥ وفي اثناء تلك الزيارة تم اللقاد بين فيصل ولورنس وصفه الطبيب الخاص للملك الدكتور سندرسن باشا الذي كان حاضرا ذلك اللقاء الودي قال سندرسن باشا (قبل ان نغادر منطقة (سوري) لدقائق ترجل عن

دراجته البخارية شاب انيق رشيق ازرق العينين جميل الشعر يرتدي ملابس افراد القوة الجوية الملكية البريطانية وطرق الباب ثم طلب ان يواجه الملك . تراجع الخادم الذي فتح له الباب الى الوراء عند سماعه هذا الطلب الغريب ورد عليه بقوله ان الملك على وشك ان يغادر الى لندن لبضعة ايام وانه في الوقت ذاته لا يستقبل الزائرين غير ان جندي القوة الجوية اجاب حسنا سوف اجلس على عتبة الدار الى ان يخرج جلالته . اضطرب البواب عند سماعه مثل هذا الجواب وراح يبحث عن تحسين قدري(١٤) ويقص عليه اوضاع هذا الجندي الغريب الاطوار الذي يريد ان يقابل الملك ومن دون ان يشخص تحسين قدري هوية هذا الزائر اخبر البواب ان يسمح بالدخول لهذا الزائر وان يجعله ينتظر في غرفة الاستقبال . وبعد نصف دقيقة عرف ان ذلك هو (لورنس العرب) حيا الملك فيصل لورنس تحية ودية ذلك انهما لم يتلاقيا منذ الزيارة الاخيرة للملك فيصل الى اوروبا ولقد سأل فيصل رئيس اركان حربه الاخير مازحا عن السبب الذي جعله يخفض رتبته العسكرية الى صنف الجنود؟ بعد فترة لا بأس بها من التردد تم اقناع لورنس ان يأتي معنا الى الحقل (Shangly Park) للقيام بزيارة الى اللود ونتروب (Lord Wintrodb) الذي سبق له ان شارك كضابط في لواء الخيالة الامبراطوري مع الملك فيصل ولورنس اثناء حربهما ضد الاتراك .

كانت القضية الاساسية التي تتعلق بسفر لورنس الى جنوب لندن هي ان اجازته كانت تنتهي في الساعة التاسعة والنصف من تلك الليلة وهو الذي ينبغي فيه ان يكون حاضرا في مقره بالثكنات العسكرية في كرنويل ومع ذلك فقد حلت المشكلة عندما وضع الملك فيصل سيارته الخاصة لسفر بواسطتها الى مقره وابقاء دراجته البخارية في (Princ Gate) كيما يعود لاستعمالها بعتد الظهر وهو في طريقه الى مسكنه في منطقة لنكولن شاير .

رأي فيصل في لورنس

بعد وفاة المرحوم الملك فيصل وضعت كاتبة امريكية كتابا عنه قام بترجمته ونشره في العم ١٩٣٤ السيد عمر ابو النصر ووضع له عنوانا (فيصل الاول ملك العراق) ولقد ورد في الصفحة ٦٩ ما يلي حول رأي فيصل في لورنس .

قالت الكاتبة لما سألت فيصلا عن لورنس بعد سنوات خلت على تعارفهما قال بالفرنسية لقد ذكر عني لورنس امورا كثيرة معظمها لا تتصل بالواقع في شيء . اما انا فأقول عنه انه كان عبقريا لكنه لم يخق لعصرنا هذا ان لورنس خلق لزمن مقبل بعد مائة سنة سيكون بامكان الناس ان تفهمه وتتعرف على ما فيه ولكن ليس في الوقت الحاضر .

لورنس يغادر ارض العرب

بعد ان تم تمشيط مدينة دمشق من بقايا الاتراك عقب تحررها منهم قرر لورنس مغادرة سوريا الى مصر ومن هناك عائدا الى لندن بعد ان انجز ما كان بعهدته من عمل وحول هذا الموضوع كتب رسالة الى احد معارفه هذا نصها :

فندق كران كونتيننتال(١٥)

القاهـــرة

١٩١٨/١٠/١٤

عزيزي سكوت

شكرا جزيلا على برقيتك دخلنا دمشق كما كنا نأمل وكان علي هناك ان افارق العرب . من المؤسف ان اذهب عنهم كما ان بقائي معهم لم يكن من

الحكمة بشيء واني اشعر كمن القى عن عتقه حملا كبيرا ان ظهري ليؤلمني عندما احاول ان امشي منتصبا .

انا راحل بعيدا عن مصر وهذه الحرب على وشك ان تنتهي ولم تعد هناك فائدة من وجودي . اخشى انك ستتأخر هناك لتنظيف كل ما تركناه وراءنا من مشاكل وحاجات .

تركت ورائي في العقبة شيئا واحدا اعتز به وهي بندقية انكليزية منقوشة فارجو منك ان تعمل على ايصالها الى القاهرة سالمة . تحياتي الى جميع الزملاء وشكرا جزيلا لهم ولك لقد كنا حقا عصبة غريبة الشكل واحسب اننا استطعنا تغيير تاريخ الشرق الادنى . ولا ادري كيف سيكون موقف القوى الكبرى من العرب .

المخلص

لورنس

(ادناه وصف كتبه لورنس لتلك البندقية عندما قدمها هدية الى الملك جورج الخامس والوصف المعروض الآن مع تلك البندقية في المتحف الامبراطوري الحربي)

(هذه البندقية قصيرة نوع لي انفيليد غنمها الاتراك في معركة غاليبولي وارسلت الى القسطنطينية كجاذزة وقامت الحكومة التركية بنقش العبارة التالية على البندقية بحروف من ذهب باللغة التركية (غنيمة من معركة جناق قلعة) ثم قدم انور باشا هذه الهدية الى الامير فيصل وكان في ذلك الوقت من الرعايا الاتراك وضيفا على جمال باشا في دمشق) ونقش على البندقية عند ماسكة الحربة ما يلي باللغة التركية (هدية انور باشا الى فيصل الاول) .

ارسل فيصل هذه البندقية الى مكة ، تحالف العرب بعد ذلك مع الانكليز واكتشف فيصل ان الذخيرة التي يجهز بها جيشه تناسب بندقية انور . لذلك صار يحملها معه منذ شهر حزيران حتى شهر كانون الاول ١٩١٦ عندما اعطاها الى لورنس قرب المدينة حمل الكولونيل لورنس هذه البندقية حتى تشرين الاول ١٩١٨ عندما تم الاستيلاء على دمشق . ان البروز الكبير قرب مخزن البندقية يمثل ضابطا تركيا اهديت بندقية مماثلة من الحكومة التركية الى الامير عبدالله شقيق فيصل (الا انها خالية من نقش انور) وهي الان بحوزة رونالد ستورس .

مقدمة كتاب اعمدة الحكمة السبعة

Seven Pillors of Wisdom
By T. E. Lowrance

يعتبر كتاب اعمدة الحكمة السبعة اهم ما كتبه لورنس عن تجربته في حياة الصحراء جنبا الى جنب مع العرب وقادتهم . ولقد حاول الرجل ان يعبر عن مشاعره عن تلك الحياة في مقدمة كتابه الشهير هذا الذي تعتبر نسخة اكسفورد من ادق الطبعات الانكليزية امانة . لقد ترجم الكتاب المذكور الى اللغة العربية وصدر في جزءين ومن الطبعات العربية والتراجم ترجمة عراقية في اواسط الخمسينات قام بها الدكتور سليم النعيمي واننا هنا سنورد بعض افكار لورنس من هذه الاسطر المقتبسة من تلك المقدمة .

عشنا حياتنا مرات عديدة في خضم هذه المعارك الخاطفة . لا نوفر على انفسنا خيرا و شر وعندما حققنا ما نريد واطل فجر العالم الجديد ظهر الشيوخ مرة اخرى وسلبوا منا نصرنا وجعلوا منا صورة للعالم القديم الذي يعرفونه . قد يستطيع الشباب ان ينتصر الا انه لم يتعلم كيف يحتفظ بنصره . وظهر تجاه

الزمن ضعيفا بشكل كبير يثير الشفقة ـ توسلنا باننا سعينا نحو سماء جديدة وارض جديدة فشكرونا على ذلك وانصرفوا يصفون سلامهم الخاص . لا شك اننا اذا وصلنا اعمارهم سوف نعامل اولادنا كما يفعلون بنا .

ذلك اذا الحلم الباهت عن الايام التي قضيناها بين غبار وضجيج الاسواق الشرقية واستطعت بفكري وبدني وتفكيري المتواصل ان اجعل الاخرين يحققون احلامي . ان الذين يحلمون في يقظتهم هؤلاء الرجال الخطرون الذين قد يستطيعون ان يحققوا احلامهم في حياته . وهذا ما فعلته .

قصدت ان اصنع امة جديدة وان استعيد الى العالم نفوذا وان امنح عشرين مليونا من الساميين اساسا يبنون فوقه ما يستوحونه من قصور واحلام لافكارهم القومية . ان مثل هذه الامال العظيمة تستدعي احياء النبل المورث في عقولهم ودعوتهم لان يلعبوا دورا كبيرا في الاحداث غير اننا عندما كسبنا المعركة اتهموني بانني جعلت الامتيازات البريطانية في نفط العراق في وضع مشكوك فيه وتسببت في تخريب السياسة الاستعمارية الفرنسية في الشرق .

اخشى انني فعلا ارجو ان يتحقق ذلك . اننا في سبيل هذه الامور ندفع ثمنا غاليا من دمائنا وشرفنا . لقد ذهبت الى حوض دجلة بصحبة مائة من جنودنا شباب نظيفون بهيجون ملؤهم الطاقة والسعادة والقدرة على اسعاد النساء والاطفال . جعلونا نحس تماما كم يسعد المرء ان يكون قريبا من هؤلاء الشبان وانكليزيا مثلهم . الا اننا نرميهم في اتون الحرب بالآلاف اي شر منية . لا نربح الحرب بل لكي نستولي على ما في ارض الرافدين من القمح والرز والنفط . كان كل ما نحتاجه هو ان نهزم اعداءنا (ومن بينهم تركيا) وتحقق لنا ذلك بخسارة اقل من اربعمائة قتيل من جنودنا وعن طريق جعل الاقوام الذين اضطهدهم الاتراك يخدمون اغراضنا وكان ذلك بفضل حكمة الجنرال اللنبي .

انني لأفتخر بأنني في المعارك الثلاثين التي خضت غمارها لم ارق دم احد من رجالنا . ان جميع البلاد الخاضعة للامبراطورية لا تساوي في نظري حياة صبي انكليزي واحد . لقد ظهر ان اي امل في تحقيق مثل هذه الانجازات قد اندحر امام معاهدة سلام وضعت على اسس من حق تقرير المصير لكل الشعوب . غير انه ليس من طبع لورنس ان يعترف بالهزيمة .

وبعد ما وصفه هو (صراع في اروقة داوننك ستريت) استمر لثلاث سنوات نجح في تأسيس مملكتين عربيتين ثم خلد الى الراحة وهو يشعر انه خرج نظيف اليدين من مغامرته العربية) .

نهايـــة لورنـــس

صباح يوم الاحد الموافق للتاسع عشر من ايار وفي تمام الساعة الثامنة اسلم لورنس الروح بعد ستة ايام من فقدانه الوعي اثر حادث تصادم دراجته البخارية . لقد حاولت الحكومة البريطانية من جانبها عمل المستحيل لانقاذ حياة لورس ومن اجل ذلك ارسل في طلب اربعة من اشهر اطباء المملكة بينهم اثنين من اطباء الملك اضافة الى ان الملك جورج نفسه اتصل هاتفيا في المستشفى الذي كان لورنس راقدا فيه طالبا موافاته بأي تطور جديد يطرأ على صحة لورنس جراء مرضه . ولقد ورد في شهادة الوفاة الخاصة به ما يلي (ان توماس ادوارد ذكر ٤٦ سنة عامل طيران متقاعد توفي نتيجة احتقان الرئتين وتوقف القلب جراء كسر في الجمجمة وتمزق في الدماغ عندما طرح ارضا عن دراجته النارية اثر اصطدام بدراجة عادية) .

يوم ٢١ ايار ١٩٣٥ تم تشييع جنازة لورنس بعد مرور يومين على وفاته ولقد شارك في التشييع كبار رجال الدولة يتقدمهم ونستون تشرشل ، لويد جورج ، ليونيل كيرتس ، توماس هاري ، ليدي اشور ، اغسطين جون ، وصديقه القديم

ستورز الذي التقط له صورا وهو مسجى في تابوته المصنوع من خشب السنديان ولقد وصفه بعد القاء نظرة الوداع الاخيرة عليه بهذه الكلمات (باستثناء بعض اثار الجروح الصغيرة وتغير لون العين اليسرى وما يحيط بها فإن لورنس كان يبدو اكثر اناقة ونبلا مما اعرفه في السابق ، الانف دقيق كرأس القلم ومعقوف يسشبه انف الصقر اكثر مما كان وهو على قيد الحياة وذقنه اقل عرضا كان ملفوفا باقمشة صوفية وقطنية بيضاء مع عصابة مشدودة على جبينه وغطاء فضاضا حوله ومن دون ان نوع من التجميل كان يبدو من جديد كأنه شيخ القبيلة الوفي الذي يعتمر الكوفية والعقال في عاج ملطخ بالسواد بين اموات موشحين بالبياض في المستشفى) .

وبناء على توصية لورنس فقد دفن في كنيسة القرية في مورتون وقد انشد الحاضرون بالصلاة عليه في الكنيسة ترنيمة واحدة كان يحبها لورنس ولطالما كان يرددها وهي (يا يسوع . . يا حبيب الروح) ولقد بكى ونستون تشرشل اثناء الجنازة وارسل الملك جورج الخامس رسالة الى البروفسور لورنس اخ لورنس جاء فيها (يحيا اسم اخيك في التاريخ ويشعر الملك بكل امتنان للخدمات التي قدمها لبلاده ويشعر انه لامر مأساوي تنتهي بهذا الشكل حياته التي لا تزال تبشر بالمزيد) ان المقبرة الصغيرة حيث يرقد جثمان لورنس لم تكن ملأى اثناء دفنه سوى لنصفها شاهد قبره رخامة صغيرة وغير متكلفة حفر عليها ما يلي :

الى ذكرى لورنس العزيزة

من كلية اولد سونر في اوكسفورد

ولد في ١٦ اب ١٨٨٨

توفي في ١٩ ايار ١٩٣٥

لقد دقت الساعة والآن هو الوقت الذي سيسمع فيه الاموات صوت ملائكة الله ومن سيسمع سيحيا وفي طريق القبر حجر صغير نقش بشكل كتاب مفتوح كتب عليه باللاتينية ما يلي من المزمور السادس والعشرين

DOMINES ILLUMNATIO MEA

جدير بالذكر ان لورنس كان قد تعرض في العم ١٩١٩ الى حادث سقوط الطائرة الحربية التي كانت تقله الى القاهرة في ايطاليا واصيب في كسور في عظم الترقوة وفي ثلاثة من اضلاعه مما حدا به الى العودة الى لندن .

تقرير لورنس عن الساحة العربية في العام ١٩١٨

كان لورنس يزود وزارة المستعمرات البريطانية بالكثير من التقارير حول اعماله ومنجزاته ومقترحاته وهذا التقرير كان قد رفعه الى وزارة الخارجية البريطانية حول الموقف الراهن في العام ١٩١٨ وهو العام الذي انتهت فيه الحرب العالمية الاولى ويوافق تاريخ رحيل لورنس من ارض العرب .

(١٧) ان رغبة اخر جيل من رجال السياسة البريطانيين في ان ننسحب من مواقعنا الامبريالية في الشرق الاوسط (كما عبروا عنها بوسائل كثيرة الى جانب ما جاء في اتفاقيات خط شكة حديد بغداد والمفاوضات بشأن الاسكندرونة عما ١٩١٥) قد جعلت من المرغوب فيه ان نجد طرقا غير مباشرة للمحافظة على منطقة نفوذنا المتفق عليها بموجب مبدأ مونرو . وهي تلك المساحة المربعة من الارض ما بين مصر والاسكندرونة وبلاد فارس والمحيط الهندي . وعندما اشتعلت نار الحرب اضيفت لتلك المصالح حاجة ملحة في تقسيم الامة الاسلامية وحملنا انفسنا على البحث عن حلفاء بدلا من تابعين بين اهل المنطقة . لذلك استثمرنا التذمر الذي يشعر به السكان الناطقون بالعربية تجاه حكمامهم الغرباء عنهم . والميل الذي كان يظهره الرعايا

الشرقيون والذي اخذ يتضح يوما بعد يوم للمطالبة بنصيب متزايد من مشاكل الحكم . فسعينا الى خلق نطاق من الدول التابعة التي تصر هي نفسها على حمايته لها الغرض الوقوف بوجه اية قوة غريبة تحاول انجاح خططها في ارض الانهر الثلاث . ان العقبة الكبرى امام اية حركة عربية من الوجهة الحربية انما هي نعمة كبرى لنا وقت السلم ـ تلك هي فقدان روح التضامن بين مختلف الحركات السياسية العربية . ان مشكلة التنافس بين الزعماء في كل من سوريا وبلاد الرفدين والجزيرة العربية ومصر جعلت من العسير علينا ان نعرف الجهة التي نبدأ التعامل معها . كانت هنالك محاولات فاشلة للتعاون مع السيد طالب (النقيب) ومع عزيز المصري قبل ان يستقر امرنا على ان نركز التعاون مع شريف مكة . تم انتخاب شريف مكة في نهاية الامر بسبب الانشقاق الذي يستطيع ان يحدثه في الامة الاسلامية ولأن موقعه الجغرافي يمنحه فرصة كبيرة في البقاء ولان منزلته الكبيرة بين العرب تعتمد على المكانة العالية وهي اعتبار لا يمكن التعرض له رغم كونه اعتباطيا واستبداديا .

بدأت المفاوضات بين الشريف والسير هنري مكماهون الذي خولته الحكومة البريطانية ان يعقد مع الشريف اتفاقا يضعه في جانبنا . ولسوء الحظ لم يكن السير هندي مطلعا على اتفاقية سايكس بيكو التي كانت انذاك موقع الاختبار . ولم يخطر للشريف اننا كنا نريده مجرد رئيس صوري ، فقد كان في جميع مراسلاته يتكلم بصفته الوصي على امر العرب ـ يقصد بذلك كل من يتكلم اللغة العربية ممن هم تحت الحكم التركي .

لم يحالفه الحظ في جولته الاولى في الثورة على الاتراك ولم تتحسن فرصته في النجاح عندما تم استبدال السير هنري مكماهون بالسير ارجيبالد موري ومستشاريه كل من السير ريجنالد ونكت والكولونيل بريموند . ومع ذلك تمكن في نهاية الامر ان يضم الى صفوفه جميع بلاد العرب اعتبارا من مكة

وشمالا حتى احتلال العقبة من قبل فيصل في آب/ اغسطس ١٩١٧ ، عندما وصلت العمليات العسكرية الشريفية الى ختامها .

تولى الآن فيصل عن والده (الذي شاخ بسرعة) مهمة تحرير البلاد السورية . كانت منزلته التي مكنته من تحقيق ذلك هي كونه احد زعماء الجمعية الثورية السورية . كان فيصل قد بقي على صلة مستمرة في سوريا غير المحررة ، يعاملهم كزملاء . وشكل فيصل جيشا من السوريين والعراقيين لتنفيذ عملياته واعاد الى الحجاز جميع جنوده سكان الجزيرة العربية . ويجدر بي اذكر ان عدد الحجازيين الذي اشتركوا في الدخول الى دمشق كان ثمانية فقط .

لم يكن بمستطاع فيصل ان يستقل بعملياته العسكرية ، فجعل من نفسه تابعا للجنرال اللنبي وقائدا عاما حليفا له . واتمنى لو اننا عندما سنقتسم الغنائم لن نهبط الى مستوى ا لتعامل التجاري في تحديد حصص الشركاء من القطعات البريطانية او الفرنسية او الهندية او العربية او اليهودية او الارمنية . ان التحالف مع العرب مكن القائد العام البريطاني ان يزج بقطعات في مطاردة الاتراك من يافا الى حلب في اراض معادية لنا اسما الا انها في حقيقة الامر موالية لنا . قامت هذه القطعات بعملية المطاردة دون تأمين خطوط مواصلاتها او اتخاذ تدابير الحيطة والحذر الاعتيادية ، كل ذلك بفضل تحالفنا مع العرب . لذلك غير الجنرال اللنبي السياسة القديمة تجاه العرب وصار يساعدهم بكل ما يستطيع من المادة والرجال والرأي . فله يعود الفضل في تقدمهم السريع .

انتهت الآن المهمة العسكرية للعائلة الحاكمة في مكة . ولا يستطيع احد ان يتشكك في شجاعة الملك الحسين الذين انضم الى صفوفنا بعد سقوط مدينة الكوت ، رغم نصيحة فيصل بأن لا يفعل ، ورغم ما شاهده بنفسه من المصير الذي أحاق باصدقائنا الصغار الاخرين . كما ان من السهل ادراك مقدار

المحنة اخلاقية التي ابتليت بها اقدم العوائل العربية واقواها واكثرها قدسية (بين اناس يقدسون اكثر من غيرهم قيم المعتقد واصالة النسب) عندما رجع الى التخلي عن الاصدقاء والمخلصين الذين لازموهن طيلة حياتهم والى ان تكون عرضة لشتائم لا حد لها من مسلمي الهند وتركيا وافغانستان ومصر ، بسبب دفاعهم عن حريتهم القومية . ويجب ان يسجل للامراء الاربعة ما تعرضوا له من اخطار ومعاناة اثناء المعارك الصعبة التي خاضوها في السنوات ١٩١٦ و١٩١٧ و١٩١٨ . ان الاخلاص الذي ابداه الملك واولاده لحلفائهم ولما تعهدوا لهم به يجب ان يكون مثالا ساطعا عن ماهية القوة التي اقنعتهم باعلان الثورة في الوقت الذي كانت مستعدة لأن تسملهم للاتراك مقابل شروط بخسة ، وهو لا يدري بذلك ، وتسلم معه جميع الناس الذين وقف مدافعا عنهم ، وهم الذين رفضوا عروضا متكررة من الاتراك بمنحهم الحكم الذاتي في الجزيرة العربية مرة ، ومرى اخرى الاستقلال للجزيرة والحكم الذاتي لسوريا ومرة ثالثة سلطة الخلافة والاستقلال في الجزيرة والحكم الذاتي لجميع بلاد العرب الاخرى .

النوايا الحالية للحكومة العربية

أ) ينوي الرجل العجوز في مكة ان يكون الزعيم بلا منازع في بلاد العرب ، ويقصد بذلك ارض شبه الجزيرة . ولو كان لديه ما يكفي من الصبر لأصبح كما يريد تدريجيا بفعل عامل الزمن ومناسك الحج . غير انه لما كان يتميز بالحماقة فمن الافضل لو صاحبه احد ابناءه في مكة في القريب العاجل . اما في اليمن فليس للشريف مقاصد محدودة وواضحة . وقد جرت اتصالات بينه وبين ابن رشيد واهل الكويت . اما في نجد فليس من العسير ايجاد حل للموقف الناتج عن الخلاف غير المباشر بين

سلطات الهند والسلطت البريطانية في مصر حول ابن سعود والادريسي .
لقد حول الادريسي ان يطعم العقيدة المثالية لبلاد العرب بعناصر من اطقوس البدائية الافريقية ال انه فشل في ذلك ، ويمكن اعتبار قضية اختفائه عن مسرح الاحداث مسألة بضع سنوات من الزمن . اما ابن سعود فهو يحاول الآن ان يحد من قوة النهضة الدينية المتزمتة التي اخذت تصبح اقوى مما يتحمل . فاذا انساق معها وهاجم الاماكن المقدسة فسيتكفل المسلمون الراشدون بأمره كما تكلفوا اسلافه . اما اذا تمكن من السيطرة على هذه الحركة فسيبقى اميرا لنجد بعد ان يكون الفشل في عملياته العسكرية قد انذره بأن يعترف بشريف مكة كزعيم له - اعتقد ان ابن سعود يحمل لنا شعورا بالصداقة وبأنه الوحيد الذي يقف هذا الموقف في سلطنته .

اود ان اشير الى ان خبرة السنوات الاربع الماضية قد بينت عدم صواب فكرة ان نترك بلاد العرب تحت سيطرة واحدة او اكثر من السلطات الحاكمة حاليا في القاهرة او بغداد او دمشق او سملا (الهند) . لقد كانت نظرتنا للامور قصيرة الامد ان لم تكن ضيقة الافق .

ب) تعتبر الحركة العربية في سوريا مهمة في الحقيقة لان الاصل فيها ان نمنع سيطرة اي قوة في القارة الاوروبية من السيطرة على قوتها البشرية او الفوائد الاستراتيجية لذلك البلد . ولهذا الغرض بالذات فان العرب يحتاجون الى الحصول على حقوق مساوية لحقوق اي قوة غاخرى في كل من خليج الاسكندرونة والخط الساحلي من الاسكندرونة الى طرابلس وفي ميناء طرابلس والخط الحديدي بينها وبين حمص وفي منطقة البقاع من حمص حتى بحيرة الحولة ، وان يكون لهم منفذ الى ميناء حيفا وجميع الارض شرق هذا الخط ونهر الاردن . وفضلا عن ذلك ينبغي ان

يكون فيصيل متمتعا بالسيادة ضمن منطقته وان يكون لديه مطلق الحرية في اختيار ما يشاء من المستشارين الاجانب ومن اي بلد يرتأيه . ويجب ان يكون هؤلاء المستشارون جزءا من الحكومة العربية يستمدون صلاحياتهم التنفيذية منها وليس من حكوماتهم . وقد يكون من الممكن ان يضمن اعتراف العرب بالديون التركة مقابل نصيب عادل في الواردات الكمركية لكل من مينائي بيروت وحيفا . واخيرا فان فيصل لن يعتبر نفسه ملزما بأي اتفاقية هو طرفا فيها .

ج) وفي فلسطين يأمل العرب ان يبقى البريطانيون مسيطرون على المناطق التي احتلوها . انهم لن يوافقوا على اي استقلال يهودي لفلسطين لكنهم سيوافقون جهد امكانهم على ما يمكن من التسرب اليهودي اليها . على ان يتم ذلك وراء واجهة بريطانية وليس واجهة عالمية . واذا ما جرت اية محاولة لتنفيذ عملية السيطرة العالمية التي اقترحت في اتفاقية سايكس ـ بيكو فان فيصل سيطالب بالحاح بحق تقرير المصير للفلسطينيين ويقدم التأييد المعنوي لفلاحي فلسطين ويقاوم عملية مصادرة املاكهم .

د) وفي العراق ينتظر العرب ان يحافظ البريطانيون على سيطرتهم هناك . ويأمل الشريف ان تكون في العراق ادارة عربية اسمية ، استنادا الى ما اتفاق عليه معنا .

هـ) اما في منطقة الجزيرة فهناك جماعات نشيطة من القوميين العرب الا انهم في منطقة ذات موقع جغرافي غير ملائم ، الا اذا تم اقناع قسم من الاكراد الرحل والمستوطنين بالتعاون مع الحكومة المحلية التي يراد تكوينها هناك .

اود ان اقترح بان تبقى المنطقتان (د) و(هـ) منفصلتان الواحدة عن الاخرى على الاقل من الناحية الادارية . ان مشاكل العراق تتعلق بتنفيذ

المشاريع العمرانية الكبرى والزراعية المتطورة . بينما تتعلق مشاكل الجزيرة بوجود الكثير من القرويين الجبليين المشاغبين والقبائل نصف المتوطنة يحتما ان تظهر القضية الكردية بشكل اكبر كثيرا واصعب مما ظهرت عليه القضية الارمنية .

اذا ما سمح لممثلي الامم الصغيرة بحضور مؤتمر السلام فيحتمل ان ترتفع الاصوات مطالبة بحق تقرير المصير وسينظر بارتياب شديد الى الاتفاقات شبه السرية التي ابرمت سابقا بين القوى الكبرى . ولهذا السبب اقترح عدم اصدر اية نسخة ثانية من معاهدة سايكس بيكو . ان التفاصيل الجغرافية غير المعقولة لهذه الاتفاقية ستكون مثار سخرية ويكون انذاك من الاولى بنا ان نوفر على انفسنا من الجهود في هذا الباب . واذا لم نفعل ذلك فعلينا على الاقل ان نعترف بكون العرب احد اطراف النزاع بصورة رسمية وان نعتبرهم طرفا في اي قرار يتخذ بشأن المنطقة التي احتلوها بأنفسهم .

الكولونيل تي . ئي . لورنس

لورنس يكتب عن العراق وفيصل وثورة العشرين

بعد ان غادر لورنس الارض العربية مقيما في لندن لم يدع للخمول الفكري ان ينتاب عقله الجبار فظل محتفظا بوفائه للملك فيصل مدافعا عنه وعن العراق وثورة العشرين التي اندلعت على عهد (ولسن) الذي اتهمه لورنس بعدم الكفاءة والمقدرة على تحمل اعباء وظيفته بصفته نائبا عن الحاكم الملكي العام السير برسي كوكس لقد نشر لورنس مقالات عن اوضاع العراق حلل فيها ما جناها الانكليز من احتلاله فكانت كتاباته على مستوى المسؤولية والاهمية معا مما جعلنا لاعادة نشرها لاطلع الرأي العام العربي على

ما كان يجول بفكر لورنس من توقعات لاحداث جسيمة عاش احداثها مع اصدقائه العرب .

لقد عبر أحد * اعضاء مجلس العموم من خلال المناقشات التي جرت هذا الاسبوع في موضوع الشرق الاوسط ، عن استغرابه من اشهار عرب العراق السلاح في وجهنا ، برغم انتدابنا الذي يؤمل منه الخير لهم . وتردد صدى استغرابه في الصحافة هنا وهناك ، ويبدو لي ان هذا الاستغراب قد بني على اعتقاد خاطئ بشأن اسيا الجديدة وتاريخ السنوات الخمس الاخيرة ، بحيث وددت ان اتجاوز في الايخر على اعمدة جريدتكم فأقدم فيها تفسيري للحالة هناك .

لقد ثار العرب ضد الترك خلال الحرب لا لان الحكومة التركية كانت حكومة سيئة بصورة خاصة ، لكنهم ثاروا لانهم يريدون الاستقلال . ولم يجازفوا بحياتهم ويستبدلون سيداً بآخر ، فيصبحون مواطنين بريطانيين او موطنين فرنسيين ، ولكن ليحصلوا على حكم مستقل لهم وسواء أكانوا اهلا للاستقلال او غير اهل له فذلك يترك للتجربة . فليست الاهلية هي التي تقررر منح الحرية للناس ، لان الحرية يتمتع بها الان البلغاريون والافغان واهالي تاهيتي . انما يتمتع الناس بالحرية حينما يكونوا مسلحين تسليحا جيدا ، او متمردين ، او ساكنين في بلاد وعرة بدرجة تجعل النفقات التي يصرفها الجار في احتلالها اكثر من النفقات التي يجنيها منها . وقد كانت حكومةج فييصل غير سورية مستقلة تمام الاستقلال منذ سنتين ، فحافظت على الامن والمصالح العامة في بلادها .

ولم تتح للعراق الا فرصة اقل من هذه ليبرهن فيها على مقدار تسلحه . فهو لم يحارب الاتراك مطلقا ، بل قاتل ضدنا قتالا يخلو من الحماسة . وعلى

ذا ما كان علينا ان نشكل فيه ادارة تلائم ظروف الحرب ، ولم يكن امامنا غير ا الاختيار . لكن هذا حصل قبل سنتين ، ولم تغير الاحوال فيه الى ما تتضيه روف السلم حتى الآن وليست هناك في الحقيقة اية علامة تدل على ذا التغيير وانما ترسل الان «امدادات كبيرة» على ما يقول التصريح الرسمي سيصبح عدد افراد الحامية عددا فيه ستة اضعاف في الشهر القادم . كما ميرتفع الخط البياني للنفقات الى خمسين مليون باوند في السنة المالية هذه ، مع هذا سيتطلب الامر مزيدا من الجهود كلما تصاعدت رغبة العراقيين في لاستقلال .

فليس من المستغرب اذن ان ينفذ صبرهم بعد سنتني . فقد كانت لحكومة التي شكلناها انكليزية في اطارها ، وهي تدار باللغة الانكليزية . لذلك يعمل فيها الآن ويسيرها (٤٥٠) ضابطا تنفيذيا بريطانيا ، من دون ان كون معهم ولا مسؤول عراقي واحد . اما في ايام الترك فقد كان سبعون بالمائة ن العاملين في الخدمة المدنية من اهل البلاد . ويتولى الثمانون الف جندي عائدون لنا واجبات بوليسية هناك ، وليس واجبات حماية الحدود . فهم تولون قمع السكان انفسهم . فقد كان ستون بالمائة من ضباط الفيلقين اللذين كانا موودين في العراق على عهد الاتراك من العرب ، و٩٥٪ من سائر لراتب . ولا شك ان هذا الحرمان من امتياز السهام في ادارة البلاد والدفاع نها شيء يثير حنق المتعلمين العراقيين . فمن الصحيح اننا سببنا تزايد لازدهار في البلاد ، ولكن من هو الذي يهتم بهذا بينما تكون الحرية في كفة الاخرى من الميزان؟ لقد انتظروا انتدابا ورحبوا باخباره لانهم كانوا ظنون انه يعني حكما ذاتيا لانفسهم من نوع «الدومينيون» اما الان فقد خذوا يفقدون الامل في نوايانا الحسنة .

فما هو العلاج؟ لا استطيع ان ارى علاجا ما الا في القيام باجراء تغيير عاجل في سياستنا . حيث ان وضع المنطق الحالي يبدو خاطئا برمته . فلماذا يتحتم على الانكليز (او الهنود) ان يقتلوا ليصنعوا الحكومة العربية في العراق ، وهو ما تنطوي عليه نية حكومة صاحب الجلالة الموقرة؟ اني اؤيد هذه النية ، لكنني رى ان يقوم العرب انفسهم بذلك . ان بوسعهم ان يفعلوا هذا . فقد دلتني خبرتي القليلة في المساعدة على تشكيل حكومة فيصل على ان فن الحكم يفتقر الى الاخلاق اكثر مما يفتقر الى ادمغة .

ولو اتيحت لي الفرصة لجعلت العربية لغة الحكومة . فان هذا من شأنه ان يحتم تنقيص عدد الموظفين البريطانيين ، ويستدعي العودة الى استخدام العرب المؤهلين . ولجندت فرقتين من المتطوعين المحليين ، العرب كلهم ، من قائد الفرقة االقدم الى الجندي البسيط . (ان الضباط المدربين ونواب الضباط المدربين يتسير وجودهم بالآلاف) . لأعهد الى هاتين الوحدتين الجديدتين بالمحافظة على الامن والنظام ، وادعو كل جندي بريطاني ، وكل جندي هندي ، الى مغادرة البلاد . وستستغرق هذه التغيرات اثني عشر شهرا ، وعند ذاك يمكننا ان نتمسك بشيء من العراق قد ما نتمسك به الآن من جنوب افريقيا او كندا . وفي هذه الحالة اعتقد ان ولاء العرب سيكون بقدر ولاء اي فرد من افراد الامبراطورية البريطانية ، ومن دون ان يكلفونا سنتا واحدا .

وسيقال لي عند ذاك ان فكرة الدومينيونات السمراء في الامبراطورية البريطانية هي شيء غريب . وعلى هذا فان مشروع مونتيغيو ، ومشروع ميلنر يقاربان هذه الفكرة ويبدو ان البديل الوحيد لها هو الاحتلال الذي لا يريده الرجل الانكليزي الاعتيادي ، ولا قبل له به .

والعراق بطبيعة الحال فيه نفط ، لكننا لا نكون اقرب اليه بينما يبقى

الشرق الاوسط في الحرب ، واعتقد ان النفط اذا كان بمثل هذه الاهمية لنا فمن الممكن ان يكون موضع مساومة بين الطرفين . والعرب على ما يبدو يريدون سفك دماءهم من اجل الحرية ، وسيفعلون اكثر من ذلك من اجل النفط .

مقالة لورنس الاولى

هناك احساس في انكلترا بأن الاحتلال الفرنسي لدمشق ، وخلع الملك فيصل من العرش الذي اصفاه له السوريون المعترفون بالجميل ، هو على كل حال مردود ضعيف لما قدمه فيصل الينا اثناء الحرب ، وان فكرة التقصير في الكرم مع صديق شرقي لتترك طعما كريها في افواهنا . فقد جعلت شجاعة فيصل ومقدرته في الحكم ثورة مكة تنتشر الى خارج نطاق المدينتين المقدستين حتى اصبحت عونا فعالا للحلفاء في فلسطين . وتوسع الجيش العربي ، المشكل في الميدان من كونه حشدا من البدو الى كتلة منظمة من الجيش المسلح تسليحا جيدا . وقد اسر هذا الجيش خمسة وثلاثين الف اسير تركي ، وعطل عن العمل ما يعادل هذا العدد ، واستولى على مئة وخمسين مدفعا ، ثم احتل مئة الف ميل مربع من البلاد العثمانية . فكان هذا خدمة جلى في وقت حاجتنا البالغة ، وقد شعرنا بأننا مدينون للعرب بمكافأة ، ولفيصل قائدهم بمكافأة مضاعفة ، للطريقة المفعمة بالولاء التي كان ينظم بها النشاط العربي الرئيس في اية جهة يوجهه اليها اللنبي وفي اي وقت كان .

ومع هذا فنحن غير محقين حقيقة بأن ننتقد الفرنسيين . فقد اقتدوا بصورة متواضعة جدا ، خلال عملهم في سورية ، بالقدوة التي وضعناها لهم في العراق . فان بريطانيا تسيطر على تسعة اعشار العالم العربي ، وهي لا بد من ان تدق النغمة التي ترقص فرنسا عليها في بقاعها . فاذا اتبعنا سياسة

عربية نحن فعلى الفرنسيين ان يتبعوا سياسة مثلها . واذا ما قاتلنا العرب فانهم يجب ان يقاتلوهم ايضا ، وليس من اللياقة بشيء ان نعمد الى لومهم بشأن معركة تقع على مقربة من دمشق وابطال المحاولة السورية في الحكم الذاتي ، بينما نخوض نحن معركة بالقرب من بغداد ، ونحاول جعل العراقيين غير قادرين على الحكم الذاتي بسحق اي رأس يرتفع بينهم .

فقد طلب الى رئيس ادارتنا في بغداد قبل بضعة اسابيع ان يقابل بعض الوجهاء العرب ، وقد ارادوا ان يعرضوا عليه قضيتهم في المطالبة بالحكم الذاتي الجزئي . لكنه حشر مع المندوبين عددا من مرشحيه هو نفسه ، وقال لهم في معرض الرد عليهم بأنهم سوف لا يصلحون لتولي المسؤولية الا بعد مرور مدة طويلة من الزمن . وكانت كلمات جريئة ، لكن عبأها كان شديد الوطأة على رجال مانشستر في الحلة هذا الاسبوع .

ان مثل هذه الثورات تسير في طريق منتظم عادة . فهناك نجاح عربي في اول الامر يعقبه خروج امدادات بريطانية على شكل قوة تأديبية . وتقاتل هذه القوة لتشق طريقها الى بغيتها (وتكون خسائرنا طفيفة وخسائر العرب فادحة) التي تقصف في الوقت نفسه بالمدفعية والطائرات ، او السفن المسلحة . وقد تحرق في الاخير قرية من القرى وتهدأ المنطقة . وقصف البيوت هو طريقة مألوفة في تشريد النساء والاطفال ، كمنا ان مشاتنا يتعرضون على الدوام الى الخسائر حينما يجندلون رجال العرب ومقاتليهم . اما الهجمات بالغاز السام الخانق فيمكن ان يمحى بواسطتها سكان المناطق المزعجة من الوجود جميعهم . ولا تقل هذه الوسيلة من وسائل الحكم في منافاتها للمروءة والاخلاق عن الوسيلة الحالية .

نحن نقدر عبء التكاليف التي يكلفها وجود الجيش في العراق للخزانة

الامبراطورية ، لكننا لا نرى بمثل هذا المقدار من الوضوح العبء الذي يتكلف به العراق نفسه بوجود هذا الجيش فيه . فالجيش يجبُ ان يطعم ، ويجب ان تطعم معه جميع حيواناته . ويبلغ عدد القوات المقاتلة الآن ثلاثة وثمانين الف جندي ، لكن قوات الجراية تحسب لثلاثة مائة الف رجل . فهناك ثلاثة عمال لكل جندي ، يجهزونه ويخدمونه . لذلك فان واحد من عشرة من نفوس العراق اليوم يتبع لجيشنا . وهؤلاء يأكلون الان خضرة البلاد ويلتهمونها ، ولما تصل العملية الى اوجها بعد . ولأجل ان يضمن المسؤولون سلامتهم يطالبون بأن نضاعف حاميتنا الموجودة هناك . ولما كانت الموارد المحلية قد نضب معينها فان الجيوش ستزيد تكاليفها باكثر من الزيادة المنطوية في السلسلة الحسابية .

اضف الى ذلك ان عمل هذه الجيوش يقتصر على الاعمال البوليسية لقمع الرعايا الذين قيل لمجلس اللوردات قبل اسبوعي بانهم يتشوقون لبقائنا المستمر في بلادهم . وليس بوسع احد ان يتصور ما ستكون عليه حالتنا هناك لو هاجمنا من الخارج جار من جيران العراق احسودين الثلاثة (وكلهم يرسمون الخطط ضدنا) ، بينما لا يزال عدم الولاء موجودا في الداخل ، يضاف الى هذا ان خطوط مواصلاتنا سيئة جدا ، ومواقعنا الدفاعية جميعها مكشوفة الاجنحة ، وقد حدث حادثان من جرائها على ما يبدو . ونحن لا نثق بجنودنا كمنا كمنا نفعل ايام الحرب .

وهناك بعد هذا الاشغال العسكرية . فقد كان لابد من ان تبنى ثكنات ومعسكرات عظيمة ، مع مئات الاميال من الطرق العسكرية . وقد شيدت في الاماكن التالية ، حيث تكون واسطة النقل الوحيدة حيوانات الحمل ، جسور كبيرة تتحمل عبور سيارات الحمل عليها . لكن هذه الجسور مصنوعة من مواد وقتية تصبح تكاليف صيانتها جسيمة . وهي غير مفيدة للحكومة المدنية ،

التي سيتحتم عليها بعد هذا ان تتملكها باقيام باهظة ، وبذلك تبدأ الدولة الجديدة بدين اجباري .

ومع هذا فان رجال الدولة الانكليز ، من رئيس الوزراء يذرفون الدمع الآن بشأن العبء الملقى على عاتقنا في العراق . فيقول اللورد كيرزن «لو كان بوسعنا فقط ان نجند جيشا محليا لكنهم لا يريدون الخدمة في الجندية» . (ولا شك ان اللورد قد اضاف الى ذلك قوله بنفسه «الا الخدمة ضدنا نحن») . ويقول متمنيا كذلك «لو كان بوسعنا فقط ان نجد عربا مؤهلين لاشغال المناصب التنفيذية» .

وفي هذا القحط في المواهب المحلية ، يعد المثل الذي ضربه الحكم العربي في سوريا شيئا ينير لنا السبيل في هذا الشأن . فلم يجد فيصل صعوبة في انشاء الجيش ، مع انه لاقى صعوبة جمة في دفع الرواتب المطلوبة له . على ان الظروف لم تكن مماثلة لانه كان قد حرم من استيفاء رسومه الكمركية بصورة اعتباطية . ولم يجد فيصل صعوبة كذلك في تشكيل الادارة الحكومية ، وكانت الشخصيات الخمس البارزة فيها من اهل بغداد كلهم . ولم تكمن هذه ادارة جيدة جدا ، لكن الناس في الشرق يكونون اقل من الحاحا في المطاليب . فلم يعطي صولون للناس حتى في اثينة احسن القوانين ، لكنه قدم لهم احسن منا يتقبلونه .

والبريطانيون في العراق لا يستطيعون ايجاد ولا شخص كفء واحد ـ لكنني اقول ان تاريخ الاشهر القليلة الاخيرة قد اظهر الاسهم السياسي ، ولذلك فان وجهة نظرهم يجب ان لا يكون لها وزن عندنا مطلقا فاني اعرف عشرة موظفين بريطانيين ذوي سمعة مشرفة مجربة في السودان ، وسيناء ، والجزيرة العربية ، وفلسطين ، يستطيع جميعهم او كل فرد منهم ان يشكل

حكومة عربية في بغداد تضاهي حكومة فيصل في الشام خلال الشهر القادم . وسوف لا تكون هذه ايضا كاملة من جميع الوجوه ، لكمنها ستكون احسن من حكومة فيصل على كل حال لان المسكين قد حرم الاستفادة من المستشارين الاجانب بقصد افشاله . اما الجهد الذي يبذل في العراق فستكون الحكومة البريطانية من ورائه ، وستكون ادارته لو سلمت الى رجل مقتدر بمثابة لعبة طفل ذا ما ادارها كمنا كانت تدار في مصر في عهد كرومر ، وليس في ايام الوصاية . فلم يسيطر كرومر على مصر لان بريطانيا كانت تمده بالقوة ، او لان مصر كانت تحبنا او لاي سبب خارجي اخر ، بل انه كان رجلا طيبا . ولدى انكلترا اكداس من رجال الصنف الاول ، واخر ما يحتاجه المرء هنا (اي في العراق) الرجل العبقري . لكن المطلوب اليوم هو تقويض ما كنا قد فعلناه حتى الآن والبدء من جديد على اسس استشارية ، فليس من المفيد في شيء ترقيع الجهاز الحالي اما «التنازلات لشعور المحلي» وما اشبه مثل هذا الهراء فهي ليست سوى تنازلات ضعف ، او دوافع الى المزيد من العنف . فنحن كبار بدرجة تسمح لنا ان نعترف بالخطأ وان نقلب صفحة جديدة وعلينا ان نفعل هذا فرحين لانه سيوفر لنا مليون باون استرليني في كل اسبوع .

مقالة لورنس الثانية

العـــراق

كان الشعب الانكليزي قد استدرج في العراق الى شرك سيكون من الصعب عليه التخلص منه وهو موفور الكرامة والشرف . فقد تم التحايل عليه بحجب الاخبار عنه حجبا مطردا . اذ كانت بلاغات بغداد الرسمية تأتي متأخرة ، غير كاملة ومنطوية على الكثير من النفاق وعدم الاخلاص . ولذلك كانت الاحوال اسوأ بكثير مما كان ينقل لنا عنها ، كما كانت ادارتنا اشد ميلا

الى سفك الدماء واكثر عجزاً مما يعرفه الجمهور بشأنها . وهذا عار على سجلنا الامبراطوري ، وقد يلتهب الحال في اي لحظة بحيث يستعصي على الحل الاعتيادي . فنحن اليوم غير بعيدين عن الكارثة .

والذنب فيما يجري هو ذنب السلطات البريطانية في العراق (ولا سيما الكولونيلية الثلاثة) التي منحتها لندن حرية التصرف في العمل فليست هناك وزارة خاصة تشرف على عملها ، وانما يأتي الاشراف عليها من الفراغ الفاضي الذي يحجز بين وزارة الخارجية ووزارة الهند . وقد استفادوا من حرية التصرف وهي تمنح في زمن الحرب عادة ، للتمتع بالاستقلال المخطر في زمن السلم . وهم يخالفون كل اقتراح له صلة بالحكم الذاتي الحقيقي يبعث به اليهم من الوطن . فما حدث اخيرا ان بيانا يخص الحكم الذاتي في العراق حرر وطبع في بغداد على عجل ، ثم وزع ونشر بحماسة زائفة ، لاحباط بيان اخر على جانب اكبر من التحرر كان يعد في لندن . وكانت «وثائق الحكم الذاتي» الصادرة في انكلترا تنهتك في العراق خلال سنة ١٩١٩ بضغط من الجهات الرسمية فيه ، وبارهاب الناس بالطيارات ونفي الزعماء الى الهند .

والوزارة هنا لا تستطيع التنصل من المسؤولية جميعها . فهي تتلقى انباء اكثر من الجمهور ، وكانت تسوق قافلة بعد اخرى من الامدادات العسكرية من دون تساؤل او تحقيق ، وحينما ساءت الاحوال لدرجة لم يعد في الامكان تحملها قررت ان تنتدب الى هناك المنشىء ا لاصلي للنظام الحالي بصفة مندوب سامي ، مع رسالة ترضية للعرب تنص على ان قلبه وسياسته قد تبدلا معا تبدلا تاما .

ومع كل هذا لم تتبدل سياستنا ، وما كانت بحاجة الى ذلك فقد كان هناك تفاوت يبعث على الاسى بين مهمتنا وبين ما يطبق منها . حيث اننا

قلنا اننا ذهبنا الى العراق لدحر تركية ، ثم قلنا اننا بقينا فيه لننقذ العرب من تعسف الحكومة التركية وظلمها ، ونسير للعالم ما فيه من حبوب ونفط . فاستخدمنا حوالي مليون شخص ، والف مليون من العملة ، تقريبا لهذه الاغراض . ونحن نستخدم في هذه السنة اثنين وتسعين الف رجل ، وخمسين مليونا من العملة ، للاغراض نفسها .

وتعد حكومتنا هناك اسوأ من جهاز الحكم التركي القديم . فقد كان الاتراك يحتفظون باربعة عشر الف جندي محلي ، وكانوا يقتلون حوالي مئتي عربي في السنة للمحافظة على السلم في البلاد . اما نحن فنحتفظ الان بتسعين الف رجل مع اطيارات والسيارات المصفحة والزوارق المسلحة والقطارات المدرعة وقد قتلنا حوالي عشرة الاف عربي في الثورة خلال هذا الصيف . ولا يسعنا ان نؤمل في الاستمرار على هذا المعدل فانها بلاد فقيرة . ونفوسها متناثرة غير كثيفة ، لكن السلطان عبدالحميد لو كان حيا لصفق لأسياده على ما يفعلونه الآن في هذا الشأن . لقد قيل لنا ان هدف الثورة كان هدفا سياسيا ، لكننا لم نخبر بما يريده سكان البلاد . فقد يكون ما يطلبونه هو ما كانت الوزارة قد وعدتهم به نفسه . لقد قال احد الوزراء في مجلس اللوردات اننا يجب ان نهيئ عددا ما من الجنود لان اهالي البلاد لا يريدون الانخراط في الجندية . بينما اعلنت الحكومة يوم الجمعة عن موت بعض الشبانة من ابناء العراق وهم يدافعون عن ضباطهم البريطانيون ، ثم قالت ان خدمات اولئك الرجال لم يعترف بها اعترافا تاما بعد لانهم قليلو العدد . فهناك سبعة الاف مجند منهم ، اي بقدر نصف قوة الاحتلال التركية القديمة تماما ولو عهد بهؤلاء الى عدد مناسب من الضباط الاكفاء ، ووزعوا كما ينبغي يمكننا ان نستغني عن نصف جيشنا المرابط هناك . فقد سيطر كرومر على ستة

ملايين من المصريين بخمسة الاف جندي بريطاني ، بينما يعجز الكولونيل ولسن عن السيطرة على ثلاثة ملايين عراقي وتسعين الف جندي .

ولم نصل بعد الى الحد الذي ننفذ فيه التزاماتنا العسكرية . فقد رفعت هيئة الاركان في العراق قبل اربعة اسابيع مذكرة تطلب فيها اربع فرق اخرى . واعتقد ان المذكرة ارسلت الى وزارة الحرب ، فبعثت الان بثلاث الوية من الهند . واذ كان ليس من الممكن تجريد الحدود الشمالية الغربية اكثر من هذا هناك ، فمن اين سيمكن تدبير الفرق يا ترى؟ ويقوم جنودنا المنكودو الحظ من بريطانيين وهنود ، في نفس الوقت ، باعمال بوليسية تمتد خلال مساحة واسعة من البلاد ، في احوال جوية وتجهيزية صعبة تكبدهم غاليا بالارواح كل يوم في سبيل السياسة الخاطئة بالتقصد ، التي تسير عليها الادارة المدنية في بغدا . لقد اعفي الجنرال داير من قيادته في الهند لخطأ اصغر من هذا بكثير ، لكن المسؤولية لا تقع في هذه الحالة على الجيش الذي لم يفعل ما فعل الا بطلب من السلطات المدنية وبذلت وزارة الحرب كل جهد للتقليل من قواتنا هناك ، لكن قرارات مجلس الوزراء كانت ضدها .

وقد كانت الحكومة في بغداد تشنق العرب من اهلها لاسباب سياسية سموها الثورة لكن العرب ليسوا ثوارا ضدنا وانما هم ما يزالون رعايا اتراك بالاسم ، وما زالوا في حالة حرب معنا . فهل يقصد بتنفيذ احكام الاعدام غير القانونية هذه ان يحرض العرب على الاقتصاص من الثلاث مئة اسير بريطاني الموجودين في حوزتهم؟ واذا كان الامر كذلك ، فهل المقصود ان يكون الاقتصاص اشد قساوة ، او ان يقنع جنودنا الاخرين بالقتال الى اخر رمق عندهم؟

نحن نقول اننا نعمل في العراق لتطويرهم وتقدمه من اجل منفعة

العالم . لكن جميع الخبراء يقولون ان تهيئة العمال هو العامل المتحكم في تطويره . فالى اي مدى سيؤثر قتل عشرة الاف قروي ومدني في هذا الصيف على انتاج القمح والقطن والنفط وعرقلته يا ترى؟ والى متى سنستمر في السماح بتضحية ملايين الباونات ، والاف الجنود الامبراطوريين ، وعشرات الالاف من العرب ، من اجل شكل من اشكال الادارة الاستعمارية التي لا تستطيع افادة اي احد سوى العاملين فيها؟

تي . اي . لورنس

الهوامش

١) Philip Graves صحفي بريطاني كتب عدة مؤلفات عن رجال السياسة الانكليز منهم السير برسي كوكس وعن لورنس واخرون وله اطلاع واسع في الشؤون العربية بصورة خاصة .

٢) سجلات وزارة الخارجية البريطانية Fo, 882/13 .

٣) جريدة صوت العراق العدد ٦٠ السنة الاولى ١٩٢٩/١١/١٥ .

٤) الجدير بالذكر ان لورنس اصبح من اصدقاء مولود مخلص وهو يصفه بما يلي طويل القامة جميل المنظر ذا همة ونشاط ويمتاز بمشيته البديعة وتظهر عليه دلائل المهابة على الاخص عندما تتطلع الى رزسه وكتفه وكانت شجاعته النادرة ومباهاته بنفسه من الاسباب التي جعلته معبود محببيه ومريديه (الثورة العربية بقلم لورنس ص ٢٢) .

٥) انظر يقظة العرب جورج انطونيوس ، ترجمة د . ناصر الاسد ود . عباس احسان .

٦) نفس المصدر صفحة ٤٤١ .

٧) يقصد وزارة المستعمرات التي عهدت الى تشرشل وانظم لورنس اليها .

٨) مجلة العروبة السورية ، العدد الخامس ، ايار ١٩٤٧ ، صفحة ٦٢ .

٩) عبدالرحمن بن صالح شهبندر طبيب من اهالي دمشق مات والده وعمره ست سنوات فربته امه وتخرج من الجامعة الامريكية في بيروت طبيبا سنة ١٩١٤ وكان ممن دخل في جمعية الاتحاد والترقي بعد اعلان الدستور العثماني ولما اتجهت سياستها الى تتريك العرب كان من اوائل العاملين

في الثورة العربية وشغل منصب وزير خارجية الملك فيصل في الشام قتل في عيادته عام ١٩٤٠ ودفن الى جانب ياسين الهاشمي في مقبرة صلاح الدين الايوبي في الجامع الاموي الكبير وكانت ولادته عام ١٨٨٢ .

١٠) امين الريحاني ، فيصل الاول ، ط ٢ ص ٢٣٨ .

١١) منشورات دار الافاق ، صفحة ٣٣٤ اعمدة الحكمة السبعة .

١٢) مذكرات سندرسن باشا ، ترجمة سليم طه التكريتي ، ط ٢ ، ص ١٠٩ .

١٣) امين سعيد ، الثورة العربية الكبرى ، ط ١ ، ص ١٩٧ .

١٤) تحسين قدري ضابط عراقي عمل بخدمة الملك فيصل الاول اثناء الثورة العربية الكبرى وعمل في معيته بصفته (مرافق عسكري) حتى قدومه الى بغداد واشتهر في الخدمة بالقصر الملكي وشغل منصب مدير التشريفات الملكية عند قيام ثورة الرابع عشر من تموز التي كان اثناء قيامها في سويسرا وظل هناك حتى اوائل الثمانينات حيث عاد الى العراق ومات فيها .

١٥) مختارات من رسائل لورنس ، ترجمة الدكتور عبدالمنعم الناصر ، ص ٧٩-٨٠ .

١٦) رسائل لورنس ، ترجمة الدكتور عبدالمنعم الناصر ، ص ٨٢/٨٣ .

١٧) نفس المصدر ، ص ٨٤-٨٥-٨٦ .

* بتاريخ ٢٢ تموز ١٩٢٠ ، ترجم نقلاً عن رسائله المجموعة في

The Letters of T.E. Lawrence, Edited by David Garnett, London 1938.

Sir Percy Cox
1864-1937

(ان السير برسي كوكس له اربعون اذناً ولسان واحد)

السير برسي كوكس سياسي وعسكري بريطاني معروف التحق بالجيش البريطاني في عام ١٨٨٤ وانضم الى ادارة حكومة الهند عام ١٨٨٩ وتدرج في المناصب حتى أمسى وزيرا للخارجية في حكومة الهند عام ١٩١٤ التي كانت تشرف على مصالح بريطانيا في الخليج العربي وبعد اندلاع الحرب العالمية الاولى عين كوكس مستشارا سياسيا للحملة البريطانية التي توجهت اولا الى البحرين استعدادا لغزو العراق وبدأت طلائعها في الفاو بتاريخ ٦ تشرين الثاني عام ١٩١٤ وانتهت باعلان الهدنة للحرب العالمية الاولى في تشرين الثاني ١٩١٨ وبعد احتلال بغداد في اذار ١٩١٧ صدر الامر بتعيين كوكس حاكما سياسيا في العراق ولم تمض الا فترة قصيرة حتى نقل الى طهران سفيرا لبلاده هناك وحل محله وكيله العقيد Arnold Wilson وكالة في عهد ولسن اندلعت ثورة العشرين فثبت فشل ولسن في معالجة امور الثورة والقائمين بها مما ادى الى خسائر جمة تكبدتها الحكومة البريطانية في المال والارواح وعلى اثر ذلك تم اقصاء ولسن واعادة السير برسي الى العراق مندوبا ساميا فيه في محاولة لاعادة العمل على اسس جديدة والقيام باعباء تأسيس حكومة وطنية فيه تحت المظلة البريطانية .

كان ولسن خليفة كوكس قد طلب من حكومته اصدار بيان رسمي بعودة السير برسي الى العراقي في القريب العاجل واقترح ان يمضي برسي بضعة ايام في بغداد عند عودته الى بغداد قبل ان يتسلم مقاليد الامور رسميا بصفته

المندوب السامي الجديد في العراق وذلك للاتصال برؤساء العشائر وزعماء البلاد والتداول معهم في المسائل الدستورية واضاف ولسن في برقية الى لندن ان عودة كوكس الى العراق كما ذكرت من قبل سيساعد كثيرا بلا شك على عودة الثقة التامة الى النفوس التي كانت اصلا قد تزعزعت كثيرا .

قرار لندن بعودة كوكس الى العراق

اقتضت مصلحة بريطانيا ان يعود السير برسي الى العراق بعد ان غاب عنه مدة تقارب السنتين والنصف وقد تم ابراق الخبر بذلك الى ولسن لاعلامه بقرارها بعودة كوكس الى العراق .

ما يلي [١] من وزارة المستعمرات ـ لندن

الى وكيل الحاكم السياسي ولسن ـ بغداد

ان الاعتبارات التي اهتدت بها حكومة صاحب الجلالة بقرارها بوجوب عودة السير برسي الى العراق ليدشن العهد الجديد لا شك انكم تقدرونها اشد التقدير فان حكومة صاحب الجلالة تعتبر من المناسب بصورة خاصة ان الرجل الذي وضع الاسس الاولى للادارة الحديثة المؤقتة يجب ان يتولى ايضا الاشراف عليمراحل البناء الاخيرة .

بعد ان عاد كوكس الى العراق لخص الوضع السائد فيه الى وزارة الهند بالبرقية التالية :

(انني متردد في التعبير عن رأي واثق بعد زيارة مستعجلة اعقبت غيابا طويلا عن العراق ان الوضع صعب جدا من دون شك وليس من السهل على المرء ان ينظر الى ابعد من بضعة اسابيع غير ان المطلب الملح العاجل هو ابقاء الوضع تحت السيطرة والحيلولة خلال الثلاثة او الاربعة اشهر القادمة دون وقوع

انفجار في المناطق واتخاذ اجراءات من شأنها ان تجلب المعتدلين الى العمل المكشوف اى جانبنا في الوقت نفسه مع منعهم عن الاشتغال مع المتطرفين في عمل مشترك . ولتحقيق ذلك الغرض من الضروري ان نعطي لهم مادة للمناقشة واثبات ان امانينا الدستورية هي شيء حقيقي لازيف فيه ومن المؤمل ان يتهيأ هذا بمناقشة قانون الانتداب فاذا لم يكن هذا كافيا (ويبدو ان هناك ميلا الى محاولة رفض الانتداب) واذا كانت حكومة صاحب الجلالة راغبة جدا في تجنب هذه الوسيلة فيكون بديلها ان يوعد اهل البلاد بزيارة للتحقيق في الخريف القادم يقوم بها وزير من وزراء الدولة او لجنة تتولى العمل نيابة عنه . والمتطرفون في الوقت الحاضر هم اقلية في العدد لكن جمع العناصر الساقطة الرجعية تتجمع الى الانضمام اليهم واذا لم يكمن ايقاف هذه العناصر عند حدها بصورة مؤقتة باجراءات استرضائية وظهر منها امارات القيام باضطراب فلا مناص من قمعه في المهد بالاجراءات القمعية الممكنة وسوف نبذل جميع الجهود لتجنب هذا في بغداد نفسها لكنه يكون ضروريا في الانتهاء ايضا) .

وصول كوكس الى العراق

وصل السير برسي كوكس الى العراق في يوم الاثنين المصادف ١٩٢٠/٩/٢٠ الى محطة غربي بغداد وقد خف الى استقباله عدد من اشراف بغداد واعضاء القيادة العسكرية وقناصل الدول ورجال الدين وبعد تقديم اعيان العاصمة اليه القى في حضوره شاعر العراق الفيلسوف خطابا بليغا رحب به بعودته بعد غياب طويل فرد عليه السير برسي باللغة العربية شاكرا وهذا هو نص خطاب[٢] الزهاوي الترحيبي بالسير برسي كوكس ورد المندوب السامي عليه .

استهل الزهاوي خطابه بالبيتين التاليين :

عـد للعـراق واصـلح منـه مـا فـسـدا
واثبـت بـه العـدل وامنـح اهـله الرغـدا
الشـعب فيـه عليـك اليـوم مـعـتـمـد
فيمـا يكـون كـمـا قـد كـان معتمـدا

وبعد الترحيب قال . . انما جئت في ايام الحاجة اليك فخذ يا طبيب الامم بيد لعراق وجس نبضه لتعلم درجة اضطراب قلبه الخافق من حمى الثورة فتسعفه من سلسيل سياستك كأسا تعيد اليه ما فقده من الصحة وتخفف آلامه فقد زال ايها الاب المثقف بعدك الأمن الذي وطدته في العراق واخذت الفتن والاضطرابات والمخاوف يا للأسف تحل محله انني ايها المندوب الجليل اؤكد لحضرتكم ان لقلاقل التي ثار ثأرها في الاطراف لم تحدث الا من سوء التفاهم وان المفكرين من الامة قد ذموها فاذا علم الناس من منشوراتك عليهم فيما بعد بنيات الحكومة العادلة تسابقوا الى السلم وعرض الولاء الذي كانوا يظهرونه في سنوات الاحتلال السابقة ثم انهى قوله هاتفا فليحيا المندوب السامي السير برسي كوكس الافخم ولتتحقق امال الشعوب .

ولقد رد السير برسي بالعربية قائلا : يا جميل افندي ويا ايها المندوبون ان دولة انكلترا قد ارسلتني للاتفاق مع الاشراف ورؤساء العراق ومساعدتهم لتحصل على الغاية المطلوبة للعراقيين وتؤلف الحكومة العربية المستقلة تحت نظارة دولة انكلترا ولقد جئتكم بهذا المقصد ولكنه ما زال الاغتشاش مستمرا طبعا لا يمكن العمل وانا حاضر عندما تحصل الفرصة وهذا الشيء بيدكم .

منشور السير برسي للعراقيين

اصدر اسير برسي منشورا للعراقيين يؤكد فيه من جديد ما عزم العمل

بمقتضاه في خطابه الاول عند وصوله بغداد وقد ورد في الخطاب محاولة ذكية من قبل السير برسي للتمهيد الى انشاء حكومة عربية في العراق . هذا وقد نشرت جريدة العراق بعددها الصادر بتريخ ١٩٢٠/١١/٢٦ نص الخطاب المذكور :

(ان نائب الملك السير برسي كوكس يعلن لجميع افراد العشائر والطوائف في العراق بان حكومة بريطانيا العظمى قد ارسلته لتنفيذ مقاصد الحكومة البريطانية الثابتة بمساعدة رؤساء الامة وتشكيل حكومة وطظنية في العراق بنظارة حكومة بريطانيا ولقد يصعب جدا على فخامته تنفيذ رغائب الحكومة البريطانية وما زالت بعض اقسام العشائر والطوائف في العراق تعادي الحكومة . ويظهر من الاحوال الحاضرة ان هناك بعض طبقات الامة تخامرها الشكوك في نيات الحكومة البريطانية . ويعتقد فخامته ان بامكانه ازالة كل شك وريبة خامرت افكار الذين قابلوه حتى الآن ، ولا يعلم فخامته غرض العشائر الذين يشغلون انفسهم في الحرب فاذا كان هناك سوء نية مفهومة يمكن ازالتها فيسر فخامته ان يبلغ العشائر ذلك اليه بواسطة اقرب حاكم سياسي) .

في الايام الاولى لوصول برسي كوكس الى العراق اخذ يعمل بجدية مسألة اعادة النظر في التشكيل الاداري لغرض الهيمنة على العراق بصورة غير مباشرة فقد ا فلح في اقناع النقيب بتشكيل الوزارة النقيبية الاولى حتى يبرهن انه نفذ وعدا كان قد قطعه على نفسه عند وصوله الى بغداد ولاعطاء صورة للعراقيين ان في بلادهم حكومة لها مقوماتها ولكن تحت اشراف مستشارين انكليز . عمل كوكس ليل نهار على تشكيل حكومة برئاسة النقيب وفعلا فقد نجح في مسعاه وتم تشكيل الوزارة على الشكل التالي :

في ١٩٢٠/١٠/٢٧

١ - عبدالرحمن النقيب للرئاسة
٢ - طالب النقيب للداخلية
٣ - ساسون حسقيل للمالية (٣)
٤ - جعفر العسكري للدفع
٥ - عبداللطيف المنديل للتجارة
٦ - محمد مهدي الطباطبائي للمعارف
٧ - عزت الكركوكلي للاشغال العما
٨ - محمد علي فاضل للاوقاف

اضافة الى مجموعة من وزراء الدولة .

مساعي كوكس لترشيح الأمير فيصل ملكاً

بعد ان عاد السير برسي كوكس من مؤتمر القاهرة الذي قرر فيه بصورة قاطعة ترشيح فيصل ليكون ملكاً على العراق ازداد قلقه عندما وجد ان بغداد تملأها الاشاعات والاقاويل من ان السيد طالب النقيب يسعى لترشيح نفسه ملكا على العراق وكان طالب قد استغل مركزه باعتباره وزيرا للداخلية في وزارة النقيب كما انه ارتاح لموقف مستشار الداخلية البريطاني السيد فلبسي Mr. T. Phlibi . على هذا الاساس ازداد قلق كوكس من هذا الذي يمر امام عينيه وخشي وهو محق في ذلك ان تفسد الخطة التي وضعها مؤتمر القاهرة بترشيح فيصل ملكاً على العراق . وقد فكر السير برسي في خطة تجميد الوزراء العراقيين مؤقتاً لاحلال محلهم مستشاروهم الانكليز وبذلك تتاح له الفرصة بازاحة طالب النقيب عن مركز سلطته في وزارة الداخلية ولكن قبل اختمار هذه الفكرة في مخيلة كوكس قام طالب النقيب بفضح

مخططاته امام الانكليز دون اي تحفظ حيث وقف في مأدبة اقامهـا السيد يرسـفـال لاندن Mr. Yorsifal Landon مندوب جـريدة الديلي تلغـراف في ١٩٢١/٤/١٦ فخطب في تلك المأدبة ويقول اذا لم تتوقف السلطات البريطانية من التدخل في شؤن العراقيين والسماح لنا بانتخاب من نريد فعندي كل من امير ربيعة وسالم الخيون وهما على ما يعلم الناس لهما من الاتباع اكثر من عشرين الف مقاتل كما ان السيد رئيس الوزراء سوف لا يقدر من ارسال رسائل شكوى الى الهند واستانبول وباريس .

واسرع المستر تود Mr. Tood الذي كان حاضرا المأدبة لينقل الخبر الى المس بيل التي بدورها بادرت فورا باعلام السير برسي بما سمعته واتفقت معه على خطة اعتقل فيها طالب النقيب بعد دعوة شاي وجهها اليه السير برسي .

وبعد اعتقال السيد طالب النقيب اصدر السير برسي كوكس بوصفه الحاكم البيان التالي :

(ان فخامة المندوب السامي لا يخامره ادنى شك في استقامة مقاصد عظمة النقيب استقامة تامة ولكن فخامته يرى انه والحالة هذه اذ بدا اقل تسامح في امر التفوه بكلام لينم عن تهديد شائن باشهار السلاح في وجه حكومة جلالة الملك ويصدر من رجل كالسيد طالب باشا النقيب الذي يشغل منصب خطير في الدولة يكون مقصرا ليقوم بواجبه نحو سكان هذه البلاد ولا لحكومة البريطانية فبناء على ما تقدم وحبا لمصلحة القانون والنظام والحكومة الصالحة رأى فخامته ان يطلب من القائد العام ان يتخذ التدابير اللازمة لابعاد السيد طالب حالا وقد غادر السيد طالب بغداد مساء هذا اليوم السادس عشر من شهر نيسان الحالي .

فيليبي ضد ترشيح فيصل وكوكس يحتضنه

كان جون فيليبي الذي عمل مستشارا لوزير الداخلية في وزارة النقيب الاولى من المعارضين لترشيح فيصل ملكا على العراق وعند قدوم الملك فيصل الى بغداد من البصرة بواسطة القطار كان فيليبي برفقته وعند مرور قطار فيصل بالمدن العراقية رأى انه لم يلق ما كان يأمله من استقبال يليق به كمرشح للعرش فالتف الى المستر فيليبي وطلب منه معاونته بالطلب الى الموظفين الانكليز الاداريين لاقناع الاهالي في دعم ترشيح فيصل لعرش العراق على اساس ان الترشيح المذكور جاء بناء على طلب الحكومة البريطانية وبموافقتها . ولقد صدم فيصل عندما تلقى جوابا قاسيا من فيليبي حيث اعلمه انه في حالة رغبته في كسب اصوات الاهالي لدعم ترشيحه فان الامل سيكون ضعيفا حيث ان الانتخابات ستكون حرة . لم يرتح فيصل مما سمعه من فيليبي فقصد مسرعا الى السير برسي كوكس يشكو فيليبي ويعرف عن ارتيابه بموقفه خشية ان عيطل خطة تتويجه وتساءل فيصل لماذا لا تومئ الحكومة البريطانية الى الشعب بانتخابه؟ لم يكن كوكش مرتاحا الى موقف المستر فيليبي لا سيما بعد ان اشتد الخلاف بينه وبين المس بيل حول اسناد الامير فيصل ودعمه فسارع السير برسي كوكس حسما للخلاف القائم بينه وبين المس بيل المؤيدة للامير والمستر فيليبي المعارض لامر تتويجه باعفاء السيد فيليبي من منصبه فورا وكان ذلك في الخامس من شهر تموز ١٩٢١ اي قبل حفلة تتويج فيصل بستة اسابيع ولقد ورد في بيان كوكس ما يلي :

(ان الحكومة البريطانية كانت دائما ولا تزال ترى ان افضل طريقة للقيام بعهودها وواجباتها هي مساعدة اهالي دولة عربية صادقة تكون بغداد عاصمة لها . اما حكومة جلالة الملك نفسها فترى ان افضل انواع الادارات للعراق

هو حكومة دستورية برئاسة ـ حاكم ـ مقبول لدى اهالي البلاد على ان حكومة جلالة املك ترغاب ان تبين بوضوح كما سبق فبينت تكرارا بأن ليس لها من قصد او رغبة ما في اكراه العب على قبول وازع معين ، بل الامر بالعكس فانها ترغب في وجود الحرية التامة في الاختيار وابداء الرأي . ومع ذلك فان الحكومة البريطانية بصفتها الدولة التي تحملت مصاريف طائلة في العراق اثناء سبع سنوات الاخيرة لا يمكنها ان تقف موقف عدم الاكتراث امام هذه المسألة فلها الثقة بأن الشعب العراقي سيستعمل الحكمة والحرية في اختيار الوازع .

وهنا اورد ان اشير بايجاز الى قدوم سمو الامير فيصل الى العراق فأقول ان موقف حكومة جلالة الملك في هذا الصدد هو كما يأتي :

ان عائلة الشريف هي العائلة التي نشرت اللواء العربي في صف الحلفاء اثناء الحرب التي لعبت دورا ذات شأن في ربحها وان القضية التي من اجلها دخلت في صفوف المحاربين كانت قضية حرية العرب يعني عين القضية التي تعهدت بريطاني العظمى بمظاهرتها ونجاحها في العراق . فبناء على ذلك عندما سأل انصار عائلة الشريف في العراق عن موقف الحكومة البريطانية ازاء عدوتهم للامير فيصل ليأتي العراق أجبنا على ذلك بأن حكومة الملك لن تضع عثرة في سبيل ترشيح سمو الامير لعرش العراق . واذا وقع عليه انتخاب الشعب سيلقى تأييد بريطانيا العظمى .

فبناء على ذلك بينما وزير الدولة ـ المستر تشرشل يورد رغبته في ان يستعمل اهالي العراق الحرية والاختيار يرى ان ليس هناك من سبب للامتناع عن ان يبين بوضوح بأن حكومة جلالة الملاك تعتبر ان الامير فيصل هو مرشح موافق لا بل حقا اوفق مرشح في الميدان ونرجو ان ينال معاضدة اكثرية

الشعب العراقي واذا تم انتخاب الامير فيصل فتعتقد حكومة جلالة الملك ان يكون قد وصل بذلك الى حل ينطوي على اكبر الامال في مستقبل سعيد مقبل لهذه البلاد ان حكومة جلالة الملك تعلم انه قد بحث في حلول اخرى غير ممكنة منها اولا تأسيس جمهورية وثانيا عرض امير تركي اما فيما يخص الاول فمن رأي حكومة جلالة الملك ان درجة العراق من الرقي غير موافقة قطعيا لتأسيس جمهورية واما فيما يخص عرض امير تركي فهذا حل ليست الحكومة مستعدة (افساح المجال له) .

كوكس يوعز لنقيب اشراف بغداد للعمل على ترشيح فيصل

اوعز السير برسي كوكس الى رئيس الوزراء نقيب اشراف بغداد لن يتخذ ما يراه مناسبا للاعراب عن تأييده المطلق في ترشيح فيصل والمناداة به ملكا على العراق ونفذ النقيب الشيخ ما امره به المندوب السامي البريطاني فأقام في ١٩٢١/٧/٨ اي قبل حفلة التتويج بأيام قليلة مأدبة كبرى على شرف فيصل حضرها الكثير من وجوه العاصمة من انكليز وعراقيين ووقف شاعر العراق معروف الرصافي فألقى كلمة بالمناسبة ابتدأها بالابيات الشعرية التالية :

مـــد النقـــــيب للامـــير   يـــد المصافحـــة والنصـــــير
فليخـــــز كـــل ُمشـــاغب   فـــي القـــوم يلهـــج بالشرور
وليحيـــا مولانـــا النقيـــب   وحيـــاة مـــولانا الامـــــير

أجل ايها السادة ماذا يريد القوم بعد اقتران هذين النيرين الكبيرين حيث طلعا بالوفاق متعانقين باسماء العراقيين متصافحين على ضفاف الرافدين .

وبعد الحصول على تأييد نقيب اشراف بغداد على ترشيح فيصل طلب السير برسي من مجلس الوزراء العراقي عقد اجتماعا يعلن فيه صراحة عن

مناداة بفيصل ملكا على العراق تم ذلك ١٩٢١/٧/١١ على ان تكون حكومة جلالته حكومة دستورية ديمقراطية مقيدة بدستور وقد عقدت اجتماعات شعبية في مختلف مراكز المدن تلا فيها (متصرف كل لواء) محافظ كل محافظة قرار مجلس الوزراء العراقي القاضي بالمناداة بفيصل ابن الحسين ملكا على العراق وكان من اهم تلك الاجتماعات ما حصل في يوم ١٩٢١/٧/٢٩ في بغدا حيث عقد اجتماعا في سينما رويال لمناداة بالامير فيصل ملكا على العراق . وقد ألقى متصرف لواء بغداد حينه السيد رشيد الخوجة خطابا بليغا ثم قرأ بيان مجلس الوزراء القاضي بمناداة فيصل ملكا على العراق وبعد ان تمت عملية التصويت العام واتخذت الاجراءات اللازمة لتتويج الامير فيصل قرر المندوب السامي بالاتفاق مع نقيب اشراف بغدا ان يحدد يوم ٢٣ من شهر اب ١٩٢١ ليكون يوم التتويج ولكن المندوب السامي السير برسي استلم في منصتف شهر اب في العام ١٩٢١ ليكون يوم التتويج ولكن المندوب السامي السير برسي استلم في منتصف شهر اب في العام ١٩٢١ اي قبل حفلة تتويج فيصل برقية من وزارة المستعمرات البريطانية تخبره فيها بوجوب ان يتضمن خطاب التتويج على ان السلطة النهائية هي في يد المندوب السامي . ولقد اطلع فيصل على ذلك بعد ان اطلع المندوب السامي على مضمون البرقية وقال لبرسي ان المحادثات التي سبق له وان عقدها مع السير ونستون تشرشل كانت على اساس عقد معاهدة تحل محل الانتداب وتحفظ كرمته كملك مرتبط بحلف مع بريطانيا . وازاء هذا الموقف الطارئ ابرق السير برسي الى لندن محذرا من ان تأثيرا سيئا سيتركه مثل هذا التصريح في يوم التتويج وبعد ايام قليلة مشوبة بالقلق وردت برقية من لندن تتضمن عدول رأيها عما سبقت وان اقترحته(٤) .

برسي كوكس مع فيصل بعد التتويج

بعد الانتهاء من تتويج فيصل ملكا على العراق بدأت المرحلة الثانية من علاقة كوكس بصاحب العرش . وكان لسوء الطالع ان حصل الصدام الاول بين الاثنين في العام ١٩٢٢ بعد مرور عام واحد على تسلم فيصل عرش العراق ففي الذكرى الاولى للجلوس على العرش قامت الاحتفالات وتوجه زعماء المعارضة مع بعضه مؤيديهم والمنتسبين الى احزابهم توجه الجميع الى بناية (٥) البلاط وهناك ألقى الشيخ محمد مهدي البصير باعتباره ممثلا عن الحزب الوطني خطابا احتج فيه مماطلة السلطات البريطانية في موضوع اجراء الانتخابات التأسيسية مما يتناقض مع سيادة الاستقلال الوطني ثم اعقبه ممثل حزب النهضة واعرب عن عدم موافقة سياسة الحزب على الاوضاع الراهنة التي تمر به البلاد لقد صادف اثناء الموقف الخطابي ان مر المندوب السامي البريطاني من بين المحتجين وه في طريقه الى صاحب العرش لرفع التهنئة بمناسبة يوم التتويج وبينما كمان يرتقي درجات السلم اذ هتف هاتف ليسقط الانتداب وكان السيد فهمي المدرس قد خف الى موضع المتجمهرين ليعلن لهم شكر الملك على قدومهم ومشاركتهم الاحتفال بوصفه رئيسا للتشريفات الملكية غير ان السيد المدرس وهو كبير الامناء في القصر اهتزت مشاعره لما وجده من روح التعلق في حياة الاستقلال والدفاع عن الوطن فألقى فيهم خطابا وطنيا رائعا زادهم فيه حماسا فبلغت هتافاتهم عنان السماء واعيدت اناشيدهم مرات متتاليات فأغاظ هذا المنظر المندوب السامي وامتعض منه اشد امتعاض فاعتبر هذا الموقف اهانة شخصية موجهة اليه وعمل من ساعته لوضع حد لمثل تلك التحركات التي تعرقل المساعي التي يبذلها من جانبه للتوقيع على معاهدة الصداقة الاولى بين العراق وبريطانيا . وبعد ان عاد الى

مكتبه في دائرة الاعتماد اسرع فوجه الكتاب التالي الى البلاط الملكي :

سعادة رئيس الديوان الملكي المحترم :

نرجوكم ان تخبروا جلالة الملك ان فخامة المندوب السامي يحتج بعنف ضد ما لاقاه من المعاملة في الوقت الذي كان يمثل فيه حكومة بريطانيا العظمى ماراً بغرفة الاستقبال ليؤدي مراسم التبريكات وان فخامته اخبر لندن بهذا الموضوع ويطلب ان يعتذر اليه وعزل فهمي افندي المدرس اذا كان هو المسؤول رسميا ويطلب فخامته بيانا عن الاجراءات التي تولى جلالة الملك اتخاذها تجاه الخطيبين اللذين حضرا امام الملك وقاما بالقاء خطب مهيجة .

نائب سكرتير المندوب السامي

جانـين بيـرس

J. Birs

وقد رد بلاط فيصل على كتاب المندوب السامي بالكتاب التالي :

عزيز المستر بيرس

اخذت كتابكم المؤرخ ٢٤ اوكست ١٩٢٢ وقد عرضته على انظار جلالة الملك وان كانت صحته غير ملائمة فقد تأثر جلالته كثيرا من الحادثة التي اشرت اليها وقد امرني حالا لارجو منكم ان تخبروا فخامة المندوب السامي اسف جلالته العظيم وان جلالته سيعمل كما هو لازم ويصلح الحادثة حسب رغبات المندوب السامي ويرجو جلالته ان لا يبقى اثرا لتلك الحادثة التي لم توجه اليه شخصيا .

رستم حيدر

لم تمض على حادثة المندوب السامي المشار اليها سوى اياما معدودات

حتى حصل تصادم ثان مع الملك فيصل ويصف امين الريحاني التصادم الثاني بين الاثنين في كتابه فيصل الاول[٦] بما يلي :

في صباح اليوم التالي لعيد الجلوس ، عندما كان الملك فيصل محاطا بالاطباء والممرضات وقد اعدوا المباضع والادوات للجراحة . وصل المندوب السامي السير برسي كوكس واخرج من جيبه امرا قدمه للملك ليوقعه هو امر باعتقال سبعة من الزعماء الوطنيين ونفيهم من العراق . قرأه الملك مكمودا وهز رأسه فأفصح السير برسي عما يبرر العمل فما أجاب الملك بكلمة . ولكن احد الاطباء الانكليز تقدم وخاطبه قائلا :

ليس هذا الوقت يا حضرة المندوب لمثل هذه المسائل .

السير برسي : المسألة ضرورية لحفظ الامن ان البلاد في خطر .

الطبيب : اجلها الى ان تتم الجراحة . وهي الزم لحياة جلالة الملك فيجب ان نباشر حالا .

الملك والامر بيده ـ يخاطب السير برسي (بعد دقائق قليلة اكون بين يدي هؤلاء الاطباء وقد لا اعود من غيبوبتي الى الحياة فهل تطلب مني يا سير برسي ان يكون هذا الامر اخر اعمالي في الدنيا . هل تنتظر مني ان انفي هؤلاء الناس اهل البلاد من بلادهم قبل موتي لا والله انه غير ممكن غير ممكن) .

قال هذا ودفع الامر الى المندوب السامي فوضعه في جيبه وخرج من القاعة دون ان يفوه بكلمة واحدة .

الريحاني يكتب عن فيصل وكوكس وبيل

ورد في كتاب امين الريحاني (فيصل الاول)[٧] عن علاقة الثلاثي

فيصل وكوكس وبيل ما يلي ، قال الريحاني :

كان لفيصيل تلك الشخصية الساحرة التي قلّ ممن عرفوه من لم يعترف بها اجل انه لقليل من الناس من لا تستولي عليهم مثل السجايا التي زانت فيصلا وتجلت في ملامحه ومجالسه ومن هذا القليل المندوب السامي السير برسي كوكس ذلك الانكليزي الوقح في ما بدا من نفسه وفي ما صفا من خلقه لقد كان يحترم فيصلا ويجله ولكنه كان يوصد باب قلبه ونوافذه كلها في مجلس الملك وفي احاديثه فلا يدع لسحره نخروبا يدخل منه .

وقد ظل النزاع بينه وبين فيصل نزاعا سياسيا صرفا فترك السحر والانفعالات الروحية للمس بيل تنعش بها النفس في ساعات قيظها . وترصع بها الرسائل الى امها وكان السير برسي يقيم بينه وبين المس بيل في الساعات الحرجة جدارا من المنطق الصافي الصلب الصقيل كالرخام . فلا يدعها تتغلب عليه بما سرى الى قلبها دون العقل او بما تغلغل في القلب وما فيه من اثار لفعل غير الخيال فالنزاع اذن هو سياسي ولكنه في اسبابه الشخصية يشمل الطباع والتقاليد النفسية والقومية .

يكلمة اخرى ان النزاع في المعاهدة بين فيصل والسير برسي كوكس هو نزاع بين روح عاقلة وبين عقل لا روح له .

عندما أمسى كوكس مسلماً لمدة دقيقتين

هنا اعتراف كامل من قبل فيصل بالتشاور مع كوكس في كل صغيرة وكبيرة تقع في ارجاء مملكته الواسعة الكبيرة هنا يعترف فيصل بانه رغم كونه ملكا على البلاد فلا يحق له اختيار وزرائه من دون موافقة المندوب السامي البريطاني او على الاقل المشاورة معه في تعيين اي وزير في الوزارة لاشغاله

الحقيبة الوزارية . ولقد تحدث فيصل بنفسه وبكل صراحة عن هذا الامر لضيفه امين الريحاني حيث اورد الريحاني ما جـــاء على لسان الملك في كتابه عنه .

كان جلالته صافي المزاج تلك الليلة متألق الروح فرفع السدارة عن رأسه ووضعها على الطاولة وقال اسمع يا أمين سأقص عليك قصة مضحكة ولكن ليس لامتحانك لا والله كنما بعد الجلوس الاول انا والسير برسي كوكس منشغلين في تأليف الوزارة الاولى فعينا كل الوزراء الا واحد حرنا في امره . بقي عندنا بضعة اشخاص من المستوزرين وليس فيهم من يمتاز عن الاخر بشيء محمد ـ محمود ـ احمد ـ حمدي ـ كلهم واحد من منهم نعين يا حضرة المندوب من منهم نعين يا جلالة الملك حرنا والله في امرنا ثم خطر لي خاطر فقلت للمندوب عندي اقتراح وقد يضحكك كن مسلما لدقيقتين وتوكل على الله تعال نعمل يانصيب على الوزارة الاخيرة وهذا ما كان . كتبنا الاسماء على وريقات ووضعناها في علبة هززتها بيدي قائلا للمندوب قل معي توكلنا على الله ثم سحبنا الورقة الاولى وفتحناها وكان صاحبها الوزير وزير اليانصيب .

ولما كان الشيء بالشيء يذكر فلا بد لنا من ان نذكر ما كان للسير برسي تداخل وفرض الامر على الملك تعين رئيس الوزراء الجديد وهذا ما حصل فعلا عندما اصر المندوب السامي السير برسي على ان يعاد تعيين النقيب لتشكيل وزارته الثالثة ويشكل الحكومة الجديدة وقبل صدور الارادة الملكية بتكلييف النقيب لرئاسة الوزارة اطلع الوزراء المرشحون لشغل الحقائب الوزارية بواسطة دار الاعتماد على الخطة التي ستسير عليها الحكومة البريطانية في توجيه دفة الحكم وتم ذلك عن طريق كتاب غير رسمي بعثه المندوب السامي

السير برسي كوكس الى الملك فيصل لو القينا نظرة على المراسلات بين دار الاعتماد والبلاط الملكي نجد ان برسي كوكس اثناء تواجده بالعراق لم يترك محورا من محاور السياسة العراقية دون الاطلاع عليه ومن ثم محاولة التأثير على مضمونه لا بل حتى وان اقتضى الامر الايعاز بعدم رغبة دار الاعتماد بنشره او اعتماده من قبل حكومة العراق من جهة اخرى وكما مرّ بنا لم يكن باستطاعة فيصل ان يأمر بشيء ما لم يأخذ بنظر الاعتبار وجهة النظر البريطانية وقد عللت دار الاعتماد البريطاني التدخل السافر في امور العراق كون الموظفين الاداريين العراقيين وفي مقدمتهم الوزراء الذين وصفوا بانهم مهما بلغوا من الرأي الصائب فانهم لم يصلوا الى المستوى المطلوب في امكانية اقتدارهم لادارة شؤون وزاراتهم وعليه فقد تم تعيين المستشارين الانكليز لكل وزير منهم .

في يوم التاسع عشر من شهر كانون الثاني ١٩٢٣ غادر السير برسي كوكس متوجها الى لندن وعاد في الثالث والعشرين من شهر اذار من العام نفسه حاملا معه مسودة بروتوكول المعاهدة العراقية البريطانية المنقحة والتيتتضمن مفاهيم عامة جديدة في محتواها وموادها وبعد اطلاع الملك فيصل عليها خول رئيس وزرائه عبدالمحسن السعدون صلاحية التوقيع عليها بصفته مندوبا عن الملك .

فيصل القلق ببيل المطمئنة وكوكس الحليف

عندما وصل فيصل الى بغداد قادما من البصرة كانت حالته النفسية متعبة جدا فهو ما زال غير مطمئن على مصيره وهو في بلاد يدخلها لاول مرة وان كان العراقيون قد طلبوا من والده ترشيحه ملكا على العراق ولقد شعرت المس بيل في ذلك وكتبت ذلك في مذكراتها عن الملك المرشح ما يلي :

(٣٠ حزيران ١٩٢١) بعد ان صافحت فيصلا في محطة القطار وقفت اتكلم مع المستر كورنواليس وكان قد جاء بصحبته فقال لي ان الامور لم تكن على ما يرام فقد كان المستقبلين له يقفون على مسافة بعيدة وكان الحكام السياسيون فوق كل ذلك منكمشين واسوأهم في هذا الشأن المستر فيليبي ولحسن الحظ اضطر ان ينزل في الحلة لحمى المت به وفي صبيحة اليوم التالي مررت وانا في طريقي الى دائرتي بالسراي حيث كان يقيم فيصل فتركت له بطاقتي لكن الامير شاء ان يستبقيني .

جلسنا الى الاريكة فأفضى الي بشكوكه لكنني ارحته منها وطمأنته ان السير برسي كوكس في جانبه تماما . وتضيف المس بيل قائلة عندما كان فيصل منهمكا في جمع الاتباع الذين كانوا يقومون بزيارتي للاخذ بمشورتي حول مبايعتهم لفيصل كنت اقول لهم ان السير برسي كوكس والملك فيصل يعملان يدا بيد واعجب كيف انهم يقتنعون تماما حين يعلمون ان السير برسي هو الذي يصادق على كل شيء انه يمسك بالبلاد مسكا قويا فوق العادة كدلالة قاطعة على مدى احتضان كوكس لفيصل انه امر المستر فيليبي الذي كان ضد فكرة ترشيح فيصل لعرش العراق ان يسلم منصبه الى المستر (طومسن) Mr. Tomson حيث قال له شكرا يا فيليبي اني اسف لتعذر عملك معنا ومساعدتنا ويعلق المستر فيليبي بنفسه على مقابلته لكوكس بقوله (تبادلت الحديث مع كوكس عمن سيخلفني تم القرار اخيرا على تعيين تومسن مساعد مستشار وزارة المالية وخرجت من مكتب المندوب السامي لاسلمه مهام منصبه فورا وقبل المساء جاءت المس بيل لتقول لي (جاك اني اسفة لسماع هذه الانباء) فردت زوجتي عليها بضراوة وقالت كلا لست آسفة وعندما خرجت زوجتي من الغرفة طيبت خاطر المس بيل وذكرتها بأيام صداقتنا القديمة . كان المستر فيليبي يعادي بشكل سافر ترشيح فيصل ملكاً

على العراق بل كان من المؤيدين لترشيح طالب النقيب[٩] لهذا العرش ولهذا وقف موقفا سلبيا تجاه فيصل ويؤكد على ذلك السيد طالب النقيب نفسه المنازع القوي لترشيح فيصل على عرش العراق فلقد ايد دور فيليبي السلبي من ترشيح فييصل على عرش العراق فقال موجها كلاه الى السيد سليمان فيضي (ان المستر فيليبي في جانبي وقد تعهد لي ببذل اعظم الجهود انه وعدني باقناع السير برسي كوكس الذي ما يزال مترددا في الملك الجديد ويحمل المس بيل على التخفيف من تحمسها للامير فيصل ثم ان المستر فيليبي كتب الى الحكام السياسيين في الاولوية يوصيهم على بذل المساع في هذا الموضوع) .

ويروي علي جودت الايوبي وهو من رجال فيصل الاوائل اثناء الثورة العراقي الكبرى ما لاقاه الامير فيصل من جفاء المستر فيليبي الذي استقبله من ميناء البصرة بوجه عبوس حيث ان الايوبي نفسه كان من ضمن حاشية الامير فيصل القادمين من البصرة الى بغداد قال الايوبي (ان فيليبي كان يكن للامير فيصل حقدا دفينا ويشير الى الحوار الذي حصل بين الامير فيصل وبين (برترام توماس) معاون المفتش الاداري في الحلة والذي كان على الشكل التالي :

توماس موجها كلامه الى فيصل : ليش جنابك قدم الى العراق

فيصل : ولماذا تسألني

توماس : لان الاهالي لا يريدونك

فيصل : لماذا تريد ان تتدخل بيني و بين الاهالي

توماس : حتى اخبرك

فيصل : لست بحاجة الى اخبارك وسوف ترى ما اذا كانوا يريدونني ام لا .

عندما نودي بكوكس ملكاً على العراق

بلغ تعلق بعض الفصائل العراقية بشخصية المندوب السامي البريطاني السير بيرسي كوكس مبلغا مبالغا فيه الى درجة ما ومن هذه المبالغات طلب بعض تلك الفصائل ان يتوج بيرسي ملكا على العراق بدلا من فيصل ويروي السيد علي البازركان في كتابه الحقائق الناصعة بهذا الشأن هذه الحقائق (ان في بغداد كمن في غيرها من المدن العراقية من كان يود ان يبقى الانكليز في العراق وان يكون السير بيرسي ملكا متوجها عليه ولا زلت اذكر يوم ذهابي الى جانب الكرخ وشاهدني السيد قاسم الخضيري في رأس الجسر من جانب الكرخ وهو يصيح بأعلى صوته من يريد الحرية فليوقع هنا ويشير الى ورقة كانت في يده وقلت له : ما هذا يا ابا جميل واخذت الورقة من يده واذا فيها (نحن اهالي بغداد نريد السير بيرسي كوكس ملكا علينا وان يكون استقلالنا تحت حماية بريطانيا) ولما سألته باستغراب عن عمله هذا اما تشوف كيف عاملني الاتراك وانت الذي عجلت باطلاق سراحي من السجن قلت له ان الاتراك قد ذهبوا وان عملك هذا يعز بمعالمنا نحن العراقيين ثم انصرفت وكان يستغل جهل العامة للقراءة والكتابة فيأخذ نواقيعهم .

أول تصريح لكوكس في العراق

في ٢٦ تشرين الثاني ١٩١٤ انزلت اى البصرة مصب شط العرب القوة البريطانية الهندية التي كانت محتشدة في اليحرين ومتأهبة للعمل بقيادة الجنرال (Wilamion) فاستولت على قلعة الفاو بحماية قصف المدفعية البحرية وفي اليوم نفسه اصدر السير بيرسي كوكس الذي كان يرافق الحملة من الهند بصفته رئيسا للحكام السياسيين[١١] بيانا كرر فيه اسف الحكومة البريطانية لاقرارها لمعاداة الحكومة التركية واعلان الحرب عليها بعد ان ابدت عدوانا لا مسوغ له ليكن معلوما للجميع ان الحكومة البريطانية لا تخاصم السكان

العرب المقيمين على ضفتي الشط وعليهم ان لا يتخوفوا من شيء لاننا سوف لا نتعرض لهم ولا اموالهم اذا وقفوا منا موقفا وديا لا يؤيدون فقيه الجنود الاتراك او يحملون السلاح فيه علينا .

وعند سقوط البصرة في ايدي الانكليز اصدر السير بيرسي كوكس بيانا الى اهالي البصرة هذه بعض اسطره (لم يبق من الادارة التركية شيء الآن في هذه المنطقة فقد رفع بها العلم البريطاني الذي تتنعمون بظله الحرية والعدالة وبالنسبة الى شؤونكم الدينية والدنيوية معا واصدرت اوامري المشددة لجنودي المظفرون بأن يعاملوا السكان بوجه عام بصداقة وتقدير تامين عند قيامهم بالواجبات الملقاة على عاتقهم وعليكم انتم ان تعاملوهم بالمعاملة نفسها) .

بين فيصل وكوكس

في شهر تموز ١٩٢٠ كتب كوكس الى تشرشل(١٢) بان الحكومة البريطانية لا تستطيع الموافقة على استمرار غير محدود للتدابير الراهنة التي (تنطوي على اعباء جسيمة جدا) واستبعد فكرة تأسيس جمهورية او تنصيب امير تركي او فصل البصرة واقترح ترشيح فيصل بعد ان اكد على اهمية التعاون الانكلو هاشمي الذي كان فيصل نفسه يؤمن به . من جهة اخرى فان الصحفي والكاتب السياسي الكبير Mr. Philip Graves ذكر في كتابه عن حياة بيرسي(١٣) كوكس ان السير بيرس كان قد وضع خطة بعيدة المدى عن كيفية اعتلاء فيصل عرش العراق وقد ودر في الكتاب المذكور تفاصيل عن الموضوع (كان كوكس وفييصل معا يعارضان اية محاولة من قبل الوطنيين المتطرفين لاستعجال عملية تتويج فيصل اذ كان كلاهما يشعران بان ملك العراق يجب ان لا يكون مدينا لفئة معينة نتيجة عملية انتخاب لا شرعية وان الشرعية تقضي بأن يكون التتويج عن طريق التصويت باجماع الشعب وبطريقة

دستورية فا يصبح الملك اسيرا لفئة معينة كما ان كوكس كان يشعر في قراره نفسه ان الحكومة البريطانية التي مهدت الامور لفيصل يجب ان تقطف ثمار جهدها) .

لورنس يصف كوكس

في تقريرين كان قد رفعهما لورنس الى لندن نقل عن طريقهما افكاره وتصوراته وهو كما المعروف عنه احد اركان السياسة الاستعمارية البريطانية في الساحة العربية اثناء الثورة العربية . عن شخصية كوكس فيقول عنه (ان كوكس يجهل تمام الجهل امر الجمعيات العربية وشؤون السياسة التركية انه لا يعلم افكارنا ولكنه متفتح وسيفيد رأيه عند اللزوم) وتعليقا على ما ورد في تقرير لورن يؤكد باستغراب ما جاء في وصفه حيث ان كوكس(١٤) كان يعرف منذ سنوات عديدة (بالانكليزي البارز في الخليج) وبالقديس كوكس St. Cox نظرا لانه الموزونة والواقعية فيما يتعلق بالتغيرات السياسية في الشرق الاوسط .

كيفية تعيين الحاكم الملكي في العراق (السير بيرسي كوكس)

حول كيفية تعيين السير بيرسي كوكس حاكما ملكيا على العراق علقت المس بيل على ذلك الحدث في كتابها فصول من تاريخ العراق القريب الذي ترجمه جعفر الخياط حيث اوردت الصيغة التي وافقت عليها حكومة لندن فصدر امر تعيينه تقولم المس بيل (قبل ان تعقد الهدنة بزمن طويل دعيت القوة العسكرية في ما بين النهرين لحل المشاكل الادارية والسياسية دون العسكرية وقد اعترفت حكومة صاحب الجلالة ابريطانية باهمية هذه الناحية من اعمال الحملة في تموز ١٩١٧ منزلة رئيس الحكام السياسيين بحيث اصبح

حاكما[١٥] ملكيا عاما وحددت واجباته بالآتي (تسير الادارة المدنية بالاشراف العسكري الذي يرتئيه الحاكم العسكري العام مع الالتفاف المطلوب للاحوال والانقسامات المحلية بحيث يؤدي ذلك الى الحيلولة دون اختلال النظام الذي قد يستدعي سوق الجيوش المطلوبة بالحاح الى مكان اخر ويجب ان يستهدف في الوقت الحاضر فقط الحد الادنى من الكفاءة الادارية الذي يكون ضروريا لحفظ الامن وتأمين متطلبات القوة العسكرية في البلاد كما يجب ان يبقى تعديل القوانين كما جب ان يبقى تعديل القوانين وادخال الاصلاحات الضرورية في اضيق الحدود الممكنة فان حكومة صاحب الجلالة غير راغبة في اثارة المشاكل الكثيرة او المثيرة للخصام والجدل او الاشارة اليها بشيء حتى يكون خطر الهجوم التركي قد تعدى حده) وقد خوّل السير برسي كوكس بعد ان اصبح حاكما ملكيا على العراق صلاحية المخابرة رأسا مع حكومة صاحب الجلالة واعلم بانه يجب عليه ان يعنون تقاريره الى وزير الدولة لشؤون الهدن وصارت تعليمات حكومة صاحب الجلالة تصدر منذ ذلك الوقت فصاعدا باسم ذلك الوزير فيما يخص الامور غير العسكرية . وقد استفادت حكومة العراق استفادة كبيرة جراء ربطها بوزارة الهند رأساً حيث كانت مشاكلها واحتياجاتها تلقى التفاتا تاما ولم تقصر وزارة الهند في تقديم المشورة الصائبة والثابتة والمساعدة خلال السنتين الصعبة التي مرت قبل ظهور الحكومة المدنية للوجود .

قدوم السير برسي كوكس في الصحافة المحلية[١٦]

عدما عاد السير برسي الى العراق كتبت عن قدومه الصحف المحلية الشيء الكثير من التعليقات وقد قمنا باختيار نموذج واحد من تلك الصحف حيث اوردت مجلة دار السلام التي كان يشرف على اصدارها الاب انستاس ماري الكرملي الوصف التالي لحفلة استقبال المندوب السامي فقالت :

(مساء نهار الاثنين ١٩٢٠/١٠/١١ في الساعة الخامسة بعد الظهر قدم صاحب الفخامة السير برسي كوكس معتمد الدولة البريطانية في العراق ولقد شهد البغداديون في ذلك الاصيل مشهدا في غاية النظام والابهة فان الاعلام والرايات كانت تخفق ذاهبة من محطة سكك الحديد في الجانب الشرقي الى محل ديوان السياسة وما كانت الساعة الخامس الا وجاء الطار يتهادى فأطلقت المدافع ايذانا بالبشرى وحلقت خمس طائرات بالسماء كأنها تدعو سكان الجو الى الاشتراك بالفرح الشامل للسكان فكان ذلك اليوم من ابهج الايام والذي وسم العيد سمة ذكرى لا تمحى ان صاحب الفخامة قال لجماعة الحاضرين ان دولة انكلترا ارسلتني للمساعدة والاتفاق مع اشراف ورؤساء العراق لنحصل على الغاية المطلوبة للطرفين وتأليف (حكومة عربية) (حكومة مستقلة) بنظارة دولة انكلترا ولقد جئت لهذا المقعد .

فهذا كلام ينشر في صدر العراقيين وفي افق سمائهم سحابة مطرها انفراج الازمة العراقية ونتائجها بدء عصر كله عطف وولاء ومحبة واخلاص ومساعدة وعمران ورقي فنطلب من ابناء الوطن ان يغسلوا من قلوبهم لك حقد وضغينة وان ينفعوا من هذه الفرصة ليتفقوا مع البريطانيين فينشأ الخير العام وهو تعالى الموفق لسواء السبيل .

أمندوب هو أم معتمد

منذ قدوم السير برسي كوكس الى العراق للمرة الثانية اختلف ابناء العراق وكبار شخصياتهم الوطنية والفكرية على لقب خاص به يبين مركزه من خلاله اثناء تواجده في العراق فمنهم من دعاه بالمندوب ومنهم من وصفه بالمعتمد . ولالقاء الضوء على المزيد من ذلك الموضوع نشر الاب الكرملي مقالا في مجلة دار السلام ورد فيها ما يلي :

(قلنا غير مرة ان كتاب الصحافة هم مقلدون غير مجتهدين في اغلب الاحيان والمجتهدون منهم افراد قلائل يعدون على الاصابع نعت اغلب الكتاب السير برسي بالمندوب والقليلون منهم نعتوه بالمعتمد فمن المعيب؟ وقبل الوقوف على الحقيقة القائمة يجد بنا ان نعرف لقبه بالانكليزية الذي هو مشتق من فعل (توكوميت) ومعناه اوكل اليه امرا ائتمنه عليه اعتمد عليه كلفه بشيء اوكلت اليه قضاء مصلحة الى غير هذه المرادفات واما معنى المندوب فهو من ندبه للامر اذ دعاه اليه ورشحه للقيام به وحثه عليه فانت تدعي ان هذ اللفظ لا ينطبق على القبه التي قلدها السير برسي كوكس منعتا اياه بالمندوب لا ينطبق عليه اذ هو دون ما قلده اياه ملك بريطانية ودون ما يؤمله منه ابناء الوطن وانما هو معتمد يعتمد عليه ملك الانكليز فيما ينقله اليه من افكار ابناء العراق يعتمد عليه ابناء العراق فيما يؤملون من الحصول عليه بواسطة هذا المعتمد لذا هو فوق المندوب . وبريطانيا العظمى هي مندوبة العراق والعراق في انتداب انكلترا كما اوردته جرائد الديار العربية والغربية وعسى ان نتمسك بالمصطلح الحديث الصحيح ليكون الكلام اداة للفكر ولينتقل فكرنا الى الصحيح من التفكير حتى نكون في بينة من امرنا فيما نكتب او نتكلم . وهذه الغاية من الالفاظ المنتقاة .

بيرسي كوكس يحاضر عن العراق

بعد ان احيل السير برسي كوكس على التقاعد في العام ١٩٢٣ بدأ في كتابة سيرة حياته وخلاصة اعماله العسكرية والمدنية على حد سواء ولقد تطلعت اكثر من دار نشر الى تلك المذكرات لما لصاحبها السير برسي من شهرة واسعة في مجال خدماته التي امضاها سواء داخل بلاده او خارجها . وكبداية لتلك المذكرات كان السير برسي قد ألقى امام الجمعية الاسيوية الملكية بلندن

في العام ١٩٢٩ محاضرة شيقة عن العراق جاءت عصارة خبرته وخدماته الطويلة في هذا القطر العربي وانه لمن المفيد حقا ان يقوم المترجم المرحوم الاستاذ فؤاد قزانجي بنقل تفاصيل تلك المحاضرة الى العربية ومن ثم نشرها في مجلة آفاق عربية[١٧] حتى تتم الفائدة لكل باحث دارس عن العراق الحديث وتكوينه السياسي ولماكان بحثنا عن كوكس وعلاقته بالملك فيصل وجدنا انه ليس هناك من يسلط الضوء على احداث العراق في تلك لحقبة الزمنية العصيبة مثل شخصية كوكس باعتباره الموظف البريطاني الاول في العراق ولقد عثر الاستاذ قزانجي على نص المحاضرة المذكورة في دائرة السجلات العامة (P.R.O.)[١٨] استهل المحاضر السير برسي كوكس محاضرته القيمة تلك بما يلي :

ان البحث الذي سأتلوه على مسامعكم اعددته خصيصا لاولئك الذين يعنون بتأريخ حياة مملكة فيصل الناشئة دون ان تكون لهم معرفة سابقة عن العراق . وعليه سأحاول ان اقدم لمحة مكثفة عن ظروف نشأة العراق وتطوره لكي تكون لديكم فكرة واضحة عن مشاكل العراق التي نبحث ، من حين لاخر ، عن حلول لها والتي غالبا ما تتطرق اليها صحافتنا اليومية . وسأقوم بعد ذلك بعرض شرائح الافلام على الشاشة موضحا بعض الشواخص المتعلقة بالنص مع صور عن العراق لتكون اكثر اثارة لاهتمامكم .

اسم العراق

تتذكرون انه في خلال الحرب ، كانت الاشارة الى العراق من قبل وزارة الدفاع اولا ثم من قبل الجهات الاخرى باسم بلاد الرافدين (Mesopotamia) وكذلك باسم اخر اكثر تحببا هو (Mespot) وكنا حينئذ نخدم اهدافا لنا ، ولكن كما تعلمون فان بلاد الرافدين مصطلح يوناني يعني (بين النهرين) وهو اسم

غير معروف لدى ابناء البلاد . وعندما تبرز الحاجة الى اقامة حكم وطني تكون لغته الرسمية العربية فان اسم العراق المألوف لدى المواطنين هو ما ينبغي ان يكون قيد الاستعمال .

اما اصل تسمية «العراق» فالباحثون قديما وحديثا مختلفون عليه وفي رأيي ان اكثر المصطلحات المذكورة وصوابا هي في كلمة (عرق) العربية الاصل ذات الوزن الثلاثي . اذ انها تعني بالاصل (نضح الرطوبة) وتعد بالتأكيد اكثر التعابير ملائمة لطبيعة الاقليم موضوع ابحث الذي يحتضن الاراضي المنخفضة من دلتا دجلة والفرات اللذين كانا وما زالا ، في فصل او اكثر من مدار السنة ينضحان بالرطوبة منذ عهد الطوفان .

لمحة تاريخية

كان الاقليم موضوع البحث قبل الحرب العظمى يقع ضمن ما سمي بـ (بلاد العرب التركية او العثمانية) ويرتقي تاريخه الى عهد وفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم عام ٦٣٢م . وفي عهد الخلفاء الراشدين تم للعرب اكتساح الامبراطورية الشرقية لروما ، وفي الوقت نفسه تم طرد جيوش الامبراطورية الساسانية من العراق . وبحلول عام ٦٣٧م هزم العرب الساسانيين عبدة النار نهائيا في معركة القادسية وسيطروا على عاصمتهم طيسفون (المدائن) . ووضعوا البلاد المحيطة بها تحت السيادة العربية . ولم تمض فترة من الزمن حتى حررت جيوش المسلمين المنتصرة كلا من العراق وسورية وفلسطين من الغاصبين الاريين . وهكذا اصبحت جميع المناطق المتاخمة للصحراء العربية تحت النفوذ العربي . وامسى العراق نفسه مركزا للخلافة فيما بعد . وفي ظل الخليفة هارون الرشيد وصلت الامبراطورية العربية الى ذروة رخائها ، لكنها بعد وفاته بدأت بالتدهور تدريجيا حتى احتلال المغول لها عام ١٢٥٨م .

ولفترة ثلاثة قرون خلت ، كان العراق ساحة للقبائل المتصارعة والسلالات الطارئة المتنافسة التي لم تقدم للحضارة شيئا حتى عام عام ١٥٣٤م حينما ازاح السلطان العثماني سليمان الكبير بقايا الدولة الرسية الصفوية عن بغداد ، واصبح العراق بذلك ولاية من ولايات ا لامبراطورية العثمانية . وقد ظلت المواصلات مع العاصمة العثمانية بطيئة وغير مستقرة لفترة ثلاثة قرون تقريبا ، لم تستطيع خلالها الدولة العثمانية ممارسة سيطرتها على ولايتها البعيدة ، حتى اذا قامت حرب القرم ، اصبحت تتمتع بجيش قوي وخزينة ممتلئة فأقدمت على اجراء خلال فترة حكمه لبغداد (١٨٦٩-١٨٧٢) من اجل اصلاح الاوضاع وتحسينها ، ولكن اصلاحاته ما لبثت ان ذهبت سدى اذ سرعان ما عادت الامور الى سابق عهدها من الركود ولم تشهد البلاد اي تغير يذكر كان حتى كان انقلاب عام ١٩٠٨ .

بعد الانقلاب بدأ تأثير حكومة الاتحاد والترقي يمتد حتى بالنسبة الى العراق . فقد جرت محولات لتشجيع التعليم ، كما اعطي اهتمام جاد لتحسين التنمية الزراعية . وقد استخدم المهندس الانكليزي السير وليم ويلكوكس لاعداد اصلاحات في الري واقيمت فيما بعد سدة الهندية التي شيدتها شركة بريطانية لارواء الاراضي الخصبة التي بقيت مهملة لاجيال عدة .

ولسوء الحظ فان قيام الحروب في ايطاليا واليونان خلال هذه المرحلة ادى ، مرة اخرى الى اضعاف سلطة الحكومة المركزية ولا سيما في الولايات العربية . كما ادت خيبة الامل من عدم تطبيق ما جاء في دستور عام ١٩٠٨ الى خلق جو مضطرب وانتشار الروح القومية . وفي العراق بدأت سلسلة من الانتفاضات بين حين واخر لا سيما خلال مواسم الحصاد او عند الامتناع عن

دفع الضرائب ، واصبح السفر غير مأمون وازدادت اعمال المقاومة في الانهار .

بداية النفوذ البريطاني

كانت النذر تشير انذاك الى التوجه المضاد للسلطة الحاكمة في العراق ضد الوجود البريطاني بوضوح . وكانت حكومة تركية الفتاة المدفوعة الى حد ما بالرغبة في التخلص من النفوذ الاجنبي من جهة وغرورها المتعاظم من جهة اخرى ، قد نظرت الى الاجنبي ف بلادها نظرة عداء ولم يكن هناك الا القليل من الاجانب في العراق ليحظوا بهذا الشعور من العداء .

كان النفوذ البريطاني قد امتد منذ فترة طويلة الى منطقة الخليج العربي وكان اهتمامهم بطريق الحج الى الاماكن الاسلامية المقدسة في العراق شديدا ، الامر الذي ادى الى حصولهم على مركز متميز في العراق . فكان الممثل البريطاني المقيم والقنصل العام في العراق مثلا يتمتعان بحق الاحتفاظ بحرس من الهنود في منزليهما . وكان لشركة (ستيفن لنج) امتياز قديم لتسيير البواخر النهرية في دجلة سواء كانت للشحن او لنقل المسافرين في ظل العلم البريطاني . وبنفس الوقت كانت مصالحنا في المنطقة تزداد اهمية وكان اولويات سياستنا ان لا نسمح لاية قوة اوروبية لكي تجد لها موطىء قدم عند رأس الخليج العربي او بالقرب منه .

ولم يكن هناك ادنى شك في ان الموقف العدائي للسلطات العثمانية خلال تلك الفترة كان يتد بازدياد النفوذ اللماني . وفي الواقع كانت المفاوضات مستمرة خلال النصف الاول من عام ١٩١٤ بأمل الوصول الى تسوية ودية للخلافات القائمة بيننا .

ولكن نشوب الحرب العالمي الاولى وضع حدا لهذه المفاوضات . كنت

حينئذ اشغل منصب وزير الخارجية في حكومة الهند وعلى اتصال مباشر بالتطورت الجارية . وسرعان ما بدا واضحا ان موقف الدولة العثمانية تجاه الحلفاء سيكون في افضل الاحوال ، موقف حياد حاقد .

وقبل نهاية شهر آب من السنة ذاتها اشيع ان السلطات الحكومية في البصرة تقوم سرا بتحضيرات لسد شط العرب ، وكان من نتيجة ذلك ان باخرتين بريطانيتين فقط تجرأتا واندفعتا الى اعلى النهر خلال الشهرين التاليين . وقد تحمل اصحاب هاتين الباخرتين مسؤولية المخاطرة بهما ونظرا للموقف العدائي للسلطات العثمانية المحلبية وتوعدها المتكرر لاصدقائنا في رأس الخليج العربي ، والتهديد الوضح لصناعة النفط الكبرى في المنطقة الايرانية عبر شط العرب فقد اضطرت الحكومة البريطانية الى اتخاذ الاجراءات الاحتياطية المناسبة .

احتـــلال العــراق

في ١٦ تشرين الاول ١٩١٤ غادر بومبي بأوامر سرية اسطول مؤلف من ٤٧ سفينة ناقلة وهي تعد من اكبر الحشود للسفن التي تبحر مجتمعة حينئذ . وقد اتجه جزء من هذا الاسطول نحو شرق افريقيا واتجه الجزء الاخر منه نحو نقطة معينة في الخليج العربي ، ظهر بعدئذ انها كانت ميناء البحرين . وبعد اسبوع من الرسو هناك تلقينا انباء دخول الدولة العثمانية في الحرب وذلك بالهجوم على اوديسا . فأبحرت السفن المذكورة متجهة الى مدخل شط العرب وبدأت بذلك في ٦ تشرين الثاني الحملة على العراق بهجومنا على الفاو .

وقد ارتفعت اصوات المنتقدين بارسال هذه الحملة في ذلك الحين وفيمابعده مؤكدة اهمية تمركز قوتنا في ساحة الاحداث الرئيسية بدلا من تبديد مواردنا في معارك جانبية . وقد فات هؤلاء المنتقدين طبيعة الموقف الذي

يتحتم علينا مواجهته نظرا لارتباطنا بمعاهدات ملزمة وبصداقات متينة مع الحكام العرب على الساحل الغربي ، وخاصة اولئك الذين يحكمون رأس الخليج امثال شيخ الكويت وشيخ المحمرة . وكان من المؤكد اننا لو تركنا امامهم خيار اخر غير تجريب حظهم مع العثمانيين ، وبذلك تصبح معظم المنطقة العربية في قبضتهم . وسيجر ذلك الى اعلان الجهاد ضدنا ، والى تعرض مصافي النفط على شاطئ الخليج الى الخطر . كما ستقع ايران وافغانستان في شباك القوى الكبرى . وكنما على ثقةج من جهة اخرى اننا اذا ما اظهرنا مقدار قوتنا وقدرتنا على مساعدة الحكام العرب فاننا سنتمكن بكسبهم الى جانبنا اضافة الى ذلك فان اية عمليات عسكرية نقوم بها في جنوب العراق ستفتح لنا مجالات متعددة . وكان من الواضح ان علينا التصرف بسرعة اذ ان بعض الوثائق الالمانية التي وقعت بايدينا اثناء الحرب ، اشارت الى صدور اوامر من المانيا الى المارشال فون دي كولتز قائد الجيش الالماني السادس ، بوجوب طرد البريطانيين والروس من ايران ، وان يسعى لتكوين جيش ايراني ويرتب اتحادا بين تركيا وايران وافغانستان تمهيدا لغزو الهند . ولكن الاندفاع السريع بقوات الحملة البريطانية احبط جميع هذه الخطط وبالتالي منع اقامة علاقات مع القوى الروسية في ايران وقطع اتصالات العدو في الشرق والغرب . وقد بدا لي انه من الضرورة توضيح الظروف التي دعتنا الى الشروع في حملتنا على العراق ، ولكن ليس لدي النية للاستمرار بمتابعة تاريخها العسكري اكثر مما فعلت . ان ما اريد ان اؤكد عليه في هذا المجال هو ما ترتبت عليه الكثير من النتائج فحينما دخلت جيوشنا العراق صرحنا باننا لم نأت لمحاربة شعبه ولكن لقتال سادته العثمانيين .

اما فيما يتعلق بالسكان العرب فلم يكن لدينا سبيل للاعتقاد بأنهم كانوا

معادين كليا للاتراك . وفعلا فان المليون او اكثر من السكان لم يكونوا كذلك ولك كان املنا يعتمد على قدرتنا في اقناعهم من البداية بان نياتنا نحوهم ونحو معتقداتهم طيبة ، وبذلك نستطيع ابقائهم على الحياد فيدعوننا نسوي خلافاتنا مع العثمانيين دون التأثير عليهم . وعلى هذا الاساس قمت باصدار تصريحات مطمئنة قبل بدء الحملة .

ولقد دلت الحرب ان السكان كانوا على وجه العموم غير معادين . الا ان العشائر التي كانت تسكن منطقة القتال في جزر الاهوار ، التي كانت معنا تارة ومع العثمانيين تارة اخرى ، اعتبرت كلا الجانبين غنيمة سهلة لنزعتها العدائية . ولكن لم تكن لنا مشاكل تذكر مع سكان المدن الاخرين اتي احتللناها بالتعاقب . وعلى أية حال ، لم تكن هناك انتاضات منظمة ضدنا ولم يحصل العثمانيون الا على مساعدة جزئية .

ان تعهدنا للسكان من خلال تصريحاتنا في ان نعاملهم بود جعلنا نلتزم باقامة ادارة مدنية ذاتية . وهذا ما فعلناه . وحين وعدنا بعمل كل ما باستطاعتنا كانت الحرب قائمة وكانت الاحكام العرفية تفعل فعلها ، لذلك كنا نضطر من الناحية القانونية الى استعمال الشدة في بعض الامور التي تتطلبها الضرورات العسكرية على الرغم من تعارضها مع تصريحاتنا للسكان . وعلى كل حال فقد اجتزنا هذه الفترة بنجاح مشوب بالحذر وكذلك الصعوبات الناشئة عن اقامة جهاز الادارة المدنية ، وهو واجب والذي كلفت به بصفتي رئيسا للضباط او الحكام السياسيين . وقد تعاظمت هذ المسؤولية من الناحية العملية اثر غروب الموظفين الاتراك الذين كانوا ضمن الادارة العثمانية مع القوات العثمانية المنسحبة بعد ان اتلفوا بعض السجلات المدنية ونقلوا البعض الاخر منها . لذلك لم تكن لدينا اية معلومات يمكن وضعها بديلا

عنها . وكان ينبغي توفير جهاز الادارة المدنية من البريطانيين والهنود الذي كانوا يخدمون في الجيش او اذين استقدموا بعد ذلك من لهند . وفي البداية ولحسن الحظ ، وحينما كنا نتعامل مع مدينة البصرة ومن ثم مع ولاية البصرة لم نجد صعوبة كبيرة في ايجاد ضباط بريطانيين يخدمون في الجيش ممن كانت لديه خبرة طويلة في مختلف فروع الادارة المدنية والقضائية ، وكان معظم هؤلاء من الضبط السياسيين بلاضافة الى اولئك المدنيين من الهنود .

من بين اولئك الاشخاص السير هنري دوبس الذي تقاعد في الوقت الحاضر بعد ان خلفني مندوبا ساميا في العراق والعقيد ارنولد ويلسن الذي عمل معي في البصرة سكرتيرا وكان انذاك برتبة نقيب في الجيش ، وكذلك الانسة الراحلة غيرترود بيل وقد قدم كل من هؤلاء خدمات مخلصة لبريطانيا بشكل بارز حتى نهاية الشوط .

ولكن بمرور الوقت اصبحت المهمة الادارية اكثر الحاحا لا بسبب وجود المشكلة الرئيسية المتعلقة بتوفير الخبرة الادارية والالمام باللغة المحلية فحسب ، بل بسبب الوظائف الشاغرة في المناطق التي كانت تضاف بصورة دائمة الى المناطق المحتلة . وكلما امتد زمن الحرب وبقيت البلاد بأيدي العثمانيين فترة اطول ، فان ذلك يعني استمرار البلاد في حالة من الفقر المدقع . ففي احدى الحالات مثلا وجدان الاف الناس قد ماتوا جوعا ، وفي حالة اخرى وجد ان الرجال قد هربوا خشية من التجنيد وان النساء والاطفال صاروا يقتاتون العشب سداً للجوع ، وكان الطعام اوحيد الميسور في السوق هو التمر .

وخلال الاشهر الثمانية عشرة من الحرب ، اي حتى الوصول الى بغداد كانت المهمة الرئيسة للمندوب السامي المعين حديثا ، توفير الطعام من اقرب مركز في منطقة الاحتلال الى جميع السكان المدنيين . وبهذا التدبير عادت

البلاد الى حالتها الطبيعية بعد بضعة اسابيع وامتلأت الاسواق بالمواد كسابق عهدها .

تكريس الادارة المدنية

توفر الادارة المحلية طوال فترة الحرب ، جهازا من الموظفين الذين عملوا بصورة سنة فوظفوا في جميع فروع القوات المسلة . ولم تقتصر الكفاءة على طريقة تكريس اخلاصهم وفطنتهم للاعمال الجديدة التي اوكلت اليهم بسرعة لانجازها وحسب بل على حسن تفهمهم لوجهة النظر السياسية والامكانيات المستقبلية كذلك . وكنا نخلق كل شيء من لا شيء معتمدين في ذلك على انفسنا فيما نحتاجه .

لم نكن لنعلم في اية صورة ستنتهي الحرب ، وماذا سيكون مصير بلاد الرافدين في حالة انتصار الحلفاء . وطبيعيا ، وللسبب ذاته فقد كان من الصعب على قوى الحفاء ان تعلمنا بذلك . وبعد مضي هذا الزمن الطويل ، لا ضرر من القول انه في حالة واحدة فقط (في عام ١٩١٧ بعد احتلالنا لولاية بغداد والقسم الجنوبي من ولاية الموصل) وصلنا اقتراح من الحكومة البريطانية لبيان الرأي في الذي لو كنا قد تسرعنا فيه فان تطور مجرى الاحداث كان سيكون مختلفا عما هو عليه الآن ، ونعني بذلك الولايات الثلاث ، البصرة وبغداد والموصل . فقد طلب الينا الافصاح عن رأينا فيما اذا كان من المناسب ادارة كل ولاية على حدة ما دامت كل ولاية تختلف عن الاخرى من حيث ظروفها و متطلباتها .

وقد ظهر لنا على الفور ان جميع المناطق التي قد تقع في قبضتنا حتى نهاية الحرب التي شملتها تصريحاتنا التي كنا قد اطلقناها للسكان لا بد وان تكون ادارتها كلا لا يتجزأ .

قدمت تلك الفترة الينا كاقتراح ، ولم تجر ملاحقتها لاختلاف وجهات النظر التي وردتهم من بغداد سواء أكان ذلك قبل اعلان الهدنة ام بعده . ولهذا لم أتردد بصفتي المندوب المدني ، لمعارضة اي اتجاه للفصل بين الولايات الثلاثة . وقد اتضح بعد تطور الاحداث وما تمخضت عنه ، ان احدسنا كان سليمان دون ادنى ريب .

وبعد وصولنا الى بغداد تغير منصبي من رئيس الضباط (الحكام) السياسيين الى الحاكم او المندوب المدني . وازداد نطاق الادارة المدنية اتساعا وسيطرة بالتدريج ، وفي الوقت نفسه انتقل مركز الادارة المدنية من البصرة الى بغداد .

وفي ربيع عام ١٩١٨ استدعيت الى لندن للتشاور بعد ان عهدت بالمسؤولية الى العقيد ويلسن والانسة غيرتوود بل السكرتيرة الشرقية النشيطة . وفي طريق عودتي الى الوطن ، تلقيت اشعارا بوجوب التوجه الى طهران لتسلم مهام الوزير المفوض فيها . وكان الوزير المفوض الاصيل قد اضطر للسفر الى بريطانيا لاسباب صحية .

وصلت الى العاصمة الايرانية قبل الهدنة ببضعة اسابيع ، وأقمت هناك مدة تقارب السنتين ، كان العقيد ويلسن يقوم بمهام المندوب المدني خلالها ويوسع نطاق الادارة المدنية كلما بدت الحاجة الى ذلك وعلى نفس الاسس السابقة .

الاستقلال ومشاكل الانتداب

مع اعلان الهدنة تغيرت الاوضاع تغيرا ملحوظا فبعد مرور بضعة ايام على اعلانها اي في ٧ تشرين الثاني اصدرت الحكومتان البريطانية والفرنسية

بيانا الى سكان المناطق المحتلة ذا اهمية قصوى . اشارتا فيه الى تطلع البلاد الى «التحرر الكامل والنهائي للشعوب التي رزحت طويلا تحت حكم العثمانيين ، واقامة حكومات وطنية تستمد سلطاتها من رغبة مواطنيها وارادتهم الحرة» واستمر البيان واعدا بالمساعدة في تأسيس حكومة وادارة وطنية في كل من سوريا وبلاد الرافدين .

اما بالنسبة الى تصريح السير مود السابق ، حينما كانت نتيجة الحرب امرا مشكوكا فيه فان الحماسة التي تضمنها التصريح قد اعتبرها الناس ، الى حد كبير شكلا من ا شكال الدعاية . اما التصريح البريطاني - الفرنسي المشار اليه ، فقد اخذ بكل جدية ولو ان سلاما مبكرا امكمن تحقيقه لاعطى تأثيرا حاسما للسياسة المعلنة انذاك ولسار كل شيء على ما يرام . الا ان التأخير الذي جرى حول مفاوضات السالم و الدعاية الكبيرة التي حظيت بها نقاط الرئيس ولسون الاربعة عشرة اعطى مجالا للاجتهاد السياسي ، وكان حافزا لاثارة المشاعر الوطنية . وقد شجعهم اكثر من ذلك الاستفتاء الذي اجراه المندوب المدني للوقوف على رأي الشعب العراقي في قيام دولة عربية موحدة تمتد من الموصل الى البصرة ، واذا كان الامر بالايجاب فمن الذي سيتكفل هذه الدولة بالرعاية؟ وقد كان الاجتماع حول النقطة الاولى كاملا ، لكن الاجابة على النقطة الاخرى كانت متضاربة ولم تؤد الى غرض مفيد و في نفس الوقت بقي حل المشكلة معلقا .

اما فيما يخص الحكومة البريطانية فانها احرزت تقدما كبيرا على الصعيد المحلي وذلك بدمج ابناء العراق جميعهم في ادارة واحدة . ولا شك ان الامور في العراق تأثرت الى درجة كبيرة بالاحداث الجارية في سوريا . فعندما اعلن تنصيب الامير فيصل ملكا على سورية في اذار ١٩٢٠ ، كان رد فعل العراقيين

المناداة بأخيه الامير عبدالله ملكا على العراق . وما كان يقع هذا الحدث حتى اعلن الانتداب البريطاني على العراق المر الذي ادى بالطبع الى اثارة الكثير من التقولات . وبعد ذلك بيومين استدعيت الى لندن من طهران للتشاور وفي خضم ذلك قوبل اعلان الانتداب بالاستياء العام في بغداد .

واستجابة للاعتراضات التي برزت ، فقد تم الشروع في تأليف لجنة اختيرت من المعترضين ثم اعلن المندوب المني قرار حكومته باقامة حكوما عربية في الخريف التالي . كما دعا الى تأليف مجلس تأسيسي منتخب بالاقتراع الحر يشترك فيه جميع السكان . وبعد استشارة المجلس يتم اعداد دستور البلاد .

وفي تلك الفترة ، في الثاني من حزيران بالتحديد سيطر الحماس على الناس وانتفضت بعض العشائر في بغداد بتحريض من رؤسائهم الدينيين وقد اعطيت اسباب متعددة لقيام الثورة والتي لا يتسع المقام هنا لشرحها .

كان من الواضح ان الخطوة التالية تكمن في السعي لاعادة الهدوء والامن الى نصابهما ، لذلك فقد اتخذت كافة الاجراءات الفعالة لتحقيق هذا الغرض . وحينما وصلت الى لندن كان الرأي العام هناك في حالة من القلق الشديد لتطور سير الاحداث في العراق . وقد قام على اثر ذلك هياج كبير في بعض الاوساط الصحفية البريطانية مطالبة بتخفيض نفقاتنا والانسحاب من العراق . وقد نوقشت المشكلة في اجتماع مشترك لمجلس الوزراء والمعارضة ، وتم التوصل اخيرا الى تبني قرار يشير الى التعهدات التي قدمناها الى السكان والنتائج الوخيمة التي ستحدث اذا ما تقرر الانسحاب ، ولكن لم يكن لدينا ادنى شك من وجوب الاستمرار على ممارسة مسؤولياتنا!

وكاختيار بديل فقد اوعز اليّ بالعودة الى العراق لتولي منصب المفوض او

المندب السامي والعمل فورا على تأسيس حكومة وطنية في البلاد .

وبعد اسبوعين وصلت الى العراق ووجدت ان نار الثورة قد اخمدت عمليا ، فشرعت دون ابطاء ، وبمساعدة المسن الزاهد نقيب بغداد على تأليف حكومة وطنية ومجلس دولة برئاسته . كان هذا المجلس يمثل جميع الطوائف ومختلف الطبقات في المجتمع . وقد اعطى اهتماما مباشرا لمسألة الضباط العراقيين الذين خرجوا من الحجاز وسوريا وتقرر لذلك اعادة تكوين حكومة مدنية يسام فيها اولئك الضباط العراقيون والتهيؤ لسن قانون الانتخاب وتأليف الجيش . وفي اثناء ذلك ، كانت قضية تسلم الحكم الوطني محط اهتمام الرأي العام العالمي ومدرا لنقاشهم . وقد بدأ من خلال الحكم على الاراء التي عبرت عنها طوائف مختلفة من المجتمع ، انها لا يمكن لاي شخص ان يحوز رضا الناس كلهم ، لذلك اصبح م الضروري اختيار شخص من خارج العراق .

وفي هذه المرحلة ، اي في ١٢ اذار ١٩٢١ عقد السيد ونستون تشرشل ، الذي اصبح وزيرا للمستعمرات ، مؤتمرا لقادة الشرق الاوسط في القاهرة نوقشت فيه المشاكل التي تخص العراق ، ومنها ادارة المناطق الكردية وطبيعة القوات التي ستؤلف للدفاع عن الدولة الجديدة ، والمداولة في العديد من المرشحين المحتملين لعرش العراق وفيما يختص بالمسألة الاخيرة فقد كان من السهل الوصول الى نتيجة من خلال استبعاد بعض المرشحين . وقد تبين لي ان من لمتعذر ان يحظى اي من العراقيين على اجماع الناس ، وان واحدا من افراد عائلة الشريف قد ينال القسم الاكبر من التأييد المطلوب . ولم أكن لاعرف ايا منهم شخصيا ، لذلك ذهبت الى القاهرة للنظر في امر ترشيح احد الاخوة الاربعة ويبدو اكثرهم ملاءمة للدور ، بشرط تعريفه اولا للشعب العراقي . ومن المعلوم ان الامير فيصل فاز بنتيجة الاقتراع .

اما مسألة تخفيض النفقات التي كانت قد جاوزت علي ما اذكر (٣٧) مليونا من الباونات ، فقد عدت للعراق لاعادة النظر في الميزانية على ان يصاحبها تخفيض تدريجي في كل سنة حتى يبلغ الحد الادنى ، اذ ان نفقاتنا المتزايدة سببها الاحتفاظ بالقوات البريطانية التي كان عليها ان تبقى في العراق حتى يتم التوقيع على معاهدة الصلح مع تركيا ثم تخفض بعدها . وتتمثل عملية تخفيض القوات بخلق قوات محلية لتستطيع الحلول محل الوحدات البريطانية . وكان اعداد القوات المحلية يسير انذاك سيرا حثيثا ، بينما لا يخفى عليكم ان فعالية القوة الجوية في العراق ومنذ توليها المسؤولية عام ١٩٢٢ قد حققت نجاحا ملموسا .

وفي ذلك الوقت وصل الامير فيصل الى العراق ، وقد اكدنا له في حالة حصوله على رضى الشعب فانه سيحظى بمساعدة حكومة صاحبة الجلالة . وكان مجرد وجوده في البلاد افضل دعم له . وبعد قرار اتخذته وزارة النقيب بمبايعته ملكا على العراق ، تم الاعداد لاجراء استفتاء للشعب لتأييد قبوله ملكا باغلبية ساحقة وقد توجه بالفعل ملكا على العراق في الثالث والعشرين من اب .

وقد قررت حكومة صاحب الجلالة ان تكون العلاقات بينها وبين العراق قائمة على اساس معاهدة تحالف تعقد بين اطرفين للتغلب على مشاعر الكراهية المتنامية في العراق ضد فكرة الانتداب . واني لواثق ان السبب في ذلك يعود الى الاسلوب الخبيث الذي عرفت فيه الصحافة المنتدب بانه «الشخص الذي تكون مطالبه استبدادية» بدلا من معناه الحسن اذي يعني (الشخص الوصي) وهو ما قصده مبتدعه .

كان قد جرى التفاوض بشأن تحديد اطار معاهدة التحالف ، التي وقعت

في الثالث عشر من تشرين الاول ١٩٢٢ . ولكن لسوء الحظ استقالت الوزارة التي كانت قد تبنتها بعد مضي عشرة ايام ، وبرزت مرة اخرى مشكلة مسؤولياتنا المترتبة على العراق في برنامج حملة الانتخابات التالية وشنت علينا بعنف ، حملات من الصحافة البريطانية ضد استمرار هدر الاموال البريطانية في العراق . وقد حصل المرشحون على مقاعد لهم في مجلس العموم على اساس الوعد الذي قطعوه للعمل على الانسحاب باسرع وقت ممكن .

وعندما تم تأليف حكومة جديدة اصبحت المسألة السياسية التي يجب اتباعها في العراق موضع اهتمام شديد ، ولذلك استدعيت الى الوطن للتشاور ، ثم عدت الى العراقي في الحادي والثلاثين من اذار ومعي قرار الحكومة . كان القرار يشكل مسودة بروتوكول يلحق بمعاهدة التحالف والتي لم تقر حتى تشرين الاول ، حيث تم بموجبها خفض فترة المعاهدة من عشرين سنة الى اربع سنوات اعتبارا من تاريخ تصديق معاهدة الصلح مع تركيا . كما انها نصت على انه في حالة قبول العراق في عضوية عصبة الامم قبل مرور المد القصوى ، فان المعاهدة تنتهي فورا . وقد وقع هذا البروتوكول واذيع في ٢٣ نيسان ١٩٢٣ ولكن بقيت مسألة تصديقه ، مع الاتفاقيات الثانونية التي كانت ملحقة به حول الترتيبات التفصيلية للامور العسكرية والمالية والقضائية . وقد سرت المفاوضات من اجلها ببطء شديد لاكثر من سنة ، ولكمن وفي النهاية وافق المجلس التأسيسي على كل (من المعاهدة والاتفاقيات) بعد اضافة فقرة الى قرار المجلس تشير الى ان الموافقة تمت «بعد التأكد ن ان الحكومة البريطانية ستقوم بعد التصديق وبالسرعة الممكنة بتعديل الاتفاقية المالية بروح السخاء والعطف الذي اشتهر به الشعب البريطاني» .

وقد صودق على الاتفاقيات في الوقت المناسب ولذلك فقد تم قبولها من قبل مجلس عصبة الامم وفقا للمادة (٢٢) من عهد العصبة على اساس تنظيم العلاقة بين العراق وبريطانيا .

وبعد ان نجحت لجنة تخطيط الحدود في مهمتها في خريف عام ١٩٢٧ ، سافر الملك فيصل وبرفقته جعفر باشا العسكري الى لندن في تشرين الثاني ١٩٢٧ للبحث مع الحكومة البريطانية حول امكانية طلب العراق لقبوله عضوا في عصبة الامم وخلال اجتماعها في ايلول ١٩٢٨ . وقد اثار هذا الاقتراح كثيرا من الصعوبات وخاصة بالنسبة لمسألة الدفاع الوطني وامكانية العراق في تحمل مسؤولياته . وقد ألحت حكومة الملك فيصل على ان بامكانها تحمل المسؤولية العسكرية كاملة اذا تبنت نوعا من التجنيد الالزامي والذي توقعت حكومة صاحبة الجلالة بأنه سيلاقي الكثير من المعارضة ، ولذلك تعذر علينا ان نعدهم بمساعدة ، عدا ان طلب العراقي في هذه المرحلة المبكرة لن تكون له فرصة كبيرة في النجاح . وبعيدا عن هذا المطلب فقد أقرت امكانية ايجاد تعديلات مناسبة عن العلاقة القائمة بين العراق والدولة المنتدبة ، نظرا للتقدم الاكيد الذي حققته الحكومة العراقية خلال السنوات القليلة الماضية .

وقد ادخلت هذه التعديلات في معاهدة جديدة لتحل محل المعاهدة المعقودة في كانون الثاني عام ١٩٢٦ . وبينما خضعت بعض المبادئ الاساسية للمعاهدة السابقة الى تغيير طفيف ، فقد اتخذت خطوة الى الامام نحو ارضاء طموحات العراقيين وذلك بالاعتراف الرسمي بالعراق كدولة مستقلة . بما وافقت بريطانيا على دعم ترشيح العراق لقبوله عضوا في عصبة الامم في عام ١٩٣٢ بشرط ان يحافظ على سيرته الحالية من التطور والاستقرار . وفي الوقت نفسه تم الاتفاق على اعادة النظر في الاطار الحالي للاتفاقيتين الماليـة

والعسكرية ، والتقدم باطار جديد لهما نظرا للتطور الحاصل في البلاد .

لقد وصلنا الان الى مرحلة الاحداث الجارية ، واطلعنا في الصحف الصادرة في هذه الايام ،على تقارير تشير الى المفاوضات الجارية في اطار تجديد الاتفاقيات والتي لم تصب النجاح المطلوب . ونتيجة لذلك فان حكومة السيد عبدالمحسن السعدون شعرت بانه بات من الضروري ان تستقيل ما دامت قد اخفقت في الوصول الى صيغة لمعاهدة تستطيع ان تتقدم بها المجلس لتنال موافقته!

بعد ان تطرقت الى هذه النقطة اشعر بأنني وصلت الى الموقف المحرج . وبوجود رئيس قسم الشرق الاوسط جالسا امامي مع الوزير العراقي فانهما (من دون شك) في وضع افضل مني لاحاطتكم علما بالموقف الفعلي في الوقت الحالي (على الرغم من ادراكي لترددهما في الافصاح عن اي شيء) على اساس ان اي نقاش علني للموضوع قد يسيء اليه اكثر من ان يعود عليه بالفائدة ، ما دام الحوار جاريا بين الحكومتين المعنيتين . واعتقد ان ذلك هو عين الصواب اذ (لاحظت) ان وزير المستعمرات قد اتخذ الموقف نفسه عتند الاجابة على استفسار مماثل في مجلس العموم .

وعلى اية حال ، فان ما استطيع الافصاح عنه دون اساءة هو انني مقتنع بأن ليس للشعب العراقي ولا لحكومته ادنى رغبة في التخلص من الارتباط ببريطانيا! كما توحي به لسوء الحظ ، الصحافة من وقت الاخر . ولا ريب ان قسما من (السياسيين الكبار) يعتقد بانه لم يتسن له العمل بحرية كافية . واني واثق ان هؤلاء يعرفون جيدا بان استمرار صداقتنا الحميمة ودعمنا لهم سيجعلهم يأملون بالاتفاق خيرا . ولإيماني بذلك فاني اسألكم ان تأخذوا بجدية احداثاً مثل استقالة المجلس او وقوع ازمة مؤقتة ، اذ يبدو ان الجو

السياسي ملبّد بالغيوم بعض الشيء ولكن سرعان ما ستتبدد ، اذ ان الخلاف الحالي خلاف بين الاصدقاء بالأساس . وما دام الامر كذلك فانه اذا ما بدا الطرفان النية الحسنة ، وهذا الامر لا مجال للشك في وجوده ، فان تسوية قريبة تبدو في المستقبل المنظور . واذا كان ما ورد في الصحافة صحيحا فان النقاط الفعلية في الخلاف ليست بالدرجة التي تسيء الى الصداقة والثقة المتبادلة التي تميزت بها العلاقات الحالية بين البلدين .

الهوامش

١) لقد ورد نص البرقية في كتاب ويلسن (الثورة العراقية) وهو مذكراته عن ثورة العشرين ، ترجمة جعفر الخياط ، ص ٧٠ .

٢) انظر تفاصيل حفلة الاستقبال للسير برسي كوكس في عدد جريدة العراق الصادر بتاريخ ١٩٢٠/٩/٢١ ، كذلك انظر رسائل المس بيل ، ص ١٩٨ ، ترجمة جعفر الخياط .

٣) حول تعيين ساسون حسقيل وزير المالية في وزارة النقيب الاولى تذكر المس بيل ما يلي في مذكراتها (قال لي المستر تود انه مر بساسون افندي ليهنئه على تعيينه وزير المالية فوجده مع حامد بابان الذي كلف ان يكون وزيرا بلا وزارة وهما يتحدثان عن اعتذارهما عن قبول الوزارة فأسرعت الى المكتب لاخبر المستر فيليبي فلم يكن هناك الا انني لاحظت وجود ضوء في غرفة السير برسي فدخلت اليه واخبرته بالامر فطلب مني ان اذهب الى ساسون افندي في الحال وخولني ان احمله على تغيير رأيه ولقد توجهت الى هناك وانا اشعر بأنني احمل مستقبل العراق في يدي لكنني عندما وصلت الى بيت ساسون وجدت مع بالغ ارتياحي المستر فيليبي والكابتن كلايتون قد سبقاني الى هناك فلقد استلم النقيب كتاب ساسون بالاعتذار وطلب من المستر فيليبي بالتعجيل بالذهاب اليه الا انني وصلت في الوقت المناسب لانهم استنفذوا جميع حججهم ولم يزل ساسون عند رأيه ان قلقي الشديد ربما يكون قد الهمني الحجج في موضوع اقناعه لأن عناده قد تزعزع بعد ساعة من الجدل المركز بالرغم من اخاه شاؤول الذي احترمه ايضا دخل في الجدل وبذل معي جهده لجعل

ساسون يعدل عن عناده ويواجه السير برسي في اليوم الثاني وقد حصلت عندي قناعة باننا قد كسبنا اللعبة وجاء في صباح اليوم الثاني ساسون افندي فأخذته الى السير برسي ثم تركتهما لوحدهما ولقد غادر بعد نصف ساعة ليقول لي بانه قبل المنصب الوزاري ثم سألني ماذا بوصعه ان يفعل الآن لمساعدتنا .

٤) علقت المس بيل في مذكراتها على موضوع البرقية بما يلي في رسالة معنونة الى والدها بتاريخ ١٩٢١/٨/٢١ (ابرقت الينا وزارة المستعمرات ان فيصلا يجب ان يعلن في خطاب تتويجه ان السلطة النهائية في البلاد هي في يد المندوب السامي غير ان فيصل كان يعد منذ البداية على انه ملك مستقل يرتبط بنا بمعاهدة والا فانه لا يستطيع ان يقبض على زمام الامور والمتطرفين في البلاد) ، انظر مذكرات المس بيل ، ص ٣٤٠ .

٥) كانت بناية البلاط الملكي في العام ١٩٢٢ تقع ضمن بنايات السراي وهي البناية التي يشغلها في اوقت الحاضر (١٩٩٧) (معرض النصر) .

٦) امين الريحاني ، فيصل الاول ، ط ٢ ، ص ١١٨/١١٩ .

٧) امين الريحاني ، نفس المصدر ، ص ١٢٨ .

٨) تاريخ كتاب المندوب السامي الى البلاط ١٨ ايلول ١٩٢٢ ملفات البلاط الملكي رقم ٣١ .

٩) انظر في غمرة النضال سليمان فيضي ، ص ٢٦٢ .

١٠) ذكريات علي جودة ، ١٩٠٠-١٩٥٨ ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص ٨٠ .

١١) فصول من تاريخ العراق القريب ، المس بيل ، ترجمة جعفر الخياط ، ص ٤ - ٨ .

١٢) F.O. 371/6351/6831 .

١٣) The Life of Percy Cox by Philip Greaves .

١٤) Bell From his Personal Papers .

١٥) فصول من تاريخ العراق القريب (المس بيل) ترجمة جعفر الخياط ، ص ٢٣٢/٣٢١ .

١٦) مجلة دار السلام ، العدد ٢١ في ١٩٢٠/١٠/١٧ .

١٧) مجلة آفاق عربية ، شباط ١٩٨٥ .

١٨) (P.R.O.) 0730/143/68/86/HM 0525 .

G. M. C. Bell
1868-1926

هي الآنسة كرترود مركريت لوثيان بيل ولدت في سنة ١٨٦٨ في مقاطعة بوركشايد في بريطانيا وهي ابنية السيد هيو بيل من زوجته الأولى .

تلقت دراسته في (كلية الملكة) في لندن ومن ثم التحقت في احدى المدارس العليا في جامعة اكسفورد وهاك انكبت على دراسة التاريخ السياسي ولما كانت مثل هذا الاختصاص يتطلب من دراسة الالمام في بعض اللغات الشرقية الى جانب اللغات الاوربية الاخرى اضافة الى الانكليزية اخذت تتعلم مبادئ اللغة العربية واصولها فاتقنت قواعدها وكانت قبل ذلك قد تفوقت بتعلم اللغتين الالمانية والفرنسية ثم اخذت دروسا في اللغة الفارسية وقامت باول رحلة لها الى طهران في لعام ١٨٩٢ وهناك مكثت عدة سنوات برعاية خالها السيد لاسلز الذي كان سفيرا لبلاده في العاصمة الفارسية .

وفي تلك الفترة التي امضتها في بلاد فارس تم لها الاطلاع الكافي على اصول الحضارة الفارسية وهناك كتبت اول مؤلفاتها (صور فارسية) Farsan Pictures وكتابها الثاني اشعار في ديوان حافظ الشيرازي حيث ترجمت من شعره نماذج الى اللغة الانكليزية وبعد ان امضت السنوات الاربعة في بلاد فارس عادت الى بلادها وهناك تعرفت على عالم الاثار الاسكتلندي واسهمت معه في وضع كتاب (ألف كنيسة وكنيسة) The Thousand and one Churches في بداية العام ١٩٠٠ بدأت اول الطريق الى اطراف الوطن العربي فقامت برحلات متعددة الى فلسطين وسوريا وفي العام ١٩٠٧ اخرجت كتابها الثالث

(سوريا البادية المغمورة) وفي العام ١٩٠٩ كانت قد لمست اقدامها ارض العراق للوهلة الاولى حيث جاءت سائحة من الشمال من منطقة سنجار ثم الى الرمادي بعد ذلك الى كربلاء قاصدة عين التمر بعدها الى الكاظمية ثم توجهت الى بغداد وخلال هذه المرحلة نشرت كتابها (من مراد الى مراد) Amurath to Amurath وقد ظهرت طبعته الأولى في العام ١٩١١ والثانية في العام ١٩٢٤ . في العام ١٩١٤ زارت العراق للمرة الثانية واستقرت في خيمة بجانب دار من دور الشيوخ المتنفذين ثم قصدت بغداد في كل جولاتها في الارض العراقية استطاعت بما عرف عنها من حيلة وذكاء وفطنة وعبقرية في الذهن وكيفية التغلب على الصعاب التي قد تصادفها والنجاح الباهر فيما تخطط له وتنفذه وخاصة قابليتها المدهشة على توطيد العلائق مع من تريد من العائلات والبيوتات العريقة في مختلف انحاء العراق ولم تدع بقعة عراقية قامت بزيارتها دون ان تلاق ركائز الصداقة مع الاشخاص البارزين في تلك المنطقة . وعند عودتها الى لندن دفعت الى المطبعة كتابها الجديد (قصر ومسجد الاخيضر) The Place and Moslued of Ukhadier وقد صدر عن اكسفورد في العام ١٩١٤ .

بعد هذه الجولات في الارض العراقية بدأت تكتب تقاريرها عن ما لمسته ووقعت عيناها علية في ارض العراق وما جاورها ووضعت اقتراحاتها اللازمة حول كل مسألة قامت بدراستها وبعد ان انهت مهمتها عادت من جديد الى ارض العرب فكانت بالقاهرة في العام ١٩١٥ موظفة بدرجة كبيرة في دائرة المخابرات البريطانية السرية في مصر والتي وضع على بابها لافتة تحمل اسم (المكتب العربي) (The Arab Bureau) وهناك تعددت لقاءاتها مع رجل المخابرات المعروف الكابتن (لورنس T.E.Lowrance) في العام ١٩١٦ اوفدها

المكتب اعربي المذكور في مهمة تجسسية باعتبارها ذات خبرة واسعة مرضية ولمعرفتها بالمشاكل التي تعصف بالحجاز فألحقت بالحملة البريطانية التي فتحت العراق وعينت في الفرع العربي فرع البصرة والتحقت في وظيفتها الجديدة بتاريخ ١٩١٦/٦/٢٦ وهناك تعلمت مبادئ اللغة الهندية وفي البصرة توثقت علاقتها مع السيد برسي كوكس والذي كان في ذلك الوقت ضابط برتبة مقدم من افراد الحملة البريطانية والذي منح مرتبة الحاكم السياسي الاقدم وهكذا وجدت نفسها موظفة تحت امرة السيد برسي كوكس Sir Percy Cox والذي منحها بدوره لقب (معاون حاكم سياسي) وأصبحت ضابطة اتصال بين المكتب الرئيسي العربي في القاهرة وبين فرعه في البصرة واوضحت لكوكس مديرها الاعلى الصورة التي اتخذها مسار المفاوضات بين السير مكماهون وبين الشريف حسين واطلعته على الرسائل المتبادلة بين الاثنين . واتفاقهما حول اعداد الثورة العربية ضد السلطات التركية المحتلة وبعد دخول الجيش البريطاني في بغداد بترخ ١٩١٧/٣/١١ تنقلت المس بيل الى بغداد من البصرة واتخذت لها مسكنا في محلة السنك يعود الى موسى الباجه جي وسرعان ما اشتهرت بين اهل بغداد بلقب الخاتون الذي كان اول من اطلقه عليها هو نقيب اشراف بغداد .

دور المس بيل في ترشيح الملك فيصل على عرش العراق

كانت المس بيل قد قامت بهمة شاقة وهي المناداة بالامير فيصل بن الحسين ملكا على العراق وظلت تتدارس هذا الامر الشائك مع اعمدة وزارة المستعمرات البريطانية وعلى رأسها وزير المستعمرات نفسه السيد تشرل وعندما تم انعقاد مؤتمر القاهرة برئاسة تشرشل للفترة من ١٢-٢٤ مارت ١٩٢١ تم وضع الصيغة النهائية لمشروع قرار ترشيح فيصل على عرش العراق وكان من

بين حضور المؤتمر المذكور المس بيل اضافة الى اثنين من الوزراء العراقيين هما جعفر العسكري وساسون حسقيل . ومن ابرز الانكليز الذين حضروه المندوب السامي البريطاني السير برسي كوكس بعد انعقاد المؤتمر المذكور تمخضت عنه قرارات تخص قسما منها شؤون المعسكرات البريطانية في الشرقين الاوسط والادنى ، وكان من ضمن ما شمل العراق واصبح بالصورة الرسمية تامين حكومة تحت الانتداب برئاسة الملك فيصل الاول وكان للمس بيل الدور الاساسي الفعال في تركيز انظار المؤتمرين على مرشحها الامير فيصيل وهكذا كان وغادر الامير فيصل متوجها الى بغداد وبمعيته (الخاتون) التي كانت مشاورته السياسية قبل ان تكون من المعجبات بشخصيته العربية المتألقة وقد اكدت امس بيل نفسها في مناسبات عديدة على مدى تعاطفها واحتفائها لشخصية فيصل التي كلها عملية تتويجه الكثير من المتاعب والجهد غير المحدود حول مدى عملها الدؤوب في سبيل تتويج فيصل . تقول في رسالة لها الى ابيها في ١٧ نيسان ١٩٢١ (كانت هناك شائعة تقول بأني فيما كانت متوجهة الى البصرة لحضور مؤتمر القاهرة قد قلت لاشخاص هناك بأن الغرض من المؤتمر هو اعلان فيصل ملكا على العراق . ان هذه الشائعة غير صحيحة ولكن بالواقع هو انني عندما كان يضغط عليّ بالسابق ويطلب اليّ بيان رأيي في الموضوع كنت اقول دوماً ان فيصلا هو خير من يمكن انتخابه) .

كان من ضمن اعمال التمهيد لاستقبال فيصل عند وصوله الى البصرة ما اعدته المس بيل التي كانت قد سبقته في الوصول الى العراق بعد انتهاء مؤتمر القاهرة من اعداد لجنة عراقية لاستقباله وعرضت مشروع وتفاصيل الاستقبال الذي سيجري للامير عند وصوله البصرة على المندوب السامي البريطاني السير برسي كوكس وحول ذلك تقول (صادق السيد برسي على

المشروع الذي عرض عليه بواسطتي وتفاصيله ان يدعى كبار رجال البلد الى اجتماع كبير يقام في يوم الجمعة أي قبل وصول فيصل بستة ايام ولقد حضر الى مكتبي جمع من لصحفيين والكتاب يستمزجوا رأيي فيما اذا كان عليهم المشاركة في الاستقبال فقلت لهم نعم ولم لا؟ فالاجتماع قد اقترن بموافقة صاحب الفخامة) ونقصد به طبعاً السيد برسي .

بعد ان وصل الامير فيصل الى بغداد خصص له جناحا من اجنحة مباني السراي ليكون قصرا مؤقتا له وقصدته المس بيل في صبيحة اليوم التالي من وصوله بغداد فوجدته قلق على مستقبله السياسي وهي تقول (في صبيحة اليوم التالي مررت وانا في طريقي الى عملي بالسراي حيث كان يقيم فيصل لأترك له بطاقتي لكن الامير شاء ان يستبقيني جلسنا على الاريكة فأفضى لي بشكوكه ولكنني أرحته منها وطمأنته بأن السير برسي كوكس الى جانبه تماماً) .

تعددت الخدمات التي قدمتها الحكومة البريطانية الى مرشحها لعرش العراق فيصل وفاقت كل التصورات . ومن اطرف تلك الخدمات هو جعل من المس بيل السكرتيرة الشرقية لدار الاعتماد معلمة ومرشدة لفيصل في موضوع حساس جدا الا وهو (عشائر العراق) وهي تصف لك الحدث بينها وبين التلميذ الامير كما يلي :

(ذهبت الى دار فيصل في الرابعة وفي حقيبتي خرائط العشائر لكي القي عليه درساً في الجغرافيا العشائرية وكان من الحاضرين المستر كورنواليس كذلك وكان مكان جلوسنا غرفة باردة سقفها من (الطوق) وارتفاعه ينخفض نصف متر عن مستوى سطح الارض وهكذا قضينا ساعة ندرس شؤون القبائل ونشرب (الليمونادة) ثم قضينا ساعة اخرى نبحث في موضوع تشكيل وزارة فيصل الاولى) .

كتبت المس بيل الى والدها رسالة تصف له فيها تفاصيل حفلة استقبال فيصل عند وصوله بغداد قادما من البصرة يوم ٢٩ حزيران ١٩٢١ فقالت :

(توجهت انا والكولونيل جويس الى المحطة وكانت المدنية كلها مزدانة بالزينات من اقواس النصر واعلام عربية وكان اناس محتشدين على اسطح المنازل وفي الشوارع وهم يتلهفون الى رؤية الامير العربي والمحطة وجدتها مزدحمة بكبار المستقبلين البريطانيين وفي مقدمتهم Sir Percy Cox والجنرال هالدن القائد العام للقوات البريطانية في العراق وحرس الشرف وتقول بيل ان (سيدي فيصل) وقف عند وصول القطار الى المحطة بباب عربته بثيابه العربية الفاخرة يحي حرس الشرف . ولقد تقدم اليه السير برسي والسير الهم فحياه تحية عسكرية رسمية صفق لها الناس المحتشدين ثم فتش (الملك المرشح) حرس الشرف وبعد ذلك قدم له السير برسي اعيان المدينة وممثل النقيب . لقد كانت تبدو عليه علامات الانفعال والقلق فلا عجب فالمرشح للعرش الموضوع تحت التجربة لا بد ان تكون حالته النفسية على تلك الشاكلة لقد كانت شخصيته تبدو مزينة بالسحر الانساني .

التمهيد لاعتلاء فيصل العرش العراقي

كانت امس بيل قد احيطت علما بالموقف المتباين بين رغبة حكومة بريطانيا في ترشيح فيصل ملكا على العراق وبين طالب النقيب الذي كان يشغل حقيبة وزارة الداخلية في وزارة النقيب والذي بدوره كان طامحا في ترشيحه على عراق العراق فقصدته الخاتون في داره وتحدثت اليه في هذا المقام وحثته على الرضوخ والابتعاد عن مطاليبه تلك فاذا به يتنازل ويقول لها :

(خاتون انت ابنتي وانا اريد ان اتحدث اليك بكل ما يدور في خاطري وانا لم اقم بأي عمل يخالف نصيحة السير برسي كوكس او يتعارض مع

مطاليب حكومته البريطانية منذ ان قدم الى هذه ابلاد واني لما فهمت أن فيصل يصلح ان يكون ملكا على العراق وان حكومة صاحب الجلالة تؤيد هذا الاتجاه قررت ان اتجنب كل حديث يتعلق بمخالفة ذلك وان اسرع وأعلن بنفسي مبايعة مجلس الوزراء لفيصل بالملوكية . لقد تساءلت في نفسي عما اذا كان هناك ضرورة لاستشارة السير برسي كوكس في هذا الذي قررته فهداني عقلي الى صحة اتجاهي واني سوف لن اتراجع عنه فيما اذا خالفني كوكس لاني لست مسؤولا الا امام الله لا سيما انا الان في اواخر ايام حياتي) .

تستمر امس بيل في تحركاتها تند اصدقائها الموالين لسياسة حكومة الاحتلال وبغيتها ترشيح فيصل على العرش العراقي فتقول :

(ركبت في صباح اليوم (الاحد) لأرى الحاج ناجي ووجدته في نفسية متوترة جدا كان يجب علي ان ازوره قبل هذا فقد مر وقت عصيب طوال شهر رمضان لان المتطرفين كانوا يضغطون عليه بالتهديد والشتائم لينضم الى التحريضات ضدنا فوقف بجرأة ومتانة وقد حدثني يقول (اني لا أنام في الليل وأضع حراسا على بيتي لاني وحيد هنا وبعيد عنكم وبوسع هؤلاء الكلاب ابناء الكلاب ان يفعلوا كل ما يريدونه . ومع هذا فانك لم تقومي بزيارتي ولقد جلست في الجرداغ بجانب بيته بينما كنت اكل التفاح والرقي وهو يتوقف في احاديثه فوعدته ان امر عليه دوما .

حتى بطاقة الدعوة التي وزعت على المدعويين لحضور حفلة تتويج الملك فيصل الاول في اليوم الثالث والعشرين من شهر اب ١٩٢١ كانت من تصميمها وقد حصلت على النص العربي للبطاقة المذكورة ولكني لم اعثر على نصها بالانكليزية .

قسم Section ١

صف Row ١٦

مقعد Seat ١٧٢

يدعو رئيس الوزراء ونقيب اشراف بغداد

حضرة . . . .

الى حضور مراسم تبوء سمو الامير فيصل المعظم عرش العراق يوم الثلاثاء الساعة السادسة زوالية صباحاً في ٢٣ اب ١٩٢١ المصادف لـ ٢٨ ذي الحجة ١٣٣٩ .

بيل تصف حفلة تتويج فيصل

هذه الرسالة كتبتها المس بيل الى والدها تصف له فيها تفاصيل حفلة تتويج فيصل ملكا على عرش العراق .

٢٨ اب ١٩٢١ كان الاسبوع الماضي اسبوعا عصيبا لكننا توّجنا ملكنا وانا متفقة مع السير برسي بأننا قطعنا نصف المرحلة . لقد تم التتويج في الساعة السادسة من صباح يوم ١٩٢١/٨/٢٣ وقد كانت الحفلة مرتبة ترتيبا نال الاعجاب . لقد نصيبت في ساحة السراي الواسعة منصة علوها قدمان و٦ بوصات ومن ورائها البناية التي يشغلها فيصل كمسكن مؤقت له وتضم بين جدرانها الغرف الواسعة وكانت قد رصت الكراسي وقد احتلتها مجموعة من الموظفين الانكليز والعرب ووجوه البلد وكافة الوزراء ووفود الالوية ابالغ عددهم الفا وخمسمائة شخص في تمام الساعة السادسة لمحنا فيصلا ببزته العسكرية والسير برسي كوكس ببزته الدبلوماسية البيضاء تزينها جميع نواشينه وانواطه وهم ينزلون درجات السراي من مخدع فيصل ويقطعون الطويق الطويل

بالسجاد (مارين بحرس الشرف) وكان منظرهم رائعا حتى اذا ما وصلوا الى موقع الاحتفال وقفنا جميعا عندما كانوا يتجهون الى المنصة ثم جلسنا عندما جلس كل منهم في محله المخصص وكان منظر فيصل مهيبا جدا لكنه كان كثير القلق . وقد القى نظرة على الصف الامامي فلمحني فأشرت له اشارة خفيفة بالتحية ثم نهض حسين افنان سكرتير مجلس الوزراء وقرأ بيان السير برسي كوكس معلنا فيه ان اكثر من ٩٦٪ من سكان العراق قد انتخبوا فيصلا ملكا على البلاد . ثم هتف (يعيش الملك) وعند ذاك وقفنا للتحية وقد نشر العلم الوطني فوق السارية وصدحت الموسيقى نشيد[٢] (ليحيا الملك) لانه لا سلام وطني خاص بهم بعد وعقب ذلك اطلاق احدى وعشرين اطلاقة مدفع للتحية وكان من المدهش ان يرى المرء العراق باجمعه من شماله الى جنوب مجتمعا في هذه الحفلة وهي اول مرة يقع فيها مثل هذا التاريخ .

بيل تتحرك لدعم الترشيح

لم تترك المس بيل شخصية سياسية عراقية سواء كانت موالية لسياسة الاحتلال او منهاهضة له دون ان تحتك بها ووقعت على سلسلة افكارها وبالتالي كان بناء قرارها على تلك الشخصية فهي تقول : التقيت بالسيد حسن الصدر وبعد ان رحب بي قلت له لقد تقرر ان يتوج فيصلا ملكا على العراق فسألني باهتمام بالغ ومفاجئ في نفس الوقت وعلى سورية كلها حتى البحر؟ فأجبته كلا ان الفرنسيين سيبقون في بيروت فقال اذن لا فائدة .

قال فيصل لبيل : أتعرفين لماذا شجعت العراقيين القلائل في سورية في اذار ١٩٢٠ على ترشيح شقيقي عبدالله ملكا على العراق؟ لقد كنت مدركا ان المسألة كلها مضحكة ولكني تظاهرت بتأييدها لكي ارضي شقيقي كانت مهمتي هي تسوية الخلافات العائلية لذلك شجعت ترشيح عبدالله ملكا على

العراق وكنت اعلن ان ذلك امر سخيف .

دور المس بيل في تشكيل اول وزارة في حكم فيصل

هنا ومن خلال رسالتها الى والدها يتضح ما كان للخاتون من دور بارز مهم في تمشية احوال الدولة وهي دون اي حياء (اننا نصنع التاريخ) وتقصد به طبعا صناعة التاريخ السياسي العراقي تحت ظل الانتداب فهي تقول في هذا الصدد ما يلي :

١١ ايلول ١٩٢١ لقد تم تشكيل وزارة فيصل الاولى ونحن بوجه عام راضين تمام الرضى . وقد اضيف وزير ممتاز وهو طبيب مسيحي(٣) نشط متدرب تدريبا حسنا في اختصاصه واصبح وزيرا للصحة وهي وزارة جديدة واذكر بصورة سرية ان هذا من تعييني انا لقد قدمته الى السير برسي كوكس واقترحت عليه احداث وزارة الصحة ان الجميع مسروررون بذلك لكنهم لم يعرفوا بأني فعلتها . ان العراق بلاد صغيرة قد لا يغير رئيس وزرائه شيئامهما من العالم ومع ذلك فقد كنما نصنع التاريخ .

بين الملك فيصل والخاتون

نتيجة التفاعل والانسجام الفكري والروحي بين الملك فيصل والمس بيل توطدت العلاقة القوية التي تربط بين الاثنين وكيف لا تكون مثل تلك الروابط بين الاثنين فالملك مدين الى لمس بيل بعرش العراق ولمثل هذا السبب كانت علاقته الرسمية بها ايجابية ما اتسعت الظروف لذلك . ولعله من المفيد حقا ان نثبت هنا برهانا على تلك العلاقة بين االثنين التي لم تتوثق بين الملك وبين اي انكليزي اخر من ا عمدة الانتداب البريطاني على العراق . تقول المس بيل (قلت للملك عقب مناقشة حادة بيني وبينه امتدت اكثر من ١٥

دقيقة من الكلام القارص جدا باني اذا ما تركته ونحن على تلك الحالة فسوف لا اعود اليه قط . اعتقد بأنه يجب ان تكون تسوية مؤقتة بيننا . واخيرا وبعد ساعتين من ذلك النقاش عانقني بحماسة شديدة وافترقنا بحالة تكاد تكون غير مرضية من الاتصال العاطفي الوثيق بعد اسبوع واحد من ذلك اللقاء الرومانسي بيني وبينه دعاني جلالته للغداء معه وكان حاضرا معله القديم[٤] صفوت باشا العوا فوجته حليفا مخلصا . انه سيقدم مساعدة كبيرة لنا لقد جاءني في اليوم الثاني ورجاني ان اكثر من زياراتي للبلاط بقدر ما يمكن لاني الشخص الوحيد الذي يحب الملك حبا حقيقيا هنا او الذي يحبه الملك في الحقيقة .لقد اتفقت مع جلالة الملك على كتابة تاريخ النهضة العربية من اوله الى اخرين معتمدين في ذلك على يومياته المدونة ومعرفتي انا وستكون تلك المذكرات متعة مدهشة .

علاقة الخاتون بالوزارات القائمة في العراق

بعد ان تعرضنا الى العلاقة الودية بين الملك فيصل الاول وبين السكرتيرة الشرقية لدار الاعتماد البريطاني المس بيل لا بد من التنويه بجوهر علاقتها مع الشخصيات الرسمية في العراق ذات الاتجاهات الفكرية المختلفة وان ما استطاعت الوصول اليه هذه الموظفة البريطانية من امكانية كسب الوزراء ومن ثم السيطرة على اتجاهاتهم والوقوف على ارائهم ومنقشتهم امور بلادهم وهم ضيوف في دارها لم يستطع اوصول ايه اكبر موظف بريطاني عامل في العراق ابتداء من المندوب السامي وحتى اصغرهم وللوقوف على تفاصيل اكثر لنستمع اليها وهي تقول (١٦ كانون الثاني ١٩٢٣ زارني عدد من الزوار الرسميين فقد جاء ياسين باشا[٥] اولا وزيري بصفتي مديرة فخرية للاثار القديمة انه اشد الخيل الدهم سوادا وهو مجرد من المبادي الخلقية تماما اني

اعتقد ان ياسين هو رجل المصير فله من الذكاء والقوة قدر يفوق ما يملكه اي عربي وان جلالة الملك باستطاعته ان يستخدم ياسينا . كما زارني رئيس الوزراء عبدالمحسن السعدون مع جعفر العسكري وناجي السويدي ووزراء اخرون لقد اعلموني بان هناك تعديلا وزاريا سيجري ذلك بتولي ناجي السويدي وزارة العدلية ويتولى رئيس الوزراء وزارة الداخلية اضافة لوظيفته لم امانع في التعديل المنتظر وطلبوا مني ان امهد الطريق عند المندوب السامي لهذا التعديل .

٣٠ كانون الثاني ١٩٢٣ ، ها قد مرت علي سبع سنوات وانا اشتغل في تأسيس دولة عربية وما يعزيني بعض العزاء انا شخصيا اننا اذا اخفقنا في اعمالنا فالاجيال الاخرى قد يصيبها النجاح .

يوم من أيام الخاتون الخاصة في بغداد

بعيدا عن السياسة وشجونها كتبت المس بيل رسالة الى والدها تختلف عن بقية رسائلها اليه او لنقل ان الخاتون لم تترك شاردة وواردة في حياتها اليومية التي قضتها في بغداد دون ان تشعر والدها بذلك وفي هذه الرسالة تخبره عن معاناتها مع طباخها الماهر (مهدي) وذلك بسبب آفة النسيان التيابتلي بها تقولم المس بيل :

والدي العزيز . . انك اذا غادرت انكلترا في منتصف شباط ستكون هنا في منتصف اذار ولكن لا تتأخر عن هذا الموعد لان الجو في نهاية نيسان يكون حارا جدا ويجب ان اكاشفك بأني سوف لن اعود معك عند مغادرتك . اني لا استطيع حقا مغادرة هذه البلاد التي اصبحت مرتبطة بها هذا الارتباط في الوقت الذي تمتد به هذه الازمة في ضغوطها وستمر بها ولا ريب طوال السنة القادمة وانا واثقة بأنك ستفهم ما اعني حين تطلع على علاقاتي مع

الناس هنا . اني قائمة بتأثيث داري بالتدرج وسيكون جميل جدا وسوف تصل الاشياء التي كنت قد طلبتها من لندن لتأثيث الدار ثم انني ا شتريت في الوقت نفسه دولابا اسود جميل ورخيص جدا في الوقت نفسه ولا يمكن تقييم معونة ماري(٦) لي في عمل الستائر والاهتمام بشؤون البيت الاخرى انها اعظم مصدر للراحة لي ولا ادري ماذا كنت صانعة بدونها ثم طباخي الجديد آه يا أبتاه لو رأيته يضفي طابعا ورونقا خاصا لحديقتي حين يتبختر بها بعباءته انه على اجادته الطبخ واحسانه صنع اكعك الممتاز لا يقرأ ولا يكتب ونظرا الى ضعف ذاكرته ترى المصرف اليومي معه محنة من المحن انه كالعادة كما يلي ووفقا لهذا الحوار :

بيل : مهدي . . الحساب لازم اروح للدائرة .

مهدي : خادمج خاتون اشتريت اليوم شيسموه

بيل : شيسموه

مهدي : ثمن يقرأ تين

بيل : هاي اربع عانات وبعد

مهدي : والتلاي هم اشتريت شيسموه

بيل : شنو خلصني يلله

مهدي : خبز ست عانات

بيل : زين وبعد شنو اشتريت

مهدي : زين وبعد اشتريت شيسموه

بيل : يالله السموات والارض شنو؟

مهدي : شكر ربيتن

بيل : زينن ربيتن

مهدي : هاخاتون ترى اني نسيت احسب البيض مال امبارحة ربية واحدة

بيل : خوش استمر

مهدي : وبالتالي اشتريت لحم ربية واحدة

بيل : وبعدين

مهدي : والله اشتريت بعد - اكول خاتون اتريدين اطبخ مرك هالليلة

بيل : مثل ما تريد كمل الحساب

مهدي : على راسي وبالتالي شمسه

وهكذا .. حتى تستولي علي ما بين نفاذ الصبر والضحك نوبات هستيرية . لقد نسيت ان احدثك عن اهم حدث هذا الاسبوع وهو ذكرى المولد النبوي وفي هذه المناسبة تقيم دائرة الاوقاف احتفالا رسميا في جامع الاعظمية الواقع على مسيرة ثلاثة اميال من بغداد والموجود فيه ضريح الامام ابو حنيفة ويكثر تردد الناس عليه . يتألف الاحتفال من مأدبة رسمية واقامة الصلوات وكان موعد بدء الاحتفال في الساعة التاسعة صباحا عند وصولنا وجدنا رجال الدين مجتمعين في دار امام الجامع ولقد جلسنا معهم ساعة او نحوها نتناول اطراف الحديث وبعد تناول طعام الغداء العربي الممتاز والذي كان بكميات كبيرة لا تصدق عدنا جميعا الى مكاتبنا .

حكايات عن المس بيل

عندما احتلت بغداد وبقية مراكز المدن العراقية الاخرى من قبل القوات البريطانية امسى جنود الاحتلال يتنقلون من مكان لاخر في مختلف وسائل

النقل وحدث مرة ان قوة انكليزية يقلها قطار خاص قادمة من مدينة كركوك باتجاه بغداد وصلت الى مدينة شهربان وفي المحطة هاجم فريق من الثوار العراقيون الذين كانوا قد نصبوا كمينا هناك القوة البريطانية التي ينقلها القطار وكان ضمن افراد تلك القوة وبمعيتها (المس بيل) وعندما تم التغلب على القوة البريطانية سيق افرادها اسرى ومعهم (الخاتون) وعلى حين غرة جاء ابن عبدكه(٧) ولمست المس بيل مبلغ الاحترام له من قبل الذين هاجموا القطار وظنته رئيسهم فاحتمت به فحماها وأوصلها الى بغداد دون ان تمس بأي أذى ولمثل هذا الموقف الانساني طلبت منه قبل ان يغادرها اسمه وعنوانه لتجازيه على مدى رجولته وشهامته وموقفه المتميز معها فكان لها ما ارادت واحتفظت باسمه وفي يوم الرابع عشر من حزيران العام ١٩٢٤ القت السلطات العراقية القبض على الشقي ابن عبدكه وارسل مخفورا الى بغداد وبعد تقديمه الى المحاكمة صدر الحكم عليه بالاعدام شنقا حتى الموت وما ان سمعت المس بيل في المصير الذي ينتظر الرجل الشهم الذي حماها وانقذها من خطر محقق عملت ما في طاقتها للتوسط لغرض تخفيف الحكم الصادر بحقه واستطاعت بعد مداخلة من قبل الملك فيصل ان تستبدل عقوبة الاعدام بالاشغال الشاقة المؤبدة فأمضى منها ١٢ سنة وخرج من السجن العام ١٩٣٦ .

المس بيل تعلق على توقيع المعاهدة البريطانية العراقية للعام ١٩٢٢

تعتبر معاهدة ١٩٢٢ المعقودة بين حكومة الاحتلال وبين حكومة عبدالرحمن النقيب اول معاهدة رسمية بين الفريقين المتعاقدين وهي بداية جائرة لوضع العراق تحت قيود الانتداب والسيطرة على كل منابع الخير فيه وانه لمن المضحك المبكي ان يكون التصديق على معاهدة مثل تلك بصورة ذليلة

مهانة تدمي القلب وسوف ننقل هنا ما علقت عليه المس بيل حول المعاهدة وتوقيعها من قبل رئيس الوزراء ومن ثم المصادقة عليها من قبل مجلس الوزراء . تقول بيل :

(١٢ تشرين الاول ١٩٢٢ خرجت لاحصل على شيء ما من البلد قبل وقت الشاي ، فرأيت المندوب السامي متجها بسيارته الى بيت النقيب وهو في كامل بزته الرسمية لذلك قفزت الى الاستنتاج بأن ساعة الصفر كانت الخامسة ، وهذا كان يجب ان تكون لكن السير Cox وجد النقيب معصوب الرأس (كان يشكو ألماً في اذنه) وليس هناك قلم ولا حبر ولا اي شيء اخر وظلا يتحدثان لمدة نصف ساعة عن المطر والطقس الجميل كأن لم تكن هناك معاهدة قد سمع بها احد واخيرا قال له السيد برسي ماذا تقول بشأن المعاهدة؟ فنظر اليّ النقيب مشدوها تماما ثم التفت السير برسي الى حسين افنان[٨] مستفهما بقوله : هل اتيت بها فاخرج حسين افنان نسخة منها بالانكليزية واخرى بالعربية فصرخ النقيب يقول ما هذا انا لا استطيع التوقيع على هذه لا اعرف محتواها غير ان السيد برسي اخبره بان هذه هي النسخة الانكليزية وان الترجمة العربية هي ترجمة مضبوطة لها وحين ذلك راح حسين افنان يترجم بعض الفقرات من الانكليزية ويقرؤها عليه واخيرا فوض النقيب امره الى الله ووقع على النسختين معا . ان النقيب ما زال مريضا . اذا مات هذا العجوز المسكين فسوف يكون في موته راحة لنا من بعض الوجوه) .

هذا عن توقيع المعاهدة من قبل النقيب رئيس الوزاء العراقي اما ما كتبته المس بيل حول مصادقة مجلس الوزراء على المعاهدة المذكورة فهذا نصه لنترك الحكم للقارئ على ما كان يعاني منه شعب العراق العظيم من قبل المحتل الغاشم .

(ركبت مع الميجر موري سيارة في طريقنا من الاعظمية الى بغداد وما مر على تحركنا الا زمن قليل حتى التقينا بشخص كانت تشع من وجهه اشعة البشر والفرح . لقد كان ذلك الشخص صبيح بك نشأت فحيانا وأوقفنا ثم قال لنا وهو يصعد انفاسه بأن مجلس الوزراء قد صادق على قرار المعاهدة ومضينا في طريقنا والتقينا بسيارة اخرى كان شاغلها يشع منه المجد كالشمس ومن يكون ذلك غير توفيق الخالدي وزير الداخلية وتمادينا في السير انا والميجر موري ونحن نهتز من الضحك لاننا كنا نفترض بأنه ليس هناك بلاد اخرى في العالم يوقفنا بها الوزراء لينقلوا لنا ما تقرره الحكومة من قرارات) .

بل تصف الملك فيصل

عندما حلت المنيّة بالملك فيصل الاول في العام ١٩٣٣ اقيمت حفلة تكريم كبرى من قبل الطوائف المسيحية المتواجدة في العراق وفي تلك الحفلة ألقى الأب انستاس ماري الكرملي خطابا بليغا حول شخصية الراحل العظمي واستعرض ضمن ما ورد في خطابه ما شادت به المس بيل وافصحت عنه عن شخصية الملك فيصل امام الكرملي وهذا مقطع من خطابه المتعلق بما نحن في صدده . قال الكرملي :

(ان اغلبكم عرف المس بيل فقد سمعتها مرارا تقول ان الملك فيصل لا يستحق ان يكون ملكا على العراق فقط بل يستحق ان يقبض على صولجان املك في اية دولة غربية كانت من ديار الغرب في اوربا او حتى في ربوع امريكا . فان المناقب التي امتاز بها او بعض المناقب التي توجب ان تكون في ملوك العرب قد اجتمعت كلها في صاحب العراق وسيده العظيم فانه اظهر من الكياسة والدراية حين تكلمه عن العراقيين ما لم يشتهر به احد الملوك الكبار وله من رباط الجزش ما لا تزعزعه زلازل الارض والسماء وفيه من الحزم

والعزم ما يجعله كثير التدبير والتفكير في كل امر يأتيه وهو لا يعمل عملا مدفوعا اليه بالهواء او المحاباة انما يأتي الامور من ابوابها وبعد ان يكون قد غار عواقبها وميز محاسنها من مساوئها . هذا ملخص ما كنت اسمعه مرارا من تلك الانكليزية الشهيرة في سياسته وعلمها) .

نصب تذكاري للمس بيل

تقديرا للخدمات التي قدمتها المس بيل في حقل الاثار وخاصة دورها الرائد في انشاء بناية المتحف(٩) العراقي القديم فقد اقيم لها نصب يتكون من لوحة تذكارية يتوسطها تمثال نصفي وظل التمثال المذكور قائما في موقعه حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ حين تم رفعه ولقد حضر حفلة ازاحة الستار عن اللوحة التذكارية تلك الملك فيصل الاول والمندوب السامي البريطاني ووزير معارف العراق وندون هنا نص الخبر كما اوردته مجلة لغة العرب في عددها الصادر في الاول من شهر شباط ١٩٣٠ .

ازاحـــة الستار

في الثامن عشر من كانون الثاني وفي الساعة الثانية و ٤٥ دقيقة بعد الظهر ازاح جلالة مليكنا العظيم الستار الذي كان يغطي تمثال المس بيل وذلك بحضور فخامة المندوب السامي والوزراء وممثلي الدول الاجنبية والجالية الانكليزية والتمثال قائم على لوحة من نحاس محلى بنقوش حجمه متر مربع واحد مبني في الحائط واللوح مقسوم الى شطرين يرى في شطر اليسار كتابة انكليزية وفي الشطر المقابل له نصها بالعربية وهذه هي بحروفها .

كرترد بيــل

التي ذكراها عند العرب كل اجلال وعطف اسست هذا المتحف في العام

١٩٢٣ بصفتها المديرة الفخرية للعاديات في العراق وجمعت الاشياء الثمينة التي يحويها باخلاص وعلم دقيق واشتغلت بها مدى حر الصيف الى يوم وفاتها في ١١ تموز ١٩٢٦ الملك فيصل وحكومة العراق قد امر مشكورا لها على اعمالها في هذه البلاد بان يكون الجناح الرئيسي باسمها وبإذن منها قد قام احد اصدقائها هذه اللوحة . وفي نهاية الحفلة صفق الملك وجميع الحاضرين ثم تقدم الملك فيصل واخذ ينعم النظر في اللوح ثم سلم على فخامة المعتمد السامي وسائر المدعوين وكان ذلك في الساعة الثالثة والجماعة في الشارع تشيععه بالتصفيق العجاج .

بين ساطع الحصري والمس بيل

وعلى ذكر الاثار لا بد لنا من ان ندرج ما كان بين السيد ساطع الحصري الذي شغل منصب وكيل وزارة المعارف وبين المس بيل التي كانت مشرفة على موضوع الاثار في العراق ولقد اورد الحصري ما كان يدور بخاطر المس بيل وهو معها في نقاش علمي من اراء وخطط مستقبلية تضر في مصلحة البلاد . قال الحصري(١٠) :

(عندما ذهبت الى زيارتها قابلتني بحفاوة بالغة وقالت الجرائد اخذت تكتب عنك قبل وصولك الى العراق وانا كل ما كمنت اقرأ الجرائد ساطع بك . سطع بك كنت اشتاق الى الالتقاء بك واخذت تتكلم بنوع من الاسترسال وانا رزيت ان اتخذ موضع السامع لاتبين سلوكيتها واكتشف اتجاهاته الفكرية والسياسية لذلك لم اقطع عليها الكلام ابدا ولم ابدي اي رأي كان الى عند الضرورة القصوى وكان مما قالته انا من زمان كنت اقول لازم تؤلف حكومة عربية هذه المسألة بالنسبة الينا مسألة شرف وكرامة وكنت ارغب كثيرا في مجيء سيدنا فيصل الى هنا اعترف انني املي هذا كان قد اخفق

مدة من الزمن مع ذلك كنت اتمنتى من كل قلبي ان شاء الله يجيء . . ان شاء الله يجيء الحمد لله انه جاء الى العراق واصبح ملكا وانا لا اشك انه اذكى واقدر كل امراء العرب . هنا الاهالي لا يحبون سيدنا فيصل شيوخ العشائر يأتون الينا ويسألوننا هل تأذنون لنا بالذهاب الى فيصل لتقديم التهاني له وانا اقول لهم انتم مأذونون بل مجبورون وانا اتمنى ان تتغير الاحوال خلال بضعة اشهر حتى يذهب هؤلاء الشيوخ الى سيدنا فيصل ويسألونه هل تسمح لنا بزيارة الخاتون . قلت لجلالة الملك لا لزوم ان تتكلم الانكليزية لان هذه الحكومة ستكون عربية ان تكلمت الكردية سيكون اكثر فائدة من الانكليزية . حتا ساطع بك ماكو حس وطني ان الذين يتحسسون باحساسات وطنية لا يتجاوزون العشرة هذا الحس موجود عند جعفر عند نوري وعند عدد قليل اخر ولكن لا يوجد عند غيرهم من الناس والعيب في ذلك ان الحس الوطني كان مفقودا في التاريخ العربي بأجمعه وقالت الكل يركضون وراء الفلوس . . وراء الوظيفة المنفعة تتحكم فيهم وقليل منهم يتحسر على الاتراك ثم اضافت نحن نريد الخير للاتراك ايضا ولكننا لا نريد ان تتوجه هذه البلاد نحو الاتراك . وقالت ان الامور يجب ان تسير في التدرج يا واش . ياوش لان الشيء الذي يكتسب بسرعة يضيع بسرعة كل شيء كل اصلاح يجب ان يتم بالتدرج . وحول مداخلات المس بيل في امور الاثار ومحاولتها فرض ارائها التي هي اصلا في غير مصلحة الوطن يقول المرحوم ساطع الحصري ما يلي :

(عندما كنت معاونا لوزير المعارف جاءت المس بل يوما لزيارتي بصفتها المديرة الفخرية لدائرة الاثار وسلمتني مشروع قانون الحفريات الاثارية وطلبت مني ارساله الى مجلس الوزراء بالسرعة الممكنة لان المستر (وولي) سيصل قريبا ليبدأ حفرياته الاثرية في منطقة (اور) (UR)- وبعد دراستي لمشروع قانون

الاثار وجدته غير نافع فكتبت مذكرة سردت فيها انتقاداتي ومقترحاتي بشيء من التفصيل وعندما عادت المس بيل للوزارة بعد بضعة ايام لتعقب القضية اعطيتها نسخة من مذكرتي وعندما اطلعت عليها صارت تقول بعصبية واضحة هذا ما يصير ساطع بك بعدين ما حد ياتي لاجراء الحفريات وعندما استعادت هدوءها اخذت مذكرتي وضمتها الى اوراقها وخرجت) وبعد عشرة ايام استطاعت ان تحصل من مجلس الوزراء على قرار يقضي بفك دائرة الاثار من وزارة المعارف والحاقها بوزارة الاشغال والمواصلات .

بين المس بيل وأعوان فيصل

نتيجة التعاطف الكبير مع سياسة الملك فيصل التي كانت المس بيل هي صانعته بسياسته موجهته كان احتكاكها مع اعمدة الملك فيصل احتكاكا مباشرا وذلك للبرمجة معا فيما هي مقترحته بشأن الموقف السياسي لكل قضية من القضايا التي كانت مطروحة على الساحة العراقية في ذلك العهد . ولعله من المفيد ان نذكر ان تعارفها مع اغلب رجاله تزامن مع معرفتها به واول لقاءته معه ومن بين اولئك الاشخاص الذين كانوا من اخلص اعوان فيصل المرحوم رستم حيدر (١١) فكان ان التقى بالمس بيل في العام ١٩١٩ وقد جرى حوار بينهما على الشكل التالي في مذكراته :

الجمعة ١٩١٩/٣/٢٨ بعد الظهر جاءت المس بيل معاونة الحاكم في العراق ومعها الكولونيل ولسن فاجتمع معهما الامير بضع دقائق ثم اعتذر وذهبت ومن جهة ما قالته المس بيل (ان العراق فقير واهله فقراء لا يمكن ان يؤسسوا لهم مدارس في بلدهم وقد فكرنا ان نرسل بعض الاولاد الى المدرسة الامريكية في بيروت كذلك لا يمكن انشاء اعمال الري الكبرى لان ذلك يتطلب اموالا كثيرة وايد كثيرة الاهالي قلة ولا يجب ان نأتي برجال من الهند

والصين لاننا لا نريد ان نغير البلاد بدخول عناصر جديدة فيها وكثرة الايدي لا تكون الا بعد عشرين او ثلاثين . فيزداد نفوس بغداد ويرتقي الري معه) .

هذا الكلام نشكر المس بيل عليه في قسمه الاخير اذ انها تريد المحافظة على طبيعة البلاد . نشكرها لانها تمانع من دخول الاجانب المهاجرين من الهنود والصينيين . ماذا سيحل في العراق اذا هجم عليه تيار عظيم من الهنود؟ لا سمح الله تذهب شخصيته وهو الان لا يحتوي على اكثر من ثلاثة ملايين من النفوس مع انه اذا عمر يعيش ضعفي عدد نفوس مصر . اما قولها ان العراق بلد فقير فاننا نعلم فقره الحالي وعلى هذا القول لا يفهم منه انه فقير الى درجة ضعف مستوى التعليم فيه . ان العراق مع الاعمال التي تمت فيه حتى الآن يمكن ان يصرف مئات الالوف من الجنيهات على التعليم ولكن ما العمل اذا كان هم المستعمرين المادة لا الفكر؟ يهمهم الاحوال لا الادمغة يحتاجون الى ايد تحرث لا الى ايد تعمل وادمغة تفكر . أليس هذا الذي يصيح من اجله ونقول نريد امة تهذب اخلاقنا تنشر بيننا العلوم والمعارف وترفع مستوانا العلمي والمادي ولسنا بحاجة الى امة لا تنظر الا الى الماديات فقط .

المس بيل تتحدث عن نوري السعيد

من المعلوم ان المرحوم نوري السعيد كان رجل الانكليز الاول في العراقمنذ ان تعرف عليهم في بداية الحرب العالمية الاولى وحتى يوم مصرعه في الخامس عشر من تموز ١٩٥٨ ومن خلال هذا الالتحام الروحي بينه وبينهم استخلصت المس بيل مشعرها هذه عنه . قالت الخاتون :

(ليس بين الناس جميعها هنا ان الملك فما دون شخص احبه محبة حقيقية مثل نوري السعيد ولا ادري كيف استطعنا كسب مثل هذه الشخصية

المدهشة فبإمكانه ان يفهم موضوع الحديث بنصف كلمة فقط ولقد ادرك وجهة نظرنا وشعورنا بالنسبة الى مقاييس الصدق والشرف وضعها نصب عينيه واتخذها هدفا له مما قد يستحيل القيام به في الشرق مع كونه المثل الاعلى في النهاية مع انه احدنا يعلم ان يقصر كثيرا في ادراك مستوانا ومقاييسنا فانه نشعر بالخجل حينما يجد مقدار تقصيرنا بنسبة لما يكون عليه مستوانا . اما ثقة نوري المطلقة باستطاعتنا وتعلقنا هي شيء يجعل وجهه يحمر خجلا على الدوام .

بين جعفر العسكري والمس بيل

كان اللقاء الاول بين جعفر (١٢) باشا العسكري وبين المس بيل بعد انتهاء الحكم الفيصلي في بلاد الشام حث تم لقاؤهما . وفي تلك المقابة طلب منها جعفر ان تتوسط له عند حكومة الاحتلال التي كان يرأسها ولسن على السماح له للقدوم الى بغداد ومنذ ذلك اللقاء استمرت العلاقة القوية بينهما ولاجل القاء نظرة شاملة على شخصية جعفر ومدى تأثرها بالمس بيل نطالع ما كتبه هو بنفسه عن ذلك اللقاء :

(كنت دائما اثق بانه اذا سنحت الفرصة للعراقيين ودعوا الى خدمة مسقط رأسهم وهم يفعلون ذلك بلا ريب يحسنون ادارة وطنهم ويضعون حدا لضباط الانكليز عن حكمهم (بالطرة والكتبة) واني قابلت امس بيل المشهورة بثقافتها العلمية واسفارها في الاقطار العربية . قابلتها يوما عند الامير فيصل ورجوتها ان تتوسط لي عند ولسن لدخولي الى العراق واشتغالي بلزراعة فوعدتني خيرا وبعد فترة طويلة جاءني منها كتاب تقول فيه ان الحاكم المدني غير مستعد الآن لاجابة طلبي هذا ولم استغرب ذلك الجواب لان الاساليب الادارية في العراق في ذلك الوقت وافكار موظفي حكومة الهند وآمالهم

الكبيرة بربط العراق بالهند وجعله مستعمرة هندية كامنت غير خافية علي) .

وتعترف المس بيل بأن العسكري كان يراسلها بهذا الخصوص ويطلب منها دوما مساندته بالتوسط له بدخول العراق وهي تقول (كان جعفر يأتي اليّ طيلة الشتاء الماضي مستفسرا فيما اذا كان بامكانه المجيء ولكن ولسن لم يسمح لي بتشجيعه وعلى اية حال ماذا كانت فائدة تشجيعه على القدوم ثم يتم تجاهله لقد كمنت واثقة من ذلك) .

غير ان سياسة بريطانيا تغيرت تجاه جعفر العسكري فوصلت بغداد البرقية التالية في ١٩٢٠/٧/١ :

من اللورد اكليني ـ الاسكندرية

اني أوصي بشدة ان يدعى جعفر باشا الى بغداد بأسرع ما يمكن ولا اشك انه سيكون عونا كبيرا لنا فهل تتفقون معي في هذا ؟

وعلقت المس بيل على ر سالة اللورد اكليني بما يلي :

هناك نقطة مضيئة واحدة ان وجود جعفر باشا معنا للعمل سوية سيقضي على الدعاية المناهضة لبريطانيا التي كانت فيصل معارضا لها على الدوام . وهكذا وصل جعفر الى بغداد في اليوم ١٩٢٠/١٠/٢٢ . وبعدها قالت عنه المس بيل في رسالة الى ابيها من بغداد في ١٩٩٢/١٢/١٨ :

(أتمنى لو كان هناك اشخاص اخرون في مثل كماله واستقامته واعتداله ان اخلاص جعفر للملك وتفانيه من اجله رائع انني اعرف الرجل من كل ناحية فهو يرجس بنفس الدرجة في محبته وشهامته نحو اهله واطفاله وفي اخلاصه اللامتناهي لفيصل الذي ايده الرجل الوحيد القادر على قيادة القضية العربية الى النجاح والواقع ان هذا رأيي أيضا .

أصدقاء الخاتون من العراقيين

خلال تواجدها الطويل ارتبطت المس بيل بالكثير من العوائل العراقيين فكان مركزها بينهم مركز القريب للقريب والصديق الصدوق . ومن ابرز تلك الشخصيات التي تعرفت عليها وشدت ازر الصداقة الوثقى معها الحاج ناجي (١٣) رئيس بلدية الكرادة الشرقية والحاج جعفر عطوفة رئيس بلدية الكاظمية والسيد موسى الباجه جي من اعيان بغداد وغيرهم كثيرون غير ان ارتباطها الوثيق بالحاج ناجي اصبح معروفا لكل اهالي بغداد قاطبة فكانت تزوره زيارات اسبوعية منتظمة وبالتحديد صباح كل يوم أحد كما انه من جانبه كان يقوم بزيارته في دار سكناها مرة وفي مكتبها بدائرة الاعتماد البريطاني مرات اخرى الا اننا نجهل تاريخ تعرفها عليه بأي كيفية كانت والشيء الذي أعتقده ان التسمية التي كانت يطلقها العراقيون على الانكليز وما زالوا وهي لقب ابو (ناجي) جاءت من كثرة اتصال المس بيل بالحاج ناجي موضوع البحث . والا فرغم السنين الطويلة التي امضيتها في سبيل الحصول على معلومات عن سبب اطلاق العراقيين هذه التسمية على الانكليز منذ الاحتلال البريطاني لقطرنا العزيز وحتى اليوم فلم استطع الوصول الى ذلك ولم يبق لي غير الاعتقاد بان التسمية جاءت نتيجة ذلك الاتصال . وسنورد هنا بعضا من مذكراتها حول اتصالها بالحاج ناجي حتى يستطيع القارئ العزيز ان يطلع على بعض من جوانب علاقتها معه .

٣ تشرين الاول ١٩٢٠ ركبت كعادتي في كل يوم احد لأزور الحاج ناجي قبل تناول الفطور فوجدت عنده عددا من الضيوف يجلسون في جرداغة وكان بيدهم بعض الاشجار التي بعثوها اليه ويقولم لهم انه اول مقص من نوعه يصل العراق .

٥ حزيران ١٩٢٠ كنمت قد ذكرت للحاج ناجي وهو من انصار فيصل اني مزمعة الذهاب الى خارج بغداد فبعث لي برسالة مستعجلة يرجوني فيها ان امر عليه في مساء ذلك اليوم فابتدرني يقول (بعثت اليك برسالة لاني لا اريدك ان تبتعدي عن بغداد في الوقت الحاضر فقلت له اني غير ذاهبة . ردّ عليّ يقول الحمد لله ارجو ان تعلمي ان المندوب السامي هو مثل الله سبحانه وتعالى وانت بمقام النبي عيسى فكيف يستطيع الله يعلم ما يجري في العالم اذا لم تكوني فيه انت؟

١٩ حزيران ١٩٢٠ ولما كان اليوم هو يوم أحد ركبت والمستر تود قبل الفطور الى الحاج ناجي وهناك اخذني الحاج ناجي جانبا وافضى اليه بانه يفكر في الذهاب الى البصرة مع جماعة من المستقبلين للامير فيصل عند قدومه الى البصرة مع جماعة من المستقبلين لكنه يخشى الضياع من شدة الازدحام فقلت له اني سأزودك بكتاب تقديم الى المستر كورنوالييس فانه قادم مع فيصل .

٥ تشرين ثاني ١٩٢٤ تناولنا الشاي انا وايلزا وماري والملك والامير غازي وصبيح بك عند الحاج ناجي في عصر هذا اليوم وامضينا وقتا ممتعا في بستانه وكانتن ضيافته شيقة .

١٦ شباط ١٩٢٠ اخذت الملك ليرى تفتح ازهار المشمش في الكرادة لم اخبر الحاج ناجي بذلك مقدما ولذلك لم يكن هناك مع الاسف على ان الملك وجميع من كانوا معه اعجبوا كثيرا بالطريقة اللطيفة التي كانت بعثني بها بالبساتين وشتلا الاشجار المثمرة وكان هناك احد اولاد الحاج ناجي فوعده ان يرسل له اي شيء يطلب منها كان الملك يحتجا الى شتلات الاشجار المثمرة ليغرسها في قطعة الارض الكبيرة التي اشتراها من مزرعة الاليفان وكان عازما

على جعلها بارك عام . وبعد ان علم الحاج ناجي في موضوع زيارة الملك الى مزرعته اهدى له ثلثمائة غرسة آمل انها ستلقى مستقبلا علاقات ودية بينه وبين البلاط فهو بالنسبة لطريقته الخاصة من اعقل الناس الذين عرفتهم ويعتبر جنتلمان فضلا عن كونه سخيا جديرا بالاحترام وتأتيحاجة الملك الى الاشجار من كونه قد اشترى قطعة ارض من مزرعة الديري وينوي جعهلها حديقة عامة لا ادري من اين جاء بالمال لرثها لانه لا يملك ولا سنتا واحدا من ماله الخاص على ما اعلم . غير انه حتى لو كان قد استقرضه فاني مسرورة لذلك . لانه يعد اولا دلالة على تأصيل جذوره في البلاد وثانيا لانه يهيئ له شيئا يفعله في الخارج ويمهد له سبل الاحتكاك بالناس من مختلف الطبقات .

اما الشخصية الثانية التي اعجبت بها المس بيل من العراقيين غير الرسميين فهي شخصية (موسى الباجه جي) التي كانت قد استأجرت منه دارها الكائن في محلة السنك عند اول قدومها الى العراق وهو اصلا من الملاكين المعروفين ولقد توطدت العلاقة بينهما فكانت الخاتون تقوم بزيارة عائلته في دارها وتدعوها الى حفلات الشاي التي كانت تقيمها الى سيدات المجتمع البغداد ولنسمع منه ما تقول عن موسى الباجه جي .

٨ كانون الاول ١٩٢٠ لقد توفي قبل ليلتين عزيزي موسى الجلبي (الباجه جي) فجأة وكان موسى مع النقيب ووجيه اخر قد توفوا منذ ان ذهبت للتمتع بعطلتي وهو اقدم صديق لي هنا . ان الحديقة الواسعة التي هي ملحقة في داري تعود له ايضا ولكني لم اكن احظى بالحنان الودي منه فقط بل كمنت احصل ايضا بالتقرير الصريح القيم لسياستنا لقد كان متكلما صريحا غير هياب وكان يؤسفني ان اكون قد ثقلت عليه بزياراتي المتعددة له طلبا للحصول على المعلومات والمشورة دون ان يكون في وسعي ان اذهب الى غيره فليست

بغداد هي بغداد نفسها من دونه ومن دون الصديق الاخر عبدالرحمن جميل .

وفي مكان اخر من مذكراتها تقول المس بيل وهي تصف صديقا اخر لها ما يلي :

٣٠ تشرين ثاني ١٩٢٠ وصلني اليوم كلبان جميلان من كلاب الصيد (السولقي) العربية ارسلها لي صديقي فهد بك شيخ عنزة لقد جاءا ماشيين على الاقدام لمدة عشرة ايام عن طريق الفرات مع اثنين من افراد القبائل فوصلا ولقد اوشكا ان يموتا من الجوع انهما الان يجلسان بجانبي وانا اكتب لكما رسالتي هذه . هذا بالاضافة الى مجموعة كبيرة من الاصدقاء المنتشرين في كافة انحاء العراق وهي تعامل كل منهم حسب مقتضيات السياسة الاستعمارية البريطانية التي كانت هي واحدة من ابرز اركانها .

بيل تلتقي بشباب العراق لكسب الود

بعد تتويج الملك فيصل على عرش العراق اخذت المس بيل تتقرب الى بعض الشباب (١٤) المتعلم من العراقيين في محاولة لكسب الود وجعلهم من المماشين لسياسة بريطانيا في العراق وكان اغلب اولئك من الذين حصلوا على قدر غير قليل من انواع العلم والمعرفة سواد داخل العراق او خارجه ولقد ورد في احدى رسائلها الى والدها انها اجتمعت مع مجموعة من الشباب المثقف واوضحت لهم ما يجب ان يعلموهن في سبيل خدمة العراق حيث يتطلب الوضع الراهن العمل بصورة سريعة لتقديم افضل الخدمات لبلدهم لا سيما وهم من الشباب المتعلم وهي ستكمون دوماً في دعمهم وتلبية مطالبهم في اية وظيفة يرومون الحصول عليها في مختلف وزارات الدولة .

دور المس بيل في تشكيل الوزارات

باعتبارها مستشارة لدار الاعتماد البريطاني فكان تداخلها في كل صغيرة وكبيرة في عالم السياسة العراقية واضحا لا بل ضروريا حسب قناعة المندوب السامي بالذات في قابلياتها الفائقة التصور وذكاؤها الحاد وسرعة تداركها المواقف الحرجة ولعله اهم ما صادفها بعد التتويج هو تشكيل وزارة عراقية جديدة حسب ما تقتضيه الاصول الدستورية وهي في هذه الاسطر من مذكراتها تسجل بكل وضوح انطباعاتها عن كل مرشح من المرشحين الذين سيتم اختيار اي منهم لشغول حقيبة وزارية وخاصة اذا كانت تلك الحقيبة من الحقائب ذات الحساسية في شؤون المواطنين وهي هنا تصف ما عانته في سبيل ترشيح الوزير لمنصب وزير الداخلية .

٤ ايلول ١٩٢٠ حدثني فيصل بجد عن الوزارة ان المشكلة المحيرة هي وزارة الداخلية وكنت قد شعرت منذ ان اخرج السيد طالب من البلاد . وتعد التعيينات الاولى هذه بالغة الاهمية بالنسبة لفيصل لان الناس ستحكم عليه بواسطتها . اذ عين وزراء صوريين لكونهم اناسا مأموني الجانب موالين لنا فقط . فيقول جميع المتحمسين الذين يريدون ان يعملوا ان الوزارة ما هي الا مهزلة . وما فيصل سوى العوبة بأيدي الانكليز . ولما كامنت هذه الوزارة من جهة اخرى ستشرف على دعوى المجلس التأسيسي ووضع القانون الاساسي للبلاد فيجب ان تكون قوية صادقة العزم منذ اللحظة الاولى وابرز من يليق للداخلية ناجي السويدي غير انه مع كونه بارعا صادق النية غير ثابت في مبدئه . وقد ايقنت ان السير برسي كان محقا حينما قال في مبدأ الامر انه لا يريده على ان الصعوبة في ايجاد بديل له من غير الوزراء الصوريين قد جعلتني افكر بفكرة اخرى . فعلينا ان لا نغمض جفنا اذا ما عين ناجي في الداخلية .

وأعتقد اننا بالرقابة المستديمة يمكننا ان نحمله على السير سيرا مستقيما . وقد بينت هذا لفيصل ـ لكنني اضفت قائلة اني خادمة من خدام السير برسي ولا يسعني ان احمل رأيا يختلف عن رأيه . على اني اذا وجدت المستر كورنواليس يحمل الرأي نفسه فسأواجه السير برسي في صباح اليوم التالي وأحاول تبديل رأيه في موضوع ناجي ـ لقد ذهبت الى كورنواليس فألفيت انه يوافق على ما أرتأيه . لكن السير برسي لم يكن بالامكان زحزحته عن رأيه .

وأخيرا وقع اختيارهم على توفيق الخالدي احد (المبعوثين) السابقين . وهو رجل بارع حسن الثقافة والتعلم . غير ان المشكلجة هي انه يشتهر بميله للاتراك . وسوف لا يحظى بفيصل واعتماده قط .

ان واحدا من اسوأ الانذال قد عين ناظرا لخزينة فيصل الخاصة . وكمنت اعرف الرجل منذ عام ١٩١٦ ولم اعرف عنه شيئا قط سوى انه يثير الاضطرابات والقلق وكان في بعض الاحيان اسوأ من ذلك بكثير . وقد اتصلت تلفونيا بالمستر كورنواليس حول الموضوع انه لم يعرف بوجه خاص . لقد قيل له فقط ان اخلاق طه لطفي هذا تشبه اخلاق المستر تيرابين من جديد وبالنسبة للاشخاص من امثال طه لطفي انني يجب ان اكون شيطانا فظيعا في الذاكرة والتسجيل لاني بقيت اجلس في وسط الشرات مدة طويلة من الزمن . واصبح جميع الذباب والبق والبعوض وحتى الذباب الصغير معروفا لديّ ولنعد الى الناس الميالين للاتراك فهناك دعاية قوية تبث الآن في كل مكان ويقوم السيد احمد السنوسي بارسال كميات من الرسائل يحرض فيها القبائل والاشخاص على الثورة ضد فيصل باسم الاسلام .

وتدحرج داخلا عليّ في هذه اللحظة جعفر (العسكري) ليقول لي ان تعيين توفيق الخالدي سيكون شيئا مهلكاً لان جميع المنضمين الى الحزب

التركي سيجلسون منتصبي الاذان وهو متأكد من انه سوف لا يستطيع جمع مجندين للجيش العراقي في هذه الظروف والاحوال وكان قد اخبر فيصل بانه سيستقيل فهاجمته عن هذا وقلت له بأنه يترتب عليه ان يخدم في السراء والضراء مثلنا جميعا . وحين ذاك طلب اليّ ان اذهب معه لمقابلة فيصل . وكان قد ساوره اليأس واخذ يتحدث في موضوع الذهاب الى انكلترا وعرض الامر على المسؤولين فيها . وعند هذا الحد قفزت الى سيارة جعفر وذهبت لمقابلة فيصل حيث كان من سروري ان اجد المستر كورنواليس موجودا ايضا وجاء الكولونيل جويس (المشاور العسكري) كذلك فقلنا لفيصل متحثين بان لا يذهب الى لندن في الوقت الحاضر لان البلاد بأجمعها ستقول بانه اختلف مع السير برسي بشأن الوزارة . ويكون ذلك شؤماً على كليهما . واظن اننا قد اقنعناه عن رأيه . لكننا لم نذبه بعيدا بالنسبة لحديث الوزارة .

المس بيل في نظر الانكليز

كان للعمل الوظيفي الذي اوكل الى المس بيل في العراق قد جمعها مع الكثير من ابناء جلدتها الانكليز الذين يعلمون سوية وهم ضمن حملة الاحتلال البريطاني للعراق ومما لا شك فيه فقد كان لعارفيها رأي خاص فيها وكان اول من تحدث عنها السير همفري دوبس المندوب السامي البريطاني في العراقي والذي عملت معه لفترة طويلة منذ ان كان يشغل منصب معاون الحاكم العام السير برسي كوكس . فقد ورد في التقرير الرسمي الذي رفعه المندوب السامي الى وزارة المستعمرات البريطانية حول الموظفين العاملين تحت امرته ما يلي عن المس بيل :

(من الصعب ان يكتب عن خدمات المس بيل للحكومتين العراقية والبريطانية معا من دون ان تبدو مبالغا فيها فان اطلاعها الواسع المدهش عن

هذه البلاد وسكانها وعطفها عليهم يساعدها على التسرب الى عقولهم كما ان ايمانها غير المنطفىء يحول دون خمود عزيمتها بسبب ما تجده هنا احيانا . وان تعرفها اطويل على شؤون القبائل والشيوخ يجعل مشورتها في الازمات ناجعة وكثيرا ما يتكرر وقوعها في شؤون القبائل شيئا لا يثمن بثمن كما حيويتها واتساع ثقافتها يجعلان من دارها قبلة لاخر ما يمكن الحصول عليه في المجتمعين الاوربي والعربي في بغداد انها في الحقيقة همزة وصل بين العرب والانكليز) .

وقال عنها السيد دوبس في مكان اخر ما يلي :

(لا تحتاج قابليات المس بيل الخارقة وميولها الى المزيد من شهادتي بحقها لكني اقدرها اليوم اكثر ما كمنت اقدرها فيه من العام الماضي وما زلت ممتناً جدا منها لكل ما كانت قد فعلت خلال الوقت العصيب الذي مر علينا) .

اما من جانبها فهي تصف السير دوبس كالآتي :

(هل تعلمون بأني اكن اعجابا عظيما للسيد هنري دويس لانه على احسن ما يكون في اعماله فانا معجبة للغاية بالرسائل التي يرسلها الى الوطن انها جريئة ومنورة جدا لذلك فهو داري عظيم ا لشأن انه سيتمتع بالاجازة في الاسبوع المقبل وسيتغيب عنا لمدة شهري .)

ولنترك الآن الجانب السياسي لنقيّم المس بيل ولنستمع الى رأي بها من قبل زميلة لها على كرسي الدراسة في احدى كليات جامعة اكسفورد :

قالت جانيت هوكارث تصف المس بيل :

(كانت تلقي بنفسها بطاقة لا تكل في كل جانب من حياة الكلية فهي تسبح وتجدف وتلعب التنس والهوكي وتمثل وترقص وتشارك في المناظرات

وتتابع ما ينشر من الادب الحديث وتقص لنا الاقصيص عن الكتاب المعاصرين اصدقاء طفولتها ومع هذا كل كانت تنفق سبع ساعات في العمل الدؤوب ظرفت منه بعد سنتين بدرجة امتياز في التاريخ الحديث) .

اما شهادة احد زملائها في الخدمة بالشرق وهو لورانس فهو يصفها (بصاحبة العقل الصغير التي لا تعرف ما تقول) .

مذكرة للمس بيل حول شؤون العراق

كانت المس بيل قد رفعت مذكرة (١٥) الى وزارة المستعمرات في لندن كتبتها في العام ١٩١٩ اوضحت فيها مجريات الامور في العراق وعن مدى انشغالها منذ ذلك الوقت بتهيئة من سيكون ملكا على العراق كما انها قامت بمشاورات مكثفة مع رئيس الوزراء نقيب اشراف بغداد حول العديد من المواضيع ذات المساس بالساحة العراقية وهذا هو نص المذكرة .

(ذهبت بموعد لزيارة النقيب في اليوم السادس من شباط لاودعه بمناسبة سفري الى انكلترا في الثامن منه . وقد وصلت الى الدار بوقت ابكر مما كان يتوقعه فاستقبلني ابنه السيد هاشم وجلست اتحدث اليه لعدة دقائق قبل ان يدخل النقيب . وكان النقيب منذ وقت الاحتلال يسكن في داره المقابلة لتكية عبدالقادر التي يرأسها هو . حيث ان الدار التي كان يشغلها في العادة على النهر بالقرب من (المقيمية) كانت قد اخذت منه لسكن الضباط بموافقته وبيته مرتب ترتيبا بسيطا باعتناء . وتقع الغرفة التي يستقبل فيها زواره في الطابق الاول فيها شبابيك تطل على حديقة صغيرة زرعت فيها اشجار البرتقال وقد صفت حول جدران الغرفة ارائك صلبة مستقيمة مغطاة بالخام الابيض وهناك في احدى الزوايا بالقرب من الشباك حيث يجلس

النقيب منضدة صغيرة مغطاة بالخام الابيض يوجد فوقها على الدوام كتاب او كراس . والجدران مطلية بالورق الابيض والغرفة غير مزدانة بزينة ، الا بنظافتها الناصعة والنقيب رجل متقدم في السن احنت ظهره السنون وقد اقعده مرض الروماتيزم بعض الشيء . ويتألف لباسه من جبة طويلة تصل بطولها الى قدمه ذات ردنين طويلين تصنع من الكتان الابيض في الصيف ومن القماش الاسود في الشتاء . وتحتها (صاية) من الكتان الابيض مخرومة من الوسط بطيت نطاق ابيض عريض . وهو يعتم بعمامة بيضاء ملفوفة حول طربوش احمر .

وعند دخوله انسحب السيد هاشم ثم امر النقيب بأن لا يسمح لاحد من الزائرين في الدخول عليه فأخبرته باني تاركة بغداد بأبكر مما كنت أتأمل لاني كنت قد استدعيت الى بريس ثم أضافت قائلة انه ربما كانت هناك تفصيلا طفيفة مثل القرارات المتعلقة بالحدود قد تدعو الحاجة الى تقديم معلومات محلية عنها هناك وضربت على ذلك قضية متصرفية دير الزور التي وصل رئيس بلديتها مؤخرا ومعه طلب بالحاق المتصرفية بالدولة العراقية وسألت النقيب رأيه في الموضوع .

فأجاب انه كان قد قابل الرجل المذكور وانه كان يعرف اخيه الذي كا من مواطني دير الزور المهمين وكان زائرونا من هذه المنطقة قد استشارا النقيب عن مستقبل المنطقة . على ان بعض الناس كانوا موجودين في مجلس النقيب فطلب من السائل ان يعود اليه في اليوم التالي عندما يكون الوقت قد سمح له بالتفكير في الموضوع لانه جريا على عادته لم يشأ ان يبدي رأيا ما امام الناس فقال لي (انه ينتظرني الآن ولما كان حديثنا الحالي حديثا سريا سأخبرك الآن بالجواب الذي كنت اقصد ان اجيبه به حيث سأقول له :

اي يا بني ان احسن ما تعملونه هو ان تستظلوا بظل الحكومة البريطانية .

لان البريطانيين معروفون في العالم اجمع بالعدل والانصاف . ثم استطرد قائلاً :

واني سأوضح لك ما في فكري في هذا الشأن انني لا احب الفرنسيين وليفهم انه كان يسلم على سبيل الفرض بان الفرنسيين مسيطرون على سوريا الى حدود الدولة العراقية «نعم انني معجب بثقافتهم وعقولهم النيرة لكني لا احب حكومتهم اذ لا يخفي علينا ان المسلمين في الجزائر قد كابدوا الارصاف تحت حكمهم فيها وهذه امور معروفة لدى الجميع ورغبتي ان يبتعد الفرنسيون عن بغداد على قدر الامكان خاتون صاحب . انا افضي الآن بهذا احديث من اجلك فقط . وارجوا ان تعذريني عما ابوح به انني اخشى ان يحدث تصادم لا بد منه بين الفرنسيين والبريطانيين لان البريطانيين اذا وضعوا قدمهم في مكان لا يرفعونه عنه وهم اذا تمسكوا بشيء احتفظوا به الى الابد وسوف يجابههم حسد الفرنسيين واطماعهم ولو وقعت الحرب بين الفريقين من اجل ذلك واستدامت خمسين عاما سوف لا يتراجع البريطانيون .

انا درويش ولا اهمتم بشؤون هذا العالم الفاني . ولكنني لي خبرة طويلة بالرجال وبشؤون الناس وها انني اكشف لك عن هواجسي . وبعد تزويق هذا الحديث لعدة دقائق (لان النقيب متنقل في حديثه سألني جرياً على عادته التي لا يشذ عنها كلما زرته عن عودة السير برسي كوكس ومتى ستكون ثم قال (خاتون) هناك الف ومائة رجل في انكلترا بوسعهم ان يشغلوا منصب السفارة في ايران لكنه ليس هناك من يليق للعراق سوى السير برسي كوكس فهو معروف ومحبوب وموضع ثقة اهالي العراق كما انه رجل حنكته السنون وقد اكد ذلك بأقوى العبارات وبقناعة اخشى ان تكون بعيدة التبرير ثم اردف قائلا (سوف لا يذهب بالطائرة الى الموصل مطلقا حتى يوم الحشر وانما سيسافر

بواسطة السيارة اضاف الى ذلك انه رجل ذو اعتبار كبير وسيكون محامينا المتكلم باسمنا فاذا ارادت الحكومة هناك ان تعرف افكارنا سيكون بوسعه تزويدنا بالمعلومات الضرورية وستكون كلمته مقبولة .

واني اشهد الله انا لسير برسي كوكس لو كان موجودا في بغداد لكنا في غنى حماقات استفتاء الناس عن رأيهم في مستقبل البلاد حيث ان ذلك كان سببا للاضطرابات والقلاقل ولم تخمد سورة الفتن في المدينة بعد وانت تعلمين انني لم اشترك فيما جرى وقد منعت افراد اسرتي من التدخل فيما لا يعنيهم من هذه الامور فكان ولدي السيد محمد اول من استقال من مندوبية المجلس فقد اشرت عليه ان يبتعد عن هذا الامر لكن الكثيرين من الناس جاءوا اليّ طالبين مشورتي وملحين من اجلها كما اراقوا دماءهم في تربتها حيث دماء الانكليز والاستراليين والكنديين ومسلمي الهند وعبدة الاصنام قد خضبت تراب العراق فلذلك لا بد لهم من التمتع بما فازوا به ان الفاتحين الاخرين فتحوا البلاد وتنعموا بها كما وقعت فريسة بيدهم كذلك وقعت بأيدي الانكليز وسوف يوطدون حكمهم فيها خاتون ان امتكم امة عظيمة وثرية وقوية فأين قوتنا نحن .

وانني اذ اقول مثل هذا القول اريد ان يدوم حكم الانكليز فاذا امتنع الانكليز عن حكمنا فكيف اجبرهم على ذلك وذا ما رغبت في حكم امة اخرى وقرر الانكليز البقاء في العراق فكيف اخرجهم منه وانني اعرف بانتصاركم وانتم الحكم وانا المحكوم . وعندما اسأل عن رأيي في الحكم البريطاني اجنيب بانني من رعايا المنتصر . انكم ايها الخاتون تفهمون صناعة الحكم واني لا اتردد في القول انني كنمت احب الحكومة التركية عندما كانت بالوضع الذي عرفتها فيه .

واذا كان بوسعي ان اعود للخضوع الى حكم السلاطين الاتراك كما كانوا في الزمن الغابر فانني اختار غيرهم لكنني اعاف واكره الحكومة التركية الحالية والفها (كان النقيب يشير الى الاتحاديين) . وقد مات الاتراك اليوم وتلاشوا وانا راضي بأن اكون من رعاياكم .

وانت ذاهبة الى لندن ، وسوف تواجهين العظماء تتحدثين اليهم . فقولي لهم هذا ليعد السير برسي كوكس ولينته الحكم العسكري .

حيث ان دوامة غلط فاحش واني لا اتكلم بهذا ضد القائد العام فان نبله ظاهر في وجهه وقد زرته مع انني غير معتاد على مثل هذه الزيارات . لكن السير برسي كوكس طلب اليّ زيارة السير وليام مارشال (كان النقيب يتعثر بلفظ اسم القائد العام) فوافقت على ذلك فلم يكن من اللياقة بشيء ان ارفض طلبه . وكذلك زرت الجنرال مود ان بالذكم مدينة الى مود . كما اننا مدينون له بعرفان الجميل وقد كان محبوبا في بغداد .

لكن اقول يجب ان تكون في ايام السلم في ايدي رجال الدولة وليس في ايدي العسكريين وعليكم ان تحفظوا الجيش في هذا البلاد للمحافظة على الامن . لكن الجيش يجب ان يبتعد عن الحكم وهذا ما يجب عليك ان تقوليه في لندن . اننا نرعب في ان يحكمنا السير برسي كوكس ثم اضاف قائلا بدهاء :

انك يجب ان لا تقولي انك نفسك قد اصبحت بغدادية وان تفكيرك منصرف بكليته الى سعادة العراق ورفاهيته فان ذلك مع صحته سيقلل من اهمية ما تقولينه في لندن وسوف تقل فائدتنا منك .

وبعد كلمة التحذير هذه عاد النقيب الى موضوع الحكم الذاتي فقال :

ما معني كل هذا الكلام وما قيمته اني اعزو ذلك الى اميركية وكأني أسمع صوت الرئيس ولسن منه . هل يعرف الشيخ ولسون الشرق وشعوبه وهل يعرف هو طرق حياتنا وأصول تفكيرنا . انتم الانكليز حكمتم في اسيا ثلثمائة سنة وحكمكم هو مثال تقتدي به جميع الشعوب فسيروا في طريقكم ولا تخضعوا لارشاد الشيخ ويلسون فالمعرفة والخبرة هما دليلكم .

وبعد هذه الديباجة لم يكن من الصعب عليّ ان ارجع النقيب الى البحث في حوادث بغداد الاخيرة فقال ـ ان معظم اولئك الذين تكلموا ضدكم هم رجال لا سمعة لهم ولا شرف فليس له الا شيء طفيف من الاعتبار . وفضصلا عن ذلك فانه مجنون ومن سمع ، انه لا يمت الى اشراف البلد بصلة . ولكنني اقول لكي تكوني حذرة من الشيعة وانني ليست لي خصومة مع الطائفة الشيعية . ثم بادر الى اقناعي بما يقول فكنت حذرة بأن لا اظهر له ما يدل على شكوكي الباطنية . واستـرد قائلا انهم يودونني ويحترمونني وهم يعتبرونني بمنزلة شيخهم . لكنك اذا رجعت الى صفحات التاريخ ستجد ان ابرز ميزة تميز الشيعة هي خفتهم . الم يقتلوا انفسهم الحسين بن علي الذي يعبدونه الآن كما يعبدون الله . فالتغلب والوثنية تجتمعان فيهم اياك ان تعتمدي عليهم .

وقلت للنقيب بعد ذلك انه توجد عندنا قائمة كاملة بأسماء اولئك الذين كانوا قد قادوا التحريكات المناوئة للبريطانيين . واننا بناء على طلب الاشراف قررنا اعتقال ستة او سبعة منهم . وانه بالنسبة لمعلوماتي ان اعتقال اولئك الاشخاص قد تم مؤخرا فاهتم لذلك غاية الاهتمام ورجاني ان اعطيه اسماء الذين اعتقلوا .

وقد تصادف ان كانت في جيب مسودة اولية غير كاملة فيها قائمة

بأسماء المحركين لكنني لم اكن اتذكر بالضبط اي من هؤلاء كان في النية نفيهم . وكان في رأس القائمة اسم .... و .... لكنني لم اذكرهما لانه لم يكن في النية اتخاذ شيء بحقهما .

وقرأت للنقيب باقي الاسماء فكان بينهم اثنان فقط ممن يعرف شيئا عنهما ولم تكن عنده الا بعض المعلومات الطفيفة عن احدهما بحيث يستطيع ابداء رأي عنه اما الاخر فقد كان يعرفه جيدا فقد أكد كونه محتالا ماكرا . وتذكرت هذا الرجل .

لم يكن بين اولئك الذين كانوا في النية اعتقالهم الا ان النقيب طلب اليّ ان اخبر وكيل الحاكم الملكي العام عن لسانه هو ان لا يسمح ..... بالبقاء في بغداد . فطويت الورقة بعد ذلك قائلة ان جميع هؤلاء الرجال كان معروفا عنهم انهم القوا خطبا حماسية في مقاهي المدينة . ومع ان منزلتهم غير كبيرة بحيث لم يسمع باسمهم النقيب مطلقا فانهم قد سببوا اضرارا لا شك فيها . على انني اضفت الى ذلك انه كان اثنان اخران كانا اشد ضررا لانهما كانا من ذوي السمعة الكبيرة . وقد اشرت الى .... و .... وبالنسبة لمنزلتهم ...... لم يكن من الممكن لنا ان نتخذ خطوات لاسكاتهم بصورة فعالة وكان النقيب ينصب لحديث بانتباه . وقد بقي مطرقا لحظة ما فقال اخيرا :

كلا لا يمكنكم حبسهما ولا نفيهما لان الفضيحة ستكون بالغة الاثر لكنني لو كنت متيقنا من تأييد الكولونيل ويلسن لعملي لبعث عليها واعربت لهما عن استنكاري لسيرهما . حيث انني على علم بانهما مندفعان بدافع دينية وان الاعتبارات الدينية هي التي تكون اسس حججهما وانني كما لا يخفى انكم عن جميع ما له علاقة بالدين بثقة وحجة .

شكرت النقيب بحرارة عن تطوعه هذا قائلة ان الكولونيل ويلسن سيقبل ذلك منه بمنة . وقد ارسل في اليوم التالي كتابا بهذا المعنى الى النقيب .

وقد وصلت المحادثة الآن الى حد المودة والوثووق بحيث تجرأت معتذرة لما ايده والقيت على النقيب سؤالا شخصيا فاحصا . وكان قد قاد الحديث هو بنفسه من دون تقصد الى ما كنت اعنيه بتصرف الى قضية ترشيح الشريف او احد انجاله لمنصب الامارة في العراق . قال : انني من اقارب الشريف وانحدر من نفس السلالة واشاركه في مذهب الديني ولذلك فانني ارجو ان تفهموا اني لستمدفوعا بدافع الاختلاف في الدم او العقيدة عندما اقول لكم اني سوف لا اوافق على تعيين لشريف او احد انجاله اميرا على العراق . فان الحجاز غير العراق وليس هناك علاقة بينهما غير علاقة العقيدة فسياستنا وتجارتنا وزراعتنا كلها تختلف عن سياسة وتجارة وزراعة الحجاز - فقاطعته قائلة انني ارى ان ذلك يعني وصل الاموات بالاحياء . فأيد النقيب هذا التشبيه واضاف قائلا (ان الحجاز هي بلاد الاسلام المقدسة ويجب ان تبقى دولة مستقلة لوحدها ليستفيد منها المسلمون كلهم . وهي اشبه بالقدس التي تعد بلدا في غاية القدسية بالنسبة للمسلمين والمسيحيين اياض ولم يلمح بشسيء عن المصالح اليهودية . كما انني لم ار من المناسب ان اتطرق الى هذا الموضوع الشائك . وان حقوق المسلمين والمسيحيين على السواء يجب ان تصونها الدول لاجل ان يجني الجميع المنافع من مدينتهم المقدسة) . اما عن حكومة العراق فان كرهي للادارة التركية الحاضرة معروف لديكم . لكنني افضل الف مرة عودة الترك الى بغداد على ان ارى الشريف او ابناءه ينصب احدهم هنا . وعند هذا قلت له (اذا اقتضت الضرورة لاسباب سياسية لا يمكن التكهن بها مقدما . ان ينصب على رأس الدولة العراقية امير من الامراء

فهل يسعكم قبول هذه المسؤولية بمعونتنا وتعضيدا لكي نتجنب انتخاب احد الامراء من الحجاز .

كانت يدي موضوعة على ذراع اريكته الخشبية فنقرها نقرتين او ثلاث نقرات تعنيفية باصابعه ثم انحنى باتجاهي وقال ضاحكا ولكن بتأييد شديد :

كيف يمكنك القاء مثل هذا السؤال عليّ . انا درويش فهلا تعصمني عادتي هذه ثم اخذ يؤشر بالاشارة المعروفة بتحريك جبته السوداء ـ وأردف قائلا :

ان صيرورتي رئيسا سياسيا للدولة هي ضد اشد مبادئ عقيدتنا تأصلا . ففي ايام جدي عبدالقادر اعتاد الخلفاء العباسيون استشارته كما تطلبين انت وزملاؤك شورتي الآن لكنه لم يكن يوافق على الاشتراك في الشؤون العامة .

وسوف لا اوافق انا ولا احد من احفاده على ان نفعل ذلك هذا جوابي من الوجهة الدينية . لكنني سأعطيك جوابا يستند على اسباب شخصية فانني متقدم في السن وارغب ان اقضي الخمس سنوات او الست سنوات التي بقيت من حياتي في الدرس والتأمل . حيث انها مشغوليتي المستديمة .

ثم انقطع عن الحديث وبقيت انا صامتة ايضا لانني تحسست تحسسا عميقا بكلماته هذه لكنه كان ما يزال غير مكتف بالجواب الذي اجابني به ـ فقال بأناة رافعا صوته :

(وسوف لا اتراجع عما قلته الآن حتى اذا كان في ذلك انقاذ العراق من الدمار التام) .

وقد استغرق الحديث ساعة ونصف الساعة وبعد ان اعتذرت ببعض الكلمات عن سؤالي الاخير اعتذار اشار الى عدم الحاجة اليه ترخصت بتركي

له . وقبل ان يسمح لي بالذهاب تفضل بالاعراب عن مودته الشخصية لي وبتذكيري بصداقتنا القديمة التي ترجع كما قال الى ما قبل الحرب بعدة سنين . فاخبرته عن اعتزازي العظيم بهذه الصداقة ثم شكرته للثقة التي وضعها فيّ بتكلمه بمثل الصراحة التي ابداها خلال حديثنا الذي انهاه الآن . فرد عليّ طالبا ان اعتبره بمنزلة الوالد وبعد ان تأمل لقاء عاجلا بيننا سمح لي بالذهاب ترافقني السلامة .

لقطات من حياة الخاتون

كان فيصل لا يستعمل القاب دبلوماسية في تعامله معها فهي تتذكر لقد كان يخاطبني انتي اي انت وما اشد هذا انتعاشا عوضا عن عبارة يا صاحبة السعادة تلك العبارة التي لا نهاية لتكرارها انه يقول لي انت عراقية . انت بدوية ، كدلالة على اهمية شخصية فيصل في حياة المس بيل وكتقليد دبلوماسي اقامت له حفلة عشاء فاخرة عند زيارته الرسمية الاولى لبريطانيا بعد ان تربع على عرش العراق وعن تلك الدعوة يقول الدكتور سندرسن ما يلي :

كانت اول دعوة عشاء فخمة اقيمت للملك فيصل هي الداعية التي وجهتها اليه (المس بيل) في نادي السيارات الملكي كان من بين الضيوف الحاضرين والد المس بيل نفسه السيد بيل والسير لويد جورج والسير هيو .

كان الاعراب والبدو يدعونها (كوكسه : ظنا منهم ان :«كوكس» لقب السير برسي كوكس اسم وظيفته واسم كوكسه مؤثنها كذلك كانوا يلقبونها «الحاكمة» على وزن الحاكم السياسي . اما لقب الخاتون فيكاد يحل محل اسمها .

قال لها نوري السعيد «ان من اسباب مركزك المرموق هذا بين الناس هو كونك امرأة فعندنا خاتون واحدة فقط وما اشبه وصفك هذا بوصف سيدي فيصل حينما كان في لندن يرتدي الثياب العربيةدوما ولم يكن يوجد شخص اخر مثله هناك ولذلك سوف يظل الناس يتحدثون عنك الي مائة سنة اخرى» .

كانت المس بيل في العام ١٩٢٥ قد شاركت في تشييع انسة بريطاني الى مقرها الاخير وعن تلك المشاركة كتبت تقول «لقد تمنيت وانا اسير وراء العلم البريطاني الذي لف به تابوت المس جونز ان تكون الافكار التي تجول في اذهان المشيعين لي حين يسيرون وراء نعشي شبيهة ولو ابعد الشبه بما كان يجول بخاطري في ذلك الوقت عنها .

تعتبر المس بيل من المؤسسين لاول مكتبة عامة في العراق فقد ورد في الدليل العراقي للعام ١٩٣٦ ما يلي حول تلك المكتبة :

لم يكن في طول العراق وعرضه قبل تشكيل الحكومة العراقية مكتبة عامة يلج اليها القراء سوى مكتبة واحدة سعت الى تأسيسها وانشائها المستشرقة المعروفة (المس بيل) كان موقعها في محلة رأس القرية وقد استمرت هذه المكتبة عدة سنوات سدت فراغا جزئيا حتى تم للحكومة العرراقية انشاء مكتبحة اندمجت فيها مكتب المس بيل .

لم تكن الرسائل المترجمة الى اللغة العربية والخاصة بالمس بيل التي سبق وان ارسلتها الى والدها او والدتها او اي من معارفها كل التي كتبته وحتى رسائلها المنشورة باللغة الانكليزية لم تكن هي الاخرى حصيلة ما سجتلته الخاتون طيلة فترة عملها امرهف . لقد سبق للدكتور وميض جمال نظمي ان اطلع على مجموعات من تلك المخلفات الفكرية للمس بيل سواء رسئل او وثائق او اوراق بالغة الاهمية وهو محتفظ بها في غرفة خاصة في

مكتبة (نيوكاسل) ويقول الدكتور نظمي ان قسما من تلك الرسائل وليس الاوراق والتقارير قد نشرت باللغة الانكليزية في جزءين ولكن نشر تلك المذكرات حسب ما اورده الدكتور نظمي ناقصا فقد حذفت مقاطع وجمل مهمة من الرسائل المنشورة وهذه المقاطع المحذوفة كانت في بعض الاحيان تغير معنى الرسالة . ان كافة مخلفات المس بيل محتفظ بها في ملف خاص في المكتب الشرقية في جامعة درهام .

من المعروف ان المس بيل كانت من ا وائل الداعين لاقامة المتحف العراقي ويذكر امين المميز في كتابه (بغداد كما عرفتها) واصفا حفلة افتتاح المجمع حيث كان يشمل على بناية المتحف وبناية مديرية الاثار القديمة ومطبعة الحكومة بما يلي :

(جرى افتتاح المتحف باحتفال كبير حضره الملك فيصل الاول والوزراء والمندوب السامي البريطاني والمستشارون البريطانيون والاعيان والنواب وعلية القوم وكان اكثر الحاضرين اغتباطا بالمناسبة المس بيل (الخاتون) التي تصدر تمثالها انصفي واجهة المتحف ان الذين وضعوا هذه البناية واشرفوا على تنفيذها هم المهندسون البريطانيون والهنود الذين رافقوا الحملة البريطانية الى العراق وكلهم من الفرق الهندسية العسكرية الثانية للجيش البريطاني فجاءت التصاميم خليطا من شتى الانمط والفنون المعمارية فلا هي شرقية ولا هي غربية ولم تكن هندية ولا هي عربية) .

عندما علمت المس بيل بمقتل الكولونيل(١٦) لجمن كتبت تقول (كانت اسوء الانباء قد افادت بمقتل العقيد لجممن في كمين نصب له وقد سمعت الحكاية هذا اليوم من لدن الشخص اذي اثق به جدا من عشيرة (العكيل) وكان هذا ما سمعه واتوقع النبأ صحيح . كان لجمن قد توقف عند خيان شيخ

(زوبع) وهو في طريقه الى الفلوجة ولقد اساء معاملته شيخ زوبع بعبارات عنيفة لانه لم يحافظ على سلامة الطريق لقد اعتاد دائما ان يستعمل عبارات غير موقرة فقي مخاطبة العرب وكان للشيخ ضاري عدة شكاوي ضده اضافة الى الحقد الذي يتسم به الشيخ ضاري . لقد كان لجمان ممقوتا مقتا عميقا ولقد اخبرني (فتوح) في شهر ايار الماضي ان لجمن سوف يقتل لا محالة ولقد ابلغت السيد رنولد ولسن بذلك .

كان الامير فيصل قد اخبر وهو في القاطر من البصرة الى بغداد ان السير برسي كوكس متردد في ولائه ومتخذ موقف الحياد وان المستر فيليبي يبشر بالجمهورية ويدعو لها وان المس بيل وحدها قلبا وقالبا من انصاره وعند وصول القطار الى المحطة مساء ذلك اليوم تقدم اليها مصافحا وشاكرا ومنذ تلك الساعة الى اخر يوم في حياتها العجيبة في بغداد ظل يحترمها ويعدها من اصدق اصدقائه من الانكليز واكثرهم فضلا عليه (١٧) .

عندما وصل الامير فيصل (١٨) الى بغداد قام بزيارة الى طاق كسرى وكان بمعيته المس بيل وبينما كانا يطوفان بذلك الصرح المتداعي من بلاط الاكاسرة وقفت المس بيل الى جانب الامير بالقرب من احدى النوافذ وطفقت تقص عليه باللغة العربية وهي ترسل الطرف نحو السهل المنبسط امامها قصة الفتح العربي للعراق كما رواها الطبري في تاريخه .

يقول الريحاني (سيدة انكليزية تروي بلسان عربي لا لكنة فيه لامير عربي من بيت الرسول ﷺ صفحة مجيدة من تاريخ العرب القديم انه لامر فريد في بابه انه لموقف بعيد الدلالة في حقيقته ومغزاه ولكن المس بيل المتبهجة سألت نفسها كما تقول في رسالة لها الى والدتها ما اذا كان ابتهاج الامير اشد من ابتهاجها .

يبـدو ان المس بيل لم تكن ملتزمة بالواجبات الدينية ففي كل رسائلها المبردة الى والديها ومعارفها لم تذكر يوما انها ذهبت يوم احد لتصلي والاكثر من ذلك انها حتى في الاعياد المسيحية لم تقصد الكنيسة للصلاة Christmas day, Easter day .

الرسالة الاخيرة للخاتون ووفاتها

بتـريخ ١٩٢٦/٧/٧ كتـبت المس بيل رسـالة الى والدها وقبل وصـول مـا سطرته الابنة للوالد وصله نبأ وفاتها حيث توفيت في اليوم الثاني عشر من شـهـر تموز ١٩٢٦ على اثر نوبة قلبيـة انتـابتـهـا وهي نائـمـة فكان ذلك نومـهـا الابدي . اما مضمون الرسالة لم يكن يتعلق بالساحة العراقية انما مجرد اخبار والدها عن وصول السفير البريطاني في طهران الى بغداد وهو في طريق عودته الى لندن وكيف ان السيد هنري دوبس المندوب السامي في بغداد اقام حفلة رائعة على شرفه .

نعي المس بيل

لقد توفيت صباح اليوم المس بيل المديرة الفخرية للاثار القديمة والسكرتيرة الشرقية لفخامة المندوب السامي البريطاني وسيجري الاحتفال الرسمي لدفنها بالباب الشرقي في الساعة السادسة زوالية من مساء هذ اليوم وان هذه المديرية اذ تذيع هذا الخـبـر المحزن بمنتـهى الاسف نظرا لما للمس بيل المرحـومـة من الاعمال الباهرة والمساعدت الثمينة في سبيل خدمة العراق ولقد فقد العراق بموتها يدا كبيرة وصديقة وفية له .

مدير المطبوعات

١٩٢٦/٧/١٢

ولقد وردت في الصحف العراقية تفاصيل حفلة تشييع المس بيل الى مقرها الاخير في مساء يوم ١٩٢٦/٧/١٢ ولقد وقع اختيارنا على ما نشرته جريدة العالم العربي بعددها الصادر بتاريخ ١٩٢٦/٧/١٤ حيث قالت :

«حفلة دفن المرحومة المس بيل»

اخذت جماهير الناس من بريطانيين وعراقيين يتقاطرون بعد ظهر امس الاول منذ الساعة السادسة في السيارات والعربات وعلى الاقدام ولقد اصطف افراد الجيش العراقي على جانبي الطريق من الباب الشرقي الى المقبرة البريطانية وفي الساعة السادسة والنصف اخرجت الجنازة من كنيسة (١٩) الانكليز الكائنة في الباب الشرقي وقد لفت بالعلم البريطاني ووضعت بين الزهور بي سيارة للصحة وسارت يتقدمها ويتبعها الوف من المشيعين فوقفت قبال المقبرة البريطانية ووقف على باب المقبرة حضرة رئيس الكهنة لجيش الانكليز بلباس الحفلة الدينية يستقبل النعش يتقدمه كل من صاحبا الفخامنة رئيس الوزراء عبدالمحسن بك السعدون والمعتمد البريطاني في العراق السير هنري دوبس وفي يد كل منهما اكليل من الزهور وكذلك قدم سمو الامير (٢٠) علي اكليل من الزهور باسم صاحب الجلالة الملك نيابة عن جلالة الملك علي نائب الملك واجتماع ايضا امام العربة ومن حولها قائد القوات الجوية البريطانية في العراق والوزراء والاعيان والنواب وامين لعاصمة ومتصرف لواء بغداد وعدد من العلماء والوجهاء والمستشارين وهم يحملون اكاليل الزهور . ثم انزل النعش من السيارة وحمله على الاعناق والاكتاف كبار رجال الجيش البريطاني الى الحد الاخير وقرأ رئيس الكهنة صلاة قصيرة بعدها انزلت الجنازة الى القبر والقي عليها رئيس الكهنة ذرات من التراب وكذلك فعل فخامة المعتمد السامي والدمع يترقرق من عينيه وحذا حذوه بقية

المشيعين ثم اخذوا يخرجون من المقبرة بكمال السكوت والنظام وامارات الاسى لائحة على الوجوه .

وبمناسبة وفاتها فقد ابرق وزير المستعمرات البريطاني الى المعتمد السامي في العراق هذه ابرقية كما اوردتها جريدة العراق الصادرة بتاريخ ١٩٢٦/٧/١٥ .

نأسف شديد الأسف لتلقي نبأ وفاة المس بيل التي تعد وفاتها خسارة لا تعوض ليس فقط لاصدقائها والمعجبين بها العديدين بل كذلك وعلى الاخص لكم وللحكومة العراقية .

ايمري

كما ان الصحف البريطانية شركت في نعيها وتعداد محاسنها ومزاياها فقد اوردت جريدة المانجستر خبر وفاتها على الشكل التالي وذلك في ١٩٢٦/٧/١٣ .

(بموت المس بيل فقدت الامة الانكليزية نابغة النابغات لانها بفضل ما كان لها من اطلاع الواسع على شؤون البلاد العربية وطباع سكانها ولغتهم اجتذبت قلوب الشيوخ وسحرتهم ونالت لنفسها لقب بلقيس» ملكة سبأ لكنها كانت تعرف في الغالب بلقب «الخاتون» وقد ورد اسم المس بيل اربع مرات في جريدة الحكومة البريطانية الرسمية ونالت وسام .C.B.E) .

ولعل اطرف ما عثرنا عليه هو ان بلدية الموصل اوفدت ممثلا عنها لوضع اكليل من الزهور على قبر المس بيل وهذا هو نص الخبر كما اوردته جريدة العراق في عددها المؤرخ في ١٩٢٦/٧/٢٧ :

بلدية الموصل تضع اكليلا على ضريح المس بيل

أوفدت بلدية الموصل امين افندي الافغاني مدير النفوس في ذلك اللواء

الى العاصمة ليضع اكليلا من الزهور باسم بلدية الموصل فوق ضريح المرحومة بيل ولقد وضع المندوب المشار اليه الاكليل على الضريح امس الاول والقى كلمة مناسبة عزى فيها اقارب الفقيدة بمصابهم الاليم واعرب عن تقدير الموصليين للخدمات العظيمة التي ادتها المس بيل في سبيل نجاح قضية الموصل .

وفي ختام هذه الدراسة عن المس بيل ومدى علاقتها بالملك فيصل لا بد ان نعترف بأن الجاسوسة البريطانية قد أدت الاعمال التي انيطت بها بأحسن ما يكون من درجات الاخلاص اللامتناهي في سبيل خدمة التاج البريطاني وكانت ابرز هدف واهمية قاطبة هي تتويج فيصل ملكا على العراق فلقد عانت من اجل ذلك الشيء الكثير مما حدا بها ان تقول في احدى رسائلها الى والدها (ثق اني لم اشتغل بضاعة الملوك بعد الآن) .

الهوامش

١) يقصد بالمتطرفين العاملين في الحركة الوطنية وخاصة في شهر رمضان المبارك حيث كانت تعقد المجالس النبوية الشريفة وتلقى القصائد الحماسية والخطب النارية والحاج ناجي التي تعنيه المس بيل هو رئيس بلدية الكرادة الشرقية في ذلك الوقت .

٢) نشيد ليحيا الملك هو النشيد الرسمي الوطني لبلاد الانكليز (God Save the King) وقد عزف اثناء تتويج الملك فيصل حي لم يكن للعراقيين وقتذاك سلام وطني خاص بهم .

٣) الطبيب الذي شغل منصب وزير الصحة في وزارة النقيب على عهد فيصل هو الدكتور حنا خياط وهو خريج مدرسة الطب في باريس . جدير بالذكر ان وزارة الصحة التي تبرعت المس بيل بخلقها قد الغيت فيما بعد واصبحت الصحة تابعة الى وزارة الشؤون الاجتماعية حتى العام ١٩٥٢ .

٤) صفوت باشا العوا سوري الجنسية قدم العراق مع الملك فيصل الاول وكان ضابطا في الجيش التركي برتبة رائد وقد اختير ليكون معلما لاولاد الشريف حسين عند مكوثهم في الاستانة ومن بينهم الملك فيصل نفسه وقد شغل منصب مدير الخزينة الخاصة كما شغل منصب كبير الامناء في القصير الفيصلي في بغداد .

٥) ان ياسين الهاشمي من خيرة رجالات العراق الملكي ذكاء وعقلانية ودهاء سياسيا اضافة الى شخصيته الوقورة . انه رحمه الله ارفع من ان يوصف بمثل هذه الاوصاف . توفي في دمشق العام ١٩٣٧ ودفن في الجامع الاموي الكبير بجانب قبر صلاح الدين الايوبي .

٦) ماري خادمة ارمينية عملت في خدمة المس بيل منذ قدومها بغداد وحتى يوم وفاتها في ١٩٢٦/٧/١٢ عندما قصدتها ماري لايقاظها فوجدتها جثة هامدة . جدير بالذكر ان الخاتون كانت قد رشحت احد اقرباء ماري ليعمل بصفة خادم عند الملك فيصل وظل بمعيته حتى وفاة الملك في برن ١٩٣٣/٩/٨ .

٧) ابراهيم ابن عبدكه هو احد الاشقياء المعروفين في بغداد امضى في السجن فترة طويلة وبعد انتهاء مدة محكوميته عطفت عليه الحكومة وعينته بصفة حارس للاثار في مدينة بابل . لقد ادركت ابن عبدكه ولا زلت اذكره جيدا حين التقيته في سفرة مدرسية الى اثار بابل العام ١٩٥٣ واكن يجيد التكلم باللغتين الانكليزية والالمانية واخذ يشرح لنا عن كيفية قطع رأس الاسد (اسد بابل) وتهريبه الى الخارج قتل في صيف ١٩٥٤ .

٨) حسين افنان البهائي فلسطيني قدم الى العراق وعمل مترجما عند التاجر العراقي المعروف محمود الشابندر وامضى في عمله زهاء السنتين ثم التحق مترجما في حكومة الاحتلال وشغل منصب سكرتير مجلس الوزراء كما ان اخاه فيضي افنان عمل بصفة طبيب في دوائر الدولة الصحية وكان حسينا قد اصدر جريدة الشرق ووضعها تحت تصرف قوات الاحتلال .

٩) تقع بناية المتحف العراقي القديم في شارع الامين ساحة الرصافي وما زالت قائمة حتى الآن (١٩٩٧) وتشغلها في الوقت الحاضر بعض اقسام امانة بغداد والمتحف البغدادي .

١٠) ساطع الحصري سوري الجنسية كان قد تولى وزارة المعارف عندما كان فيصل ملكا على الشام وجاء الى العراق بناء على رغبة الملك فيصل وكان تاريخ قدومه العام ١٩٢١ واستمر في الخدمة زهاء عشرين عاما حتى كان

فشل حركة مايس ١٩٤١ حيث أسقطت عنه الجنسية العراقية وسافر الى خارج العراق وعاد بعد قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ له مؤلفات عديدة في الحقل القومي والتاريخ واللغة وهو الذي وضع القراءة الخلدونية للصف الاول الابتدائ وسماها الخلدونية تيمناً باسم ولده خلدون . توفي في بغداد العام ١٩٦٩ .

١١) يعتبر رستم حيدر من المع الشخصيات العربية التي عملت في القضية العربية ولقد اجمع كل المؤرخين من عراقيين وعرب واجانب على انه رجل دولة من طراز اول . انهى دراسته في فرنسا وتخصص في العلوم السياسية والاقتصادية وعاد الى العراق مع حاشية الملك فيصل واستمر العمل فيه حتى العام ١٩٤٠ عندما اطلقت عليه النار وهو في مكتبه بوزارة المالية حيث كان يشغل منصب الوزير وكان تاريخ مولده ١٨٩٩ في بعلبك .

١٢) جعفر العسكري شخصية عسكرية بارزة يعود الفضل له بتأسيس الجيش العراقي وهو يعتبر من اكثر رجال العراق ثقافة اضافة على تفوقه العسكر فهو حاصل على شهادة الحقوق من لندن وعمل دبلوماسيا هناك لسنوات ويجيد التكلم بسبع لغات عالمية ومحلية شغل منصب رئاسة الوزارة مرتين ولد في العام ١٨٨٥ وقتل في العام ١٩٣٦ ودفن اول الامر في مكان مقتله على طريق بعقوبة القديم وبعد سقوط وزارة حكمت سليمان اثر مقتل الفريق بكر صدقي نقل رفاته الى المقبرة الملكية بتاريخ ١٩٣٧/١٠/٤ ودفنت في الحديقة الخارجية .

١٣) من خلال وصف المس بيل لعلاقتها المتينة مع شخصية الحاج ناجي نجد ان الحاج ناجي المذكور وقف موقفا غريبا بعض الشيء من اقرار المعاهدة البريطانية العراقية فهو احد الثمانية الذين امتنعوا عن التصويت وهي

نفسها كان العجب قد اخذ منها مأخذه حيث اضطرت الى القول واصفة موقف صديقها القديم بما يلي (انا متأكدة الآن من عزيزي العجوز المسكين يشعر الآن مثل القديس بطرس) .

١٤) ورد في مذكرات موسى الشابندر ما يؤيد هذا الرأي وقال فيما قاله انه بعد ان انهى تحصيله العلمي في التدرج متخصصا في العلوم السياسية عاد الى العراق وقصد البلاط الملكي للسلام على الملك فيصل الاول وعند مثوله بين يدي جلالته خاطبه الملك قائلا لقد تقرر تعيينك بمنصب محافظ الديوانية (القادسية) فماذا تقول . ويضيف الشابندر انه ما كان مني عند سماعي كلام الملك الا وان اطرقت مبتسماً . وهنا سألني الملك لماذا تبتسم فأجبته سيدي صاحب الجلالة قبل عشر سنوات كانت المس بيل تجمعنا نحن الشباب في محاولة منها لكسبنا وذات يوم سألتني هل تريد ان تتعين متصرفا (محافظا) فرفضت ذلك فكيف تريدني الآن يا سيدي بعد ان انهيت تحصيلي العلمي المتخصص بالعلوم السياسية والاقتصاد ان اقبل منصب المحافظ .

١٥) نص المذكرة اصلا كانت قد نشره ضمن كتاب السير ارنولد ولسن الثورة العراقية وعندما ترجم المرحوم جعفر الخياط كتاب المس بيل (فصول من تاريخ العراق القريب) ادرج نص المذكرة المعنية في ذلك الكتاب .

١٦) يعتبر الكولونيل لجمن احد الضباط الانكليز الذين قاموا برحلات الى مختلف البقاع العربية وهو بما اشتهر به من شجاعة ومغامرة وادارة في العراق والجزيرة العربية عد على عدم المساواة مع زميلته المس بيل وزميله لورنس الا ان عمره القصير بالمغامرة بأرض العرب حيث لم يتجاوز ١٢ سنة (١٩٠٨-١٩٢٠) وانصرافه الى الادارة حيث عيّن معاوناً للحاكم العسكري في كثير من المدن العراقية اثناء الاحتلال ورغم ذلك يبدو انه

كان متعجرفا غيرصقيل الذهن في سياسته الاستعمارية فلم تتبلور مداركه ومفاهيمه في تعريف ا عماله ولمثل هذا السبب لقي مصرعه على يد الشيخ ضاري في العام ١٩٢٠ ابان الثورة العراقية الكبرى (ثورة العشرين) .

١٧) هذا ما ذكره امين الريحاني في كتابه (فيصل الاول) ط ٢ صفحة ٨٨ .

١٨) نفس المصدر .

١٩) كانت كنيسة الانكليز التي صلي على جثمان المس بيل فيها تقع في وسط ساحة التحرير وقد هدمت في العام ١٩٤٥ وشيد عوضا عنها كنيسة القديس جورج في شارع الاذاعة . اما المقبرة التي دفنت فيها رفات المس بيل فهي في الباب الشرقي وهي مخصصة للاجانب المتوفون في العراق وما زالت قائمة حتى اليوم (١٩٩٧) وبجانبها تقع مقبرة ثانية كبيرة مخصصة للمسيحيين .

٢٠) المقصود بالامير علي شقيق ملكة العراق الملكة حزيمة زوجة المللك فيصل الاول الذي كان اثناء وفاة المس بيل خارج العراق وقد أناب عنه شقيقه الملك علي ملك الحجاز السابق .

الدكتور هاري سندرسن باشا

Dr. H. Sindrson

١٨٩١-١٩٧٤

من مواليد ١٨٩١ درس الطب في جامعة ادنبرة وتخرج في العام ١٩١٤ انخرط بعد تخرجه في الخدمة العسكرية وارسل ضمن الحملة البريطانية الى العراق ، عمل في العراق في عدة مواقع مختلفة فكان طبيبا في مدن بغداد ، الحلة ، البصرة . وكان تاريخ تعينه في المؤسسات الصحية في العراق اثناء فترة الاحتلال البريطاني في اليوم التاسع والعشرين من شهر اذار العام ١٩١٩ وبعد ان امضى في الخدمة زهاء ثلاث سنوات عاد الى انكلترا للحصول على شهادة الدكتوراه في الطب ، بعد حصوله على الشهادة المذكورة رجع الى العراق ليواصل تقديم خدماته الطبية فعين مديرا لمستشفى العزل في بغداد حيث ان مرض الجدري كان متفشيا بها .

بعد ان تربع الملك فيصل الاول على عرش العراق في اليوم ٢٣ من شهر اب ١٩٢١ انخرط سندرسن في خدمة العائلة المالكة وعن اوائل خدماته الى الملك فيصل يقول سندرسن (كان جلالته يشكو من سوء الهضم ولم يكن يتطلب علاج ذلك سوى القليل من اعادة تنظيم الغذاء واستعمال مزيج قلوي ويذكر الدكتور سندرسن كانت تلك هي البداية بعلاقتي مع العائلة المالكة في العراق التي استمرت اكثر من ربع قرن من الزمان) .

سندرسن الطبيب الخاص للملك فيصل رسميا

كان الملك فيصل قد اصيب بمرض التهاب الزائدة الدودية وقد اجريت

العملية على يد الطبيب الجراح الدكتور براهام Dr. Braham وقام بدورا لمساعد له الدكتور سندرسن وبعد نجاح العملية امضى الملك فترة نقاهة في مزرعته بالقرب من مدينة (خانقين) وقد كان مرافقه في فترة نقاهته الدكتور سندرسن وبعد انقضاء فترة النقاهة وعودة الملك الى عاصمة ملكه دارت اشاعات مفادها ان الدكتور سندرسن سيعين بمنصب الطبيب الخاص للملك فيصل بدلا من الدكتور امين المعلوف الذي كان قد لازم الملك فيصل واخوته الامراء منذ اعلان الثورة العربية وظل يقدم خدماته في جبهات القتال حتى انتهت الحرب وعاد بمعية الملك فيصل الى العراق وظل يعمل طبيبا خاصا له وهو سوري الجنسية وتولى تنظيم الامور الطبية في العراق .

بعد عودة دكتور سندرسن من خانقين صدر امر تعيينه طبيبا اقدم للصحة في مدينة البصرة ولكن الملك فيصل اعترض على ذلك النقل واصدر ارادة ملكية باعتبار الدكتور سندرسن طبيبا خاصا به وحول ذلك يقول الدكتور سندرسن في مذكراته (علم الملك من قبل الدكتور حنا خياط باني نقلت الى البصرة فطلب مواجهته ما ان وصلت الى جلالته حتى بادرني متسائلا اصحيح انت عينت في البصرة؟ فرددت عليه بالعربية نعم سيدي ولم يلبث ان رد جلالته انى افع هذا التعيين اخبر حنا خياط ان يعود لي . فزع الدكتور حنا خياط لهذا الاستدعاء لكنني لم اصحبه لمواجهة الملك ثم قال الملك مخاطبا حنا خياط ان سندرسن لن يذهب الى البصرة وسوف انظر في الموضوع يوم غد وساصدر اراداتي الملكية بتعيينه طبيبا خاصا لي . وفي اليوم الثاني صدرت الارادة الملكية بتعييني طبيبا خاصا لجلالة الملك وعائلته الملكية .

بعد ان صدرت الارادة الملكية بتعيين الدكتور هاري سندرسن طبيبا خاصا للملك صدرت ارادة اخرى بتعيينه طبيبا اقدم لادارة السكك الحديدية

في العراق وقد خصص له دارا كبيرة في منطقة الصالحية وهي واحدة من مجموعة دور خصصت لسكن كبار موظفي السكك وظلت قائمة حتى اوائل السبعينات حيث تقرر هدم الكثير منها لاقامة مستشفى صدام لجراحة القلب .

الطبيب السكرتير

في العام ١٩٢٥ بدأت على الملك فيصل اعراض مرضية واعتراه نحول عام في جسمه فاستقر الرأي على ان يقوم جلالته بزيارة الى المملكة المتحدة وذلك لغرض اجراء الفحوصات الطبية اللازمة ومن ثم للبدأ بالعلاج وعليه فقد صدر الامر الملكي على ان يكون الوفد مؤلفا من الملك ورستم حيدر وتحسين قدري والطبيب سندرسن وبقية اعضاء الحاشية وعن تلك الرحلة يتذكر سندرسن فيقول (اثار وصول فيصل الى لندن اهتماما مشهودا ومنذ اللحظة التي وصلت فيها فندق (هايدبارك) (Hyad Park Hotel) راح جرس الهاتف يرن باستمرار واخذ محررو الصحف يستمرون في استفساراتهم المتعددة ولما كنت اطبيب الخاص بالملك رفضت ان اتحدث عن صحته وعن ما هو شاكي منه ولو انني اكدت لهؤلاء بان الاشاعات التي راجت عن اجراء عملية للملك غير صحيحة اطلاقا وان شيئا من هذا القبيل لم يتقرر مطلقا) .

انهال البريد على الملك فيصل وقد عهد الي بالرد عليه وكانت بعض الرسائل التي تصلنا من نوعية خاصة كان البريد الذي يصلني من بغداد يحتوي على رسائل من الوزراء والشخصيات العراقية المرموقة ذات الموقع المتميز في المجتمع العراقي وفحوى كل تلك الرسائل كان واحدا تقريبا كانوا يطلبون في رسائلهم اخبارهم عن التحسن الذي طرأ على صحة الملك وكان من ضمن الرسائل التي بعث بها احد الباشوات تقول (من فضلك توجد طيا رسالة الى

جلالة الملك اطلب اليك ان تسلمها اليه وان تقبل يديه نيابة عني ولقد نفذت فعلا ما اراده صاحب تلك الرسالة) .

دور سندرسن في تأسيس الكلية الطبية

عندما كان سندرسن يعمل في دائرة السكك الحديدية العراقية بصفة ضابط طبيب بالاضافة الى كونه طبيبا خاصا لملك العراق تمتع في تلك افترة باجازة امضاها في بلاده وكان ذلك في العام ١٩٢٦ وبعد عودته الى العراق كانت قد اختمرت فكرة تأسيس الكلية الطبية الملكية العراقية في عقله فعرض فكرته على جلالة الملك ووافق عليها فورا ثم احال الموضوع الى مجلس الوزراء العراقي فنظر في الطلب المؤيد من الملك نفسه فصادق جلس الوزراء على تأسيس الكلية الطبية . وعن هذا الموضوع يقول سندرسن في مذكراته ما يلي (عندما عدت الى بغداد تركز اهتمامي الاول حول تشييد كلية الطب وقد لقيت في هذا المضمار تعاونا منقطع النظير من المعمار الحكومي الذي كلف بالاشراف على بناء الكلية وكانت قطعة الارض المخصصة لذلك البناء مجاورة للمستشفى الملكي وهي توفر مجالا كبيرا للتوسع في المستقبل ومن الامور التي اثارت بي الدهشة الكبيرة انني منحت حرية العمل في اي موضوعبناية الكلية كذلك الاشراف وتهيئة الاستاذة واعضاء الهيئة التدريسية غير ان عاملا واحدا فقط هو كوني لم اكن مخولا بجلب الاساتذة من الخارج قبل ان ينقضي العام الاول من الدراسة في الكلية حيث ان مثل هذا الامر يجب ان يكون مسبقا بموافقة مجلس الوزراء) .

بعد افتتاح الكلية في شهر تشرين الاول من العام ١٩٢٧ وبدأ التدريسات فيها ظهرت على سطح الاحداث المنهجية مشكلة التشريح ويقول الدكتور سندرسن انه ظهرت مخاوف من احتمال ثورة الصحافة والجمهور ضد

عمليات تشريح الجثث وبصورة خاصة جثث المسلمين من سكان العراق وكان يعينني في موضوع الجثث في المستشفى الملكي رجل اسمه (الملا)[١] .

السنة الاولى للكلية الطبية

حول الدراسة في الكلية الطبية في سنتها التدريسية الاولى يوضح سندرسن ما يلي (تم انتخاب اثني[٢] عشر مرشحا للقبول في الكلية اطبية خلال السنة الاولى من عمرها كان ثمانية منهم مسلمون وثلاثة من اليهود ومسيحي واحد) قامت زوجتي (الزي) برسم شعار لطلبة كلية اطب ويتألف هذا الشعار من صورة نهرين يجريان على شكل الحرف الانكليزي (Y) يضم ذراعاه صورة افعى وكتابا مفتوحا وفي اسفل ذلك وعلى كل من الجانبين صورة ثور اشوري ولقد تمت الموافقة بسرعة على اعتماد هذا الشعار ، كانت فرحتي ظاهرة عندما تم قبول اول[٣] طالب كردي في كلية الطب كان هذا الطالب من الاقرباء الوثيقين (للشيخ محمود) الزعيم الكردي الثائر والذي اصبح بعد سنوات من المرضى الذين كنت اشرف على علاجهم .

في الوقت الذي عينت فيه عميدا لكلية الطب عينت ايضا طبيبا اولا للقسم الطبي في المستشفى الملكي كان المستشفى بذلك الوقت قد اتسعت اقسامه وتطورت خدماته للناس وذلك بفضل الدكتور (Dr. Dnlop) الذي كان جديرا له وبقي في عمله الى ان تم تطبيق نظام استبدال الموظفين البريطانيين بالموظفين العراقيين .

سندرسن باشا

بعد ان قرر الانكليز خلع الملك الحسين بن علي عن عرشه في الحجاز ابعد منفيا الى جزيرة قبرص وهناك لاقى الكثير من ضنك العيش وتدهورت

صحته مما حدا بولديه عبدالله وفيصل ان يعملا جاهدين على تحرره من منفاه والعودة به الى ارض العرب الذي طالما دافع عنها وكان ذلك في اواخر عام ١٩٣٠ ويقول الدكتور سندرسن ان الملك فيصل طلب اليه ان اتطلع الى مساعدة السير فرنسيس همفريز المستشار في سفارة لندن ببغداد بهذا الموضوع ولقد سبق لي ان قابلت ملك الحجاز السابق في سفرة سابقة لي الى جزيرة قبرص انا وزوجتي (الزي) عندما قدمنا اليه هدية من لدن ولده الملك حيث استقبلنا بود بالغ وقد حياني بقبلة على وجنتي الاثنتين . بعد وصولنا الى قبرص بثمان واربعين ساعة كلمني السكرتير الخاص لحاكم الجزيرة واعلمني بالموافقة على نقل الملك حسين من منفاه حيث ان وزارة المستعمرات اعلمته بالموافقة وهكذا غادر ملك الحجاز السابق بعد تحرره من منفاه الى عاصمة شرق الاردن عمان لقد ظفر بالهدوء والمأوى الذي طالما كان يداعب احلامه غالبا . امضينا اليوم التالي انا وفيصل وتحسين في عمان ثم طرنا في وقت مبكر من اليوم التالي عائدين الى بغداد استدعيت مساء اليوم السابق لمغادرتنا الى غرفة العاهل المريض فوجدت فيصلا وعبدالله واقفين بجانبه وراح يزجي الشكر الي بكلمات رقيقة على الخدمات التي اديتها الى العائلة خلال العشر سنوات الماضية وواصل الملك السابق حديثه ليقول انني لم اعد ملكا ولست استطيع ان امنحك اي هدية ولما كان الملك فيصل لم يتشاور بعد في حالة الانعام بلقب فلقد ترك الامر الى الامير عبدالله ليحقق ذلك ويطلب مني كرئيس للعائلة ، اعرب عبدالله عن رغبته في ان ينعم عليك بلقب باشا وان يمنحك وسام الاستقلال وكان من حقي ان امنح ذلك في وقت من الاوقات ومنذ ذلك الحين اصبح الطبيب البريطاني الدكتور هاري سندرسن يحمل لقب (باشا) واصبح فيما بعد يعرف في لقبه الجديد الدكتور سندرسن باشا .

الملك فيصل يستشير الدكتور سندرسن

كما مر بنا سابقا ان الدكتور لم يكن تواجده في القصر الملكي العراقي وحسب بل كان مستشارا خاصا الى فيصل يقدم له المشورة ويشاركه الرأي في الكثير من القضايا المطروحة على الساحة العراقية وعند زيارة الملك فيصل الى ايران حصلت مشكلة في نوعية الوسام العراقي الذي سينعم به الملك على شاه ايران رضا بهلوي وحيث ان نوري السعيد كان قد حصل على نفس درجة الوسام الهاشمي الذي كان قد تقرر تقليده للشاه فظهرت مشكلة على سطح الحدث وهي كيف يمكن لفيصل ان يقلد شاه ايران وساما كان قد منح مثله الى رئيس وزرائه . حول هذا الموضوع يقول سندرسن (كانت تلك هي المشكلة التي اقضت مضاجع الملك فيصل وقد سألني جلالته ذات يوم قائلا ما الذي ينبغي علي ان افعله فانني لا استطيع ان اطلب الى نوري ان يحمل اوسمته اثناء تواجده في ايران ولكن ما هو السبيل البديل لذلك لقد اكدت له ان المشكلة يمكن ان تحل عن طريق ايجاد صنفين من الاوسمة احدهما مدني والاخر عسكري وان نوري مهما يكن فسوف يعتبر من الصنف المدني في حين سيكون الشاه اول من يتلقى اعلى درجة من الوسام العسكري وهكذا تمت تسوية الموضوع واعلن عن اصدار وسام هاشمي جديد لتكريم رؤساء الدول) .

في زيارة الملك فيصل الاخيرة في العام ١٩٣٣ الى لندن كان الدكتور سندرسن يهيء له الخطابات المقرر القاؤها في المناسبات المختلفة ويقول سندرسن (اعددت خطابا لكي يلقيه الملك فيصل بالانكليزية ردا على الخطاب الترحيبي للملك جورج الخامس اثناء الوليمة الكبرى التي اقيمت في قصر بكنغهام في العشرين من شهر تموز كما اعددت خطابا اخر جوابا منه

على نخب امين العاصمة البريطانية في حفل الاستقبال الذي اقيم في (Giled hall) (في اليوم الثاني ولقد استطاع الملك ان يحفظ الخطابين المذكورين بصورة جيدة تقريبا) .

الطبيب يقلق على مريضه الملك

لم اكن مسرورا بالنسبة الى الوضع الصحي لجلالته فالتحول بدا واضحا وان سبب ذلك شهيته للطعام حيث باتت ان تكون متلاشية اضافة الى ان نومه المضطرب ويدخن بافراط ولطالما توسلت اليه ان يقلل من استهلاك السكائر فكان يعزو عذره الاخير الى استمرار وصول الانباء السيئة من العراق وقد وعدني ان يقلل من التدخين حالما ينتهي التوتر الحاصل في شمال العراق نتيجة حركة الاثوريين هناك لقد ادت تلك الحركة به الى العودة الى العراق ليشرف بنفسه على استتباب الامن والسلم في اركان مملكته .

بعد ان عاد الى العراق مرة اخرى ادى اضطرابه وقلقه على سلامة شعبه الى فقدانه النوم وخانته شهيته (٤) وراح يتطلع الى الراحة عن طريق الافراط في التدخين وتناول القهوة العربية المرة وسرعان ما تدهورت صحته بشكل ملحوظ في اليوم الثاني من ايلول وبعد استشارات طبية عاد فيصل مرة ثانية الى سويسرا حيث راح بعد ستة ايام اخرى ضحية نوبة قلبية .

لقد التقيت اول الامر بالامير فيصل في اليوم الذي اعقب سقوط دمشق وهو اليوم الاول من شهر تشرين الاول عام ١٩١٩ عندما دخل تلك المدينة بجيشه الحجازي ومن صحبه وشد من ازره زمرة من الضباط المتحمسين . فقد قاد ذلك الجيش نحو الشمال عبر الصحراء السورية فاستطاع ان يحمي الجناح الايمن لجيش الاساس المعروف بالقوة الاستطلاعية المصرية .

وفي دمشق رفع فيصل علم الحجاز وهناك وبموافقة من الحلفاء تمسك في زمام الحكم ملكا على سورية ومهما يكن من امر فقد حدث احتكاك مع الدولة المنتدبة فرنسا فانتهى حكمه هناك وفي اب عام ١٩٢١ اصبح فيصل ملكا على العراق تحت الانتداب البريطاني وعندما انتهى الانتداب في العام ١٩٣٣ قام الملك فيصل بزيارة الى ملك الانكليز باعتباره ملكا مستقلا وكان لي الشرف في ان اكون اثناء تلك الزيارة في معية الملك فيصل لقد قرأنا اخر الكلمات التي تفوه بها فيصل حين قال وهو على فراش الموت (انا مسرور لقد قمت بواجبي فلتعش الامة من بعدي بسعادة وقوة واتحاد[٥]) .

قبل اسابيع قليلة من وفاة الملك فيصل حصلت على دار في مقاطعة (Sosiks) ولقد جعلتنا وفاة فيصل الغير متوقعة نعيد النظر بشأن الحكمة في عودتنا الى العراق او لا .

ومهما يكن من امر فاني سبق وان وعدت فيصل بان غازي في حالة وفاة ابيه بصفة مفاجئة سوف يتحقق من صداقتي ومشاورتي الابدية . وان استحالة تنفيذ مثل هذا الالتزام عن بعد هي التي حملتنا على العودة الى العراق عند انتهاء مدة اجازتي .

سندرسن في خدمة الملك غازي

في الفصل العاشر من مذكرات الدكتور سندرسن باشا نلاحظ انه دون كتاباته عن مملكة العراق في عهد الملك الشاب غازي مختارا فعلا دقيق الاهمية من تلك الحقبة الزمنية من تاريخ تواجده في القصر الملكي ، لقد دون مذكراته عن انقلاب بكر صدقي الذي وقع في العام ١٩٣٦ اي بعد مرور ثلاث سنوات على تولي الملك غازي عرش العراق . وعن اليوم الاول للانقلاب المذكور يقول سندرسن (استدعيت الى قصر الزهور،مسكن الملك

غازي في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم لم اجده في مكتبه بل كان يتمشى في شرفة القصر وهو في حالة انفعال ملموس كان يتمنطق بحزام مربوط به مسدس بشكل ظاهر سألت الملك بعد ان طلب مني فحصه (ولم هذا التشخيص يا سيدي؟) وذلك بعد فحصه بالسماعة لم يكشف شيء سوى عدم انتظام ضربات القلب نتيجة سرعة في النبض . كانت زوجتي قد صحبتني الى القصر وكانت ترتشف القهوة مع الملكة عالية . لقد شعرت بكل تأكيد بأن الملكة عالية مستودع ثقة غازي والتي يعهد اليها بكل الاسرار حتى بغرامياته التي كانت تغفرها له بسخاء .

استدعيت الى القصر مرة ثانية في نفس اليوم بعد ان انتهيت من تناول طعام الغداء ولقد وجدت الملك اكثر انفعالا مما وجدته فيه في الصباح تمركز قلقي بعد الانقلاب حول مركز الملك الشاب لقد كانت للملك فيصل علاقات طيبة مع قادة رعيته ولقد تولى غازي العرش في العام ١٩٣٣ كشابب قليل التجربة في الحكم وقد اصبح الان يعتبر صديقا منسيا .

لقد اصبح الافراط في تناول المشروبات الروحية والدعارة هي التسلية الغالبة مما كانت نتائج كل تلك الاعمال تعييني احيانا باعتباري الطبيب الخاص لجلالته وكما اشرت سابقا كنت قد وعدت الملك فيصل انه في حالة موته قبل اوانه سوف اهتم اهتماما ابويا بوريثه لقد اديت ذلك ولكن لم يكن يرحب بالنقد وبعد بضع اجتماعات معه عدت الى داري وانا مقتنع بان خدمتي في العراق هي على وشك الانتهاء ، كنت كطبيب ومستشار اتعرض لوقت عصيب كذلك غازي الذي كان يخشى ان يتوقف قلبه فجأة خاصة في اوقات الظلام لقد كنت في بعض الايام استدعى من فراشي ثلاث مرات على الاقل ما بين غروب الشمس وشروقها . لقد كان هذا الخوف هو الذي

جعله يضيق ذرعا بتحذيري له .

انتهى الحمل الاول للملكة بالاسقاط ولقد وفر هذا الحدث فرصة مبتهلة للتآمر ضدي من لدن قلة من الاطباء العراقيين الذين كانوا يحسدونني احدثت ولادة وريث فرح شديدا للملك غازي لقد وعدني في وقت ما قبل حدوث الولادة بانه سيهديني سيارة اذا كان مولوده الاول ذكرا ولكنه اضاف في ابتسامة لعوبة وان كانت بنتا فسوف اتخلص منك ولقد بر بوعده فقد اهداني سيارة من طراز هيمبوبيل في اليوم التالي للحدث السعيد الذي اسفر عن ولادة الامير فيصل لقد كانت ولادة الامير فيصل في اليوم الثاني من شهر مايس العام ١٩٣٥ .

لقد كان تكريما عظيما لي حين اخذ الملك غازي يسألني النصح حول مختلف القضايا وكان يمهد لاستشاراته تلك بقوله انت صديق وثيق لوالدي وانت واحد من افراد الاسرة .

لقد تقبل الاقتراح الداعي الى قيامه بزيارات متواصلة للدوائر الحكومية وللمستشفى والمؤسسات الخيرية واصبح يتأنق في ملبسه وقيافته عندما كان يؤم المسجد لاداء فريضة الصلاة كل يوم جمعة .

لم يكن البلاط الملكي يبعد سوى مسافة قليلة من كلية الطب وكنت دائما اشاهد غازي هناك دون ان استدعى لذلك لاني كنت اتمتع بامتياز الدخول في اي وقت اشاء فيه ، في احد الايام صادف دخولي البلاط الملكي في الوقت الذي كان فيه الدكتور غروبا والدكتور امين رويحة الذي وصل حديثا الى بغداد وهو من المحسوبين على قائمة اصدقاء الدكتور غروبا يهمان بمغادرة المكان وفي اعقابهما احد رجال القصر يحمل صندوقا خشبيا كبيرا

مصبوغا ، واذ اندفعت الى غرفة غازي الخاصة سألته عن السبب الذي دعاه ان يستدعي الدكتور رويحة لفحصه فاجاب غازي بهدوء انني لم اطلب منه ذلك ولكن غروبا هو الذي اقترح هذا ولم أشأ ان اظهر عدم الموافقة . لقد تحقق لدي انني بطرحي هذا السؤال كنت اخاطر بمستقبلي في البلاد لكنني لم احتمل وانا الطبيب الخاص لغازي ان ارى طبيبا اخر يدخل عليه من دون استشارة مني لقد اوضحت موقفي هذا وكانت دهشتي كبيرة عندما رد غازي فاشلا لقد فهمت ذلك تماما وان هذا لن يتكرر مرة اخرى ولقد تمسك غازي بوعده تماما الامر الذي اثار قلق الدكتور غروبا الوزير الالماني في بغداد .

وفاة الملك غازي

عن الساعات الاخيرة التي امضاها الدكتور سندرسن في خدمة الملك غازي يقول (وقعت وفاة الملك غازي بصورة مفجعة ومحزنة وغير متوقعة لا بل في غير وقتها بعد منتصف ليلة الرابع من شهر نيسان ١٩٣٩ ولم يكن فيصل الثاني قد اكمل الرابعة من عمره في ذلك الوقت رجعت الى داري متأخرا حيث كنت مدعوا للعشاء عند جاري حين اقبل خادمنا الهندي (يوسف) راكضا نحوي وفي حالة ذعر شديد ليقول صارخا صاحب صاحب ان القصر يريدك على جناح السرعة انهم ما يزالون على خط الهاتف[٦] في الوقت الذي كنت اضع الادوات الطبية في حقيبتي واضيف اليها بعض الضمادات وغيرها ، كانت زوجتي قد اتصلت هاتفيا بالدكتور نوبل برهام (Dr. N. Braham) كي تخبره بأن الملك قد اصيب في حادث اصطدام سيارة وتطلب اليه ان يتبعني الى قصر الزهور بالسرعة الممكنة عند وصولي الى القصر دهشت حيث وجدت ان القصر في ظلام دامس وعندما سألت عن اسبب قيل لي ان قطع التيار الكهربائي جاء نتيجة تصام سيارة الملك .

عندما وصلت الى المكان الذي كان فيه الملك وجدته ملقى على مطرحة في شبه ظلمة وهو فاقد الوعي ولقد لف رأسه الملقى على وسادة وكذلك الجزء الاعلى من وجهه بضماد غارق في الدم كان يحيط به كل من الملكة عالية زوجته واخرون من افراد الاسرة المالكية واحد المرافقين ومن ورائهم حشد من التابعين وجمع من الخدم الباكين الذين تم صرفهم بسرعة كان نبضه ضعيفا وكانت نظرة واحدة الى ما تحت ضماده المتفكك تكفي للتأكد من عدم استحالة بقائه على قيد الحياة لاكثر من ساعات قلائل على اعظم احتمال لقد تحطم قحف جمجمته وغاصت قطع منه في دماغه . بقيت الملكة عالية هادئة وطلبت مني ان اقول لها الحقيقة وهي تقول اريد ان اعرف انه اذا مات غازي فلا بد من تعيين وصي لقد حزرت مسبقا ان جراحه قاتلة وحين اعترفت لها بشدة تلك الجروح طلبت مني ان اعطيه زرقة على الاقل ان يصحو بما يكفي لكي يقول بانه كان يرغب ان يخول الامير عبدالاله سلطة الملوكية ما دام الامير فيصل لم يبلغ سن الرشد بعد . نفذت ما طلبت مني لكن ذلك كان املا خائبا كانت الملكة جريئة جدا غير ان اصوات التابعين الذين استمروا في البكاء والنحيب كانت تضيف لها المزيد من الحسرة والالم . لقد اصرت ان تقفل الابواب وان توضع حراسة على كل واحد منها كما طلبت من المرافق الاقدم ان يتصل بنوري باشا رئيس الوزراء وان يطلعه على الحالة كما طلبت اليه ايضا ان يتصل بالدكتور صائب شوكت مساعد الدكتور برهام استاذ الجراحة في الكلية الطبية وان يطلب اليه الوصول الى القصر في السرعة الممكنة . كنت اخشى ان يعمد مختلقوا الاشاعات اذا لم يحضر احد من الاطباء العراقيين الى توجيه اتهام لي والدكتور برهام باننا كنا مسؤولين عن وفاة الملك . توفى الملك غازي في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الاربعين بعد منتصف الليل وقد وقعنا ثلاثتنا على شهادة الوفاة .

سندرسن في خدمة الوصي عبد الاله

بعد ان توفي الملك غازي تم تعيين الامير عبدالاله وصيا على العرش. باعتبار ان الملك فيصل لم يزل طفلا بعد استمر الدكتور سندرسن باشا بتقديم خدماته الى الامير عبدالاله وتعتبر الفترة التي امضاها في خدمة الامير من ادق الفترات حراجة طيلة مكوثه في العراق لقد شاعت اظروف ان يكون الدكتور سندرسن مطلا على مجريات الاحداث وهي كثيرة وصعبة في فترة وصاية عبدالاله على عرش العراق وكان اول تلك الازمات الازمة القائمة بين عبدالاله وبين الضباط القوميين اللذين اطلق عليهم حكام لندن (المربع الذهبي) (Golden square) والمقصود بالضباط اولئك هم المرحومون صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وكامل شبيب وفهمي سعيد حول تلك الازمة يعلق الدكتور سندرسن باشا (استدعيت الى قصر الرحاب ويبدو ان عبدالاله قد ارتاح كثيرا لدى رؤيتي لقد اراد الوصي من السفير البريطاني ان يقابله في الساعة الرابعة من بعد الظهر في منزله في قصر الرحاب وطلب الي ان اعلم السفير بذلك لانه لم يكن يرغب الاتصال بالسفير عن طريق الهاتف لقد قمت بما امرت به واتصلت بالسفير البريطاني الذي بدوره قابل عبدالاله وتباحث معه . استدعيت مرة اخرى الى قصر الرحاب في عصر احد الايام من شهر كانون الثاني في العام ١٩٤١ وعند وصولي القصر وجدت عبدالاله مع افراد اخرين من العائلة المالكة مجتمعين هناك كان الجو متوترا ولقد اخبرني الوصي ان رشيد عالي الكيلاني اتصل بي هاتفيا وانباءه بانه سيقوم بزيارته في الساعة الثالثة بعد الظهروواصل الوصي حديثه اني اعرف انه اتى ليطلب مني ان احل مجلس النواب واني اريد ان اتجنب اي تصادم علني في الذي اعمله .

قلت للوصي ان افضل حل هو ان يسافر بالسيارة الى الديوانية وان يجد له ملجأ فيها حتى ينكشف الموقف في بغداد ، ولقد عرضت على عبدالاله ان اسافر معه لكنه اصر على عن اتخلف عنه في ذلك كيما اشاور افراد عائلته عند الحاجة لقد هرب الوصي في الوقتالمحدد لذلك تماما اي قبل وصول رشيد عالي الكيلاني الى قصر الرحاب بدقائق محدودة ذلك لانني التقيت بسيارة رشيد عالي الكيلاني الى قصر الرحاب بدقائق معدودة ذلك لانني التقيت بسيارة رشيد عالي الكيلاني تمر بي اثناء عودتي الى منزلي ولقد اعددت العدة لاكون بعيدا عن الانظار فجلست في ارضية السيارة عندما اقتربت سياراتنا الواحدة من الاخرى ذلك لاني وجدت انه من غير الحكمة ان اتهم في اشتراكي بتهريب الوصي .

عندما كنت في طريقي الى داري عرجت على السفارة لكي اطلع السفير على مغادرة الوصي وكنت على اتصال بعبدالاله عن طريق الشريف حسين الذي رتب الوصي معه امر الاتصال هاتفيا .

عندما تم تسوية الامر عاد الوصي الى قصر الرحاب واقيم هناك احتفال ترحيبي بعودته حضرته بنفسي وخلال اسبوعين استأنف العقداء الاربعة زياراتهم الى قصر الرحاب فاخذ الوصي يتضايق منهم كثيرا . وفي احد الايام استدعاني الوصي المتضايق من ذلك الوضع المتأزم الى قصر الرحاب بحجة انه مريض اعلمني عبدالاله بانه امسى متضجرا جدا من صلاح الدين الصباغ وزملائه الثلاثة وانه عزم التخلي عن الوصاية ولقد فزعت مما قال وانبأته بانه مثل هذا التصرف سيعني بمثابة خضوع مذل لا يليق به وان الوقت الان قد حان ليظهر للضباط الاربعة ما يريد ان يعمله وان يبين لهم بانه الحاكم المؤقت للعراق وانه يريد ان يبقى كذلك عند ذلك سألني ما هو نوع التأييد الذي

اتوقعه من الحكومج البريطانية فقلت له هل ترغب ان تقابل السفير فقال نعم . قمت بما يلزم للقاء السفير مع عبدالاله وتمت المقابلة واكد السفير البريطاني في حديثه مع عبدالاله بان حكومة بريطانيا مقتنعة بتقديم اي مساعدة ممكنة يطلبها فطلب الوصي مساعدة مالية ووعد السفير بانه سيقدم توصية عاجلة حول الموضوع الى لندن ولقد تمت المصادقة على المعونة المالية المقدمة الى عبدالاله بصورة سريعة .

موقع سندرسن من احداث مايس

في هذه الفترة من حياة الدكتور سندرسن باشا في العراق ظهرت بصورة واضحة نشاطاته الغير الطبية وما قام به باعتباره ضابط ارتباط بين العائلة المالكة العراقية وبين السفارة البريطانية في بغداد ان تلك الانشطة التي سنقف بعد قليل على قسم منها تعكس بوضوح ماهية حقيقة الرجل يعلق الدكتور سندرسن على احداث حركة مايس بما يلي :

(في ضوء ليلة الانقلاب الذي قام به رشيد عالي الكيلاني والضباط الاربعة كنت انا وزوجتي (الزي) من بين المدعوين الى حفلة عشاء في دار السيد جمال بابان والتي لم تكن تبعد عن دارنا سوى خطوات معدودات امضينا وقتا جميلا امتد حتى منتصف الليل تقريبا واذ كنا في طريق عودتنا الى المنزل دهشنا لرؤية بعضا من قطعات الجيش تتحرك وحيث لم يكن هناك اي دليل على السرعة او التهييج فقد رحت اتصور ان هذه الحركة ما هي الا مجرد بداية اسرعت الى الرقاد وعندما ايقظتني (الزي) في حوالي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل كان الهاتف يرن وعندما رفعت السماعة سمعت صوت امرأة تقول ان عمتي مريضة جدا ارجوك ان تأتي وقبل ان انبس ببنت شفة اغلق الهاتف ومع ذلك فقد استطعت ان اتبين بأن صوت المتكلمة هو

صوت الاميرة بديعة(٧) وعند ذاك دعوت عبد حارسنا الليلي بأن يخبر السائق عبدالله بانني بحاجة الى السيارة في اسرع وقت ممكن ، اتجهت الى دار الاميرة صالحة(٨) المطلة على نهر دجلة في منطقة الباب الشرقي وجدت الوصي متهيجا ومعه امه والاميرة بديعة والكل في حالة قلق بشأن الاوضاع الجارية اطلعني عبدالاله على شهادة طبية اعطيت الى احد موظفيه المدنيين لكي يسلمها الي وتعلن تلك الشهادة بأن الوصي عبدالاله قد مات في تلك الليلة نتيجة اصابته بتخثر الدم في الشريان الاكليلي ، لم اقتنع بموضوع الشهادة الطبية وظل الوصي يلح بعض الوقت بضرورة التجائه الى السفارة البريطانية لكنني استطعت اقناعه بأن هذا يعني ان عليه ان يعبر النهر مرة اخرى وانه وان كانت السفارة افضل مكان يستطيع اللجوء اليه الا ان الحراسة على السفارة مكثفة جدا .

كانت نصيحتي ان عليه ان يلبيس ملابس امرأة عربية وان ينشد الامان له في المفوضية الامريكية في الوقت الذي اقوم انا بالاتصال بالسفارة البريطانية لتذليل وسائل هروبه . كان الاقتراح الذي طرحته هو ان على الوصي ان يرافق الوزير الامريكي وان تختفي تحت سجادة عند قدمي الوزير في سيارته وان يرتدي مرافقه عبيد عبدالله المضايفي بزة ضابط في القوة الجوية البريطانية وينتقل الى الحبانية برفقة حاشية مسلمة من افراد القوة الجوية البريطانية .

وافق الوصي على هذه الخطة وقد وعدته بان اطرحها على السفير البريطاني ومن ثم اعود الى المفوضية الامريكية حاملا اليه تفاصيل الخطة . خرجت وانا في طريقي الى داري فامضيت زهاء نصف ساعة فيه كيلا يثير غيابي شيئا من الهمس فيما بعد وافق السيد بازل نيوتن (Sir Basil Nyoten) السفير البريطاني والمسيو بول نانيشي (Mr. Pul Nanisho) الوزير المفوض

الامريكي على ذلك المقترح واضاف الوزير المفوض بأني متأكد بأن زوجتي يسرها ان تصحبهم في هذه الرحلة والواقع ان تواجد امرأة في السيارة قد يخفف من الشكوك .

كنت انا وعبيدالله[٩] المضايفي مرافق الوصي في نادي العلوية وسرعان ما تنكر عبيد في زي ضابط في القوة الجوية البريطانية فاتخذ مقعد بين اثنين من نواب الضباط ووضع نظارتين غامقتين على عينيه وقبعة مدورة على رأسه وامسك بيده نسخة من العدد الاسبوعي لمجلة (Times) اللندنية التي صدفة وان كانت معي في سيارتي وبهذه الصفة اختفت هويته تماما .

سارت الامور سيرا حسنا ووصل الامير عبدالاله الى الحبانية دون اي اذى من اي نوع كان . بعد هروب الوصي اعتقل صباح[١٠] بن نوري السعيد مع امه وزوجته عصمت فمكثوا جميعا في فلسطين الى ان سمحت الاموال لهم بعودتهم الى العراق مرة ثانية كانت عائلة عبدالاله قلقة جدا على مصيره في ذلك الصباح الذي غادر فيه وذلك تلقيت بعد ظهر اليوم مباشرة نداء هاتفا من قصر الزهور يطلب اليّ ان ازور الاميرة جليلة التي كانت تعاني من الام مبرحة[١١] .

توجهت الى القصر حالا ولكن نقطة عسكرية منعتني من مواصلة السير باتجاه القصر ولقد اعتذر الضابط حينما قال ان هذه اوامر رشيد علي الكيلاني . اتصلت بالسيد الكيلاني واعلمته بان احدى الاميرات مريضة وبصفتي الطبيب الخاص للعائلة المالكة اطلب السماح لي بزيارتها . ولقد اجابني بلباقة انه علي الانتظار بانتظار ما يفعله من اجل زيارة القصر . كان عليّ ان اكون حذرا بشكل ان لا تحصل اية مضايقة للسيد الكيلاني وخوفا من ان يبعث احد اصدقائه من الاطباء العراقيين نيابة عني وعند ذاك ستكون

العائلة المالكة في موقف صعب جدا ، عين عبدالقادر الكيلاني رئيسا للديوان الملكي وقد اتصل بي واعلمني بانه منح لي الاذن بزيارة قصر الزهور وانه هو نفسه سيكون برفقتي كحماية لي . توجهنا بالسيارة معا كانت الزيارة قد خطط لها لغرض الحصول على اخبار عن مصير الامير عبدالاله وللتشاور في موضوع جلالة الملك فيصل الثاني كانت والدة الوصي واثنتان من شقيقاته الاخريات موجودات مع الملكة عالية في ذلك الحين وبذلك توفرت الفصرة لعقد مؤتمر عائلي موسع جدا . لم يكن هناك ادنى شك بان النداء الهاتفي الذي تلقيته من القصر لم يكن عن طريق البدالة المركزية . لذلك تقرر انه في حالة مرض احد افراد العائلة المالكة يتوجب اذن الاتصال برئيس الديوان الملكي السيد عبدالقادر الكيلاني والذي عن طريقه هو يتم ترتيب زيارتي للقصر . وهكذا تم التشاور مع العائلة المالكة بصورة لا ينتج عنها اي شكوك قد تحوم حولي وبالتالي قد تمنعني من زياراتهم المستقبلية .

الدكتور سندرسن المستشار في وزارة الشؤون الاجتماعية

عهد الي بمنصب المستشار في وزارة الشوون الاجتماعية اضافة الى واجباتي الاخرى وكان من اول توصياتي بدفع عدد من الاطباء الشباب للعمل خارج مراكز المدن وذلك لشمول ابناء تلك المدن للرعاية الطبية اضافة الى مناطق بعيدة تكاد ان تكون محرومة من العناية اطبية بأي شكل من الاشكال . ولقد بقيت ادافع بمدة طويلة عن فكرة تشكيل مؤسسة تكون وظائفها مشابهة لوظائف المجلس الطبي البريطاني ولقد توجت جهودي في هذا لمضمار للنجاح حيث تم تشكيل هذا المجلس ولما كنت انا الذي تبنيت الموضوع فلقد عهد الي برئاسة ذلك المجلس الذي تألف من ١٢ عضوا .

كانت لصحة المدينة في العراق تتطلب الشيء الكثير من الخدمات التي

يتطلع اليها الناس فنحن مثلا في اكبر امدن ولا توجد سوى بيوت قليلة فيها نظام مجاري لتصريف المياه القذرة . وان ما وجد منها كان محصورا في المناطق الجديدة وما عدا ذلك فان القاذورات كانت تحمل في ظروف على ظهور الحوانات وان لمن حسن احظ ان الشارع الذي كنا نسكنه كان مشمولا بنظام التصريف(١٢) .

لقد كان من بين امراض العراق الشائعة مرض الملاريا والجدري والطاعون وكانت هذه الامراض تحدث في فصول معينة من السنة وتستت المزيد من المتاعب لقد كانت موجات الهيضة التي تصل الى بغداد تنتقل دون ريب من المسافرين الذين يصلون الى البصرة عبر موانئ الخلية العربي او الهند او جنوب ايران لقد قررت وزارة الشؤون الاجتماعية تعيين لجنة عهد اليها بوضع برنامج صحي عام ذي خمس سنوات للبلاد وكان من شدة المي انني عينت رئيسا لتلك اللجنة .

سندرسن يرافق الامير عبدالاله الى بريطانيا

كان الامير عبدالاله قد استلم دعوة لزيارة بريطانية في صيف ١٩٤٣ وذلك عن طريق السيد كنهان كورنواليس السفير البريطاني في بغداد وقد تقرر ان يصاحبه في تلك الرحلة الدكتور سندرسن باشا اضافة الى اعضاء حاشيته الاخرين وعن تلك الرحلة يتذكر الدكتور سندرسن فيقول (كان عبدالاله شديد الابتهاج جدا عندما اعلمه كورنواليس بأن الدعوة قد وجهت اليه لزيارة بريطانيا (دعوة رسمية) كانت حاشية الامير تتألف من الفريق الاول اسماعيل ناميق والمقدم عبيد المضايفي ومني انا اضافة الى نوري السعيد وكان الجميع يرتدون البزات العسكرية وكنت انا احمل رتبة لواء في الجيش العراقي وهي الرتبة التي عينت فيها بصفة فخرية . وصلت لندن في الساعة الثامنة من

صباح لايوم الرابع من شهر تشرين الثاني ١٩٤٣ كان في استقبالنا الدوق غلوستر واعضاء الوزارة وثلاثة من السفراء البريطانيين اللذين سبق لهم ان عملوا في العراق وهم بالاضافة الى السير مالكولم روبرتسون رئيس المجلس الطبي البريطاني وجمع غفير من الشخصيات العربية والبريطانية الذين تجمعوا في محطة (بادنغتون) للترحيب بالوصي عبدالاله عند وصوله الى لندن . بعد ان امضينا عدة ايام تقرر القيام برحلات محلية الى بعض المناطق للاطلاع على معالمها وكان من الرحلات المحلية التي قمنا بها رحلتنا الى منطقة (Hatstan) والتي استغرقت اكثر من الساعة والنصف كانت طائرتنا صغيرة الحجم الا انها كانت سريعة وكان صغر الطائرة مع اضطراب الاحوال الجوية قد جعل عبدالاله يتخوف ويتوقع شرا لذلك امرني ان اطلب من الملاح العودة . لقد وجدت في الواقع ان مثل هذا الطلب سيكون تفسيرا سيئا جدا لذلك تخليت عنه ولم اطلب من الملاح تنفيذ ما امرني به الامير سألت الملاح بكل بساطة عما اذا كنا الان نمضي وقتا طيبا واذا كان قد قطعنا نصف المسافة الى (Hatstan) ومع ان اجوبة الملاح كانت مؤكدة لذلك فقد انبأت عبدالاله باننا سنهبط في وقت اقصر مما لو قررنا العودة الى مركز انطلاقتنا واضفت الى ذلك قائلا بأن الجو قد ساء من وراءنا . واذا نجحت هذه المغامرة اعترفت للوصي بما بدر مني فسامحني بسخاء .

مخاوف عبدالاله من الطيران

عند زيارتنا الى المملكة المتحدة كان طريق عودتنا لقد ساءت الاحوال الجوية في الايام التي اعقبت ذلك ولقد سررت كثيرا لاننا استطعنا ان نغادر قبل ان تصبح الاحوال اكثر سوءا كان عبدالاله شديد الخوف لانه خشي ان يكون مصيره مثل مصير الجنرال سيكورسكي الذي فقد حياته في حادث

سقوط الطائرة التي كانت تقله فوق جبل طارق . وعندما احمر وجه عبدالاله خوفا خاطبني يقول اذا لم نشارك ذلك الزعيم البولندي ذلك المصير فإنه يخبر (الزي) زوجتي باني كنت على الرغم من ذلك شريكا في مغامرة خطرة وضعت حياته على حافة الموت ولم يتضاءل خوف عبدالاله ونحن في مرحلة الهبوط . لقد عانى عبدالاله من الخوف الشديد خلال عملية الاقلاع اذ فشلت محاولتين للاقلاع قام بهما ملاح طائرتنا وعندما كانت محاولة الاقلاع الثالثة تجري هتف بي عبدالاله ان اطلب من الملاح الكف عن محاولة الاقلاع كانت اشارات الانطلاق قد اعطيت لذلك قلت لعبدالاله ليس بالامكان الان الطلب منه ذلك ولكن ان فشلت محاولة الاقلاع هذه فسوف اطلب منه ذلك وكان من حسن الحظ ان نجحت المحاولة فاصبحنا محلقين في الهواء وخلال مدة الطيران التي استغرقت اكثر من ساعة ونصف كان عبدالاله يخفف من شدة قلقه بلجوئه الى التدخين المستمر .

مقابلة عبد الاله لشرشل وايدن بهتوري

عند هبوطنا في القاهرة وقبل مغادرتنا اياها ونحن في طريق عودتنا الى بغداد اقبل المستمر انطوني ايدن وقد طلب الي عبدالاله ان اكون حاضرا المقابلة كان وزير الخارجية منشرحا وخلال حديثه مع عبدالاله اشار الى ان المستر شرشل سيقابل جورج ملك اليونان بعد ظهر اليوم وانه يأمل ان يصبح الاجتماع بعبدالاله ممكنا في صبيحة اليوم التالي ولكن وزير الخارجية البريطاني اوضح بأن شرشل متعب جدا وان اجتماعه بعبدالاله سيكون اجتماعا ولقاء اكثر من كونه لقاء مجاملة نوعا ما . وصل الرجل العظيم شرشل في الوقت المحدد لوصوله غير ان وضعه لم يكن على ما يرام وكانت زيارته قصيرة وكأنه لم يكن في مقابلته وديا كما لم يكن عبدالاله ممتنا كثيرا

راح يكرر المرة تلو الاخرى يا له من رجل عجيب ولكن كم هو الامر مدهشا ان تكون لمثل هذا الرجل الحديدي مثل هذين اليدين الصغيرتين .

مرافقة سندرسن لعبدالاله في زيارته لامريكا

وجهت دعوة لعبدالاله لزيارة امريكا في عهد الرئيس هاري ترومان وكانت تلك الدعوة اصلا قد وجهت اليه اثناء ولاية الرئيس الامريكي روزفلت غير ان وفاته في العام ١٩٤٥ عندها الغيت الدعوة رسميا التي سبق وان وجهت اليه . ولكن ما لبثت ان تجدد حالة استلام هاري ترومان منصب رئاسة الجمهورية باعتباره نائب الرئيس المتوفي روزفلت عن تلك الرحلة يقول سندرسن في مذكراته ما يلي :

(ركب عبدالاله وبقية افراد الحاشية في صباح اليوم الثاني والعشرين من شهر مايو ١٩٤٥ احدى اطائرات المخصصة لاستعمال الرئيس الامريكي وهي من طراز سكاي ماستر فاقلعت به في سماء صافية بعد انتهاء اجراءات حفل التوديع المعتادة في مطار بغداد المدني . كانت حاشية الامير تتألف من كل من نوري السعيد ، داود الحيدري والعقيد عبيد عبدالله وانا وقد انضم الى فريقنا هذا في السفر الى نيويورك النقيب ارشي روزفلت حفيد الرئيس روزفلت وبدعوة خاصة من الامير عبدالاله سافرت زوجتي (الزي) وهي في طريقها الى انكلترا على ان تفترق عنا في مدينة القاهرة وحيث كنا قد قررنا مغادرة العراق . القينا اخر نظرة على حديقتنا المحبوبة ووزعنا الشهادات والمكافآت على المستخدمين بالنظر الى الخدمات اطويلة الحلقة التي قدموها لنا وودعناهم وداعا محزنا ولقد اوصلنا سائقنا الهندي المخلص نفسه الى المطار . بعد ان امضينا اسبوعين في زيارة الولايات المتحدة وسط استقبال باهر وحفلات متعددة وزيارات الى مناطق مختلفة من القارة الكبيرة غادرنا امريكا . طلب

مني الامير عبدالاله ان اكتب صيغة برقية شكر الى الرئيس ترومان وهكذا فعلت ولقد ورد فيها ما يلي :

فخامة الرئيس هاري ترومان المحترم

ابعث اليكم وانا اغادر الولايات المتحدة في نهاية سفرة لا تنسى والى شعب هذا البلد العظيم اخلص تحياتي واعمق شكري للحفاوة البالغة التي تمتعت بها وللطف والود العميقين اللذين قوبلت بهما في كل مكان لقد كان الامتياز الذي حظيت به انني استطعت ان اجوب ولايات كثيرة وان التقي بالكثيرين من ممثلين انماط عديدة من حياتكم القوية . لقد تأثرت تأثرا بالغا بكل شيء رأيته بعظمة مجهود امريكا الحربي وبسعة تطورها وتقدمها في المجالات الصناعية والاقتصادية والثقافية . انني استطيع ان اؤمن ان الزيارة قد اكدت تقييم مثاليتنا المشتركة وان املي المخلص جدا هو ان روابط الصداقة التي تربط بلدينا بسعادة في الوقت الحاضر سوف تتعاظم قوتها على مر الزمن .

المخلص

الامير عبدالاله

سندرسن يتحدث عن جولة الوصي في كندا واوربا وتركيا

لم يورد الدكتور سندرسن باشا شيئا مهما عن خدماته للامير عبدالاله اثناء جولة الامير في كندا واوربا ولكن كان له دورا كبيرا في حصول لقاء بين الامير عبدالاله وابنة عمه الاميرة عزة بنت فيصل والتي سبق لها ان اقترنت بأحد الخدم العاملين في فندق رودس بجزيرة رودس ضمن جزر اليونان وكان ذلك في العام ١٩٣٦ والخادم الذي تزوجته يدعى (Taso Charalmpos) ولقد افترقت عنه في العام ١٩٤٣ واتخذت من مدينة نابولي في ايطاليا مقرا

لسكناها يقول الدكتور سندرسن عن دوره في تهيئة اللقاء بين الاثنين مايلي (كانت الاميرة عزة كبرى بنات الملك ففيصل الاول قد ارسلت عن طريق السفارة البريطانية في روما رسالة الى عبدالاله تطلب فيها مقابلته لقد وصلت (عزة) نفسها بعد طعام العشاء الى الفندق الذي حللنا فيه وانضمت الى افراد حاشية الامير عبدالاله .

لم يكن عبدالاله راغبا في لقائها ولقد طلب مني ان اسمع قصتها المحزنة ومن ثم اطلعه على الغرض من زيارتها يا للمسكينة (عزة) لقد كانت شاحبة الوجه مبعثرة الشعر مجللة بالسواد وهي زرية الملبس ويبدو واضحا انها كانت محطمة الاعصاب وتلك هي نتائج زواج لم يأذن به الاهل ما ان دخلتِ عليها في الغرفة حتى القت بنفسها على قدمي باكية وهي تتضرع الى قولها انك صديق العائلة وارجوك ان تعالج موضوعي المؤسف نيابة عني لقد وعدتها بأن افعل ذلك .

كانت عزة قد طلبت ان تهجر ايطاليا وتقيم في مصر لقد قبلت اول الامر في ايطاليا كاميرة بقبول ملكي ولكن اصدقاؤها الاولون ما لبثوا ان هجروها كانت مدمنة على التدخين وكانت تتقبل مني السجارة الواحدة تلو الاخرى حين كنا نتحدث سوية كان زوجها قد هجرها ولذلك فقد غادرت جزيرة رودس الى ايطاليا وكانت لبعض الوقت قد اتخذت من مدينة نابولي مقرا لسكناها . اما الان فهي تعيش في غرفة لا تتسع لاكثر من سرير واحد وتتلقى اعانة ضئيلة من الحكومة الايطالية . وقد قيل لي ان هذه الاعانة قد لا تستمر من قبل اجمهورية الجديدة في ايطاليا لقد اعترفت بأنها اصبحت مدمنة على التدخين لكنها لا تفعل ذلك الا اذا توفرت لها النقود وانها اصبحت غارقة في الديون منذ امد طويل . وانها تعيش حالة تقشف وتقتير وهي لا تغادر غرفتها

الا نادرا ولقد دعت بها الحاجة الى قص شعرها لان نفقات تصفيفه اصبحت خارج نطاق مقدرتها . طلبت اليها ان تنتظر الى ان اتحدث مع عبدالاله ولقد قصصت عليه قصتها التي تدمي القلوب وتوسلت اليه ان يراها لقد رفض ذلك اول الامر واصر انها لا تستحق العفو لانها الحقت العار بشرف عائلتها لقد جادلته بانها اذا ما ذهبت الى مصر مثلما صممت ان تفعل ذلك ان استطاعت ذلك فان هربها هذا سوف يزيد الكثير من الاشاعات المبغضة وهكذا وافق اخيرا عبدالاله على لقائها على ان اكون انا حاضر تلك المقابلة لقد كنت متأكدا ان حالتها المحزنة سوف تلين قلبه وسرعان ما تفجر الاثنين بالبكاء وباذن منه انسحبت وعند ذاك منحها مبلغا من المال واكد لها بانه يبحث مع عمه الامير عبدالله في امكان تدبير اقامتها في عمان كنا قد بحثنا انا وعبدالاله امكانية اقامتها في بغداد في الأول ولكنه قرر في النهاية انه في حالة عودتها فان من الافضل ان تستقر في عمان لانها غير معروفة هناك وقد صار هذا القرار هو الحل النهائي .

قبل الرحيل

في هذه الاسطر يصف سندرسن اخريات ايامه في العراق حيث قد احيل على التقاعد وغادر بغداد في العام ١٩٤٦ ولم يعد اليها ثانية الا في العام ١٩٥٣ عندما وجهت له دعوة خاصة لحضور احتفالات تتويج الملك فيصل الثاني في شهر نيسان في ذلك العام ولقد صحبته زوجته (الزي) بتلك الزيارة التي كانت الاخيرة لها لوادي الرافدين . وعن ذلك يتذكر سندرسن اهم الاحداث التي عاشها في سنة خدمته الاخيرة في بغداد فيقول :

(امضيت الاشهر القلائل الاخيرة من خدمتي في العراق في فندق (ريجنت بالاس) كان مطمحي منذ زمن طويل ان لا اغادر العراق حتى يتم

يتخرج ما لا يقل عن ٥٠٠ طبيب ولما كان هذا الهدف قد تحقق فلم تدع لي الاحوال من خيار سوى ان استسلم واعود الى انكلترا . نجم عن تقديمي كتاب استقالتي من الوظائف التي كانت مناطة بي ظهور عدة طلبات بسحبه وكانت تلك الطلبات متنوعة المصادر حتى ان الصحافة المحلية كتبت الكثير عن ذلك ورغم اعتباري ان تلك الطلبات ما هي الا تمهيدا لي الا انها لم تؤثر في القرار الذي اتخذته) .

كان افراد العائلة المالكة بصحة جيدة اما الملك فيصل الثاني فقد كان من الطفولة ضحية لاصابته بذات الرئة لكن لم يصحب ذلك حدوث التهاب في الشعب الهوائية بصفة دائمة كما ان ضربات الم بدأت تخف مما جعلني آمل ان جلالته سيتخلص من هذا المرض في وقت مبكر .

اما الملكة الوالدة (الملكة عالية) فان النوبات الحادة من الالم بدأت تعاني منها بشكل يكاد ان يكون متواصلا . كان علي ان اواجه في اوائل العام ١٩٤٦ وهو عام مغادرتي العراق تجربة مفزعة لقد استدعيت الى قصر الزهور في باكر احدى الامسيات لمعاينة الملك فيصل الثاني وعند وصولي اعلمتني مربيته ان درجة حرارته قد اخذت بالارتفاع من بعد الظهر وذلك في اعقاب قشعريرة خفيفة اصابته وانه يشكو من صداع شديد وألم عام في رأسه ولكن لم تظهر عليه اية دلائل لضيق النفس او النزلة الصدرية . سألني الملك الصغير بتكرار قائلا ارجوك يا دوكي(١٣) اعطني شيئا ما يهدئ الصداع فقد المني رأسي كثيرا . كنت احمل معي حبات من نوعية مركبة تحتوي على قدر قليل من مادة الاسبرين فاعطيته تلك الحبة ثم اخذت نقطة من دمه وقلت انني سأعود فيما بعد . ما كدت اصل الى فندق ريجنت بالاس حتى تلقيت نداء تليفونيا يقول ان الملك مريض بشكل ميئوس منه وان احدى سيارات القصر

في طريقها اليك لتنقلك الى قصر الزهور بسرعة قصوى واخذت تقطع المسافة بين الفندق وقصر الزهور بسرعة قصوى وصلت القصر كان يخيم على سيدات العائلة المالكة هدوء مشوب بالخوف في حين كان بقية افراد العائلة في حالة من الهياج . كان لالقاء نظرة واحدة على المريض كافية لتشخيص اسباب الهلع الذي اصاب اصحاب القصر لقد كان الاسبرين شديد الحساسية وكان وجه الملك وشفتاه وجفناه قد انتفخت الى درجة اما عينه كانت مطبقتين وكان تنفسه يدل على اصابته بنزلة صدرية احدث زرقة بمادة (الادرينالين) تحسنا مدهشا تلقيت من جرائه عبارات الشكر في الوقت الذي كنت اشعر وانا جد متألم بانني انا المذنب والمسبب في ما وقع لجلالته . علمت ان العائلة المالكة تود ان تمضي فصل الصيف في بريطانيا وكانت فرصة ثمينة لاكون انا وزوجتي معهما ونحن في طريقنا مغادرين العراق وعلى اثر ذلك بدأت بعد ان طلب مني ذلك بالاتصال بالسفير التركي في بغداد الذي كنت اعرفه حق المعرفة واقترحت عليه ان يخبر وزير خارجية تركيا بموضوع سفر العائلة المالكة العراقية ويسأله فيما اذا كان الرئيس (عصمت اينونو) سيوافق على ان يقوم بيخته الخاص بنقل الملك فيصل الثاني وبقية اعضاء العائلة المالكة في الاسكندرية مثلا الى مارسيليا في طريقهم الى انكلترا تقبل الوزير المفوض التركي اقتراحي هذا بشكل مسرور وجاءت الموافقة على استعمال اليخت بسرعة .

توفيت الملكة عالية[١٤] بمرض السرطان في اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني ١٩٥٠ كانت رغم مرضها الميئوس منه لا تخشى الموت لقد كنت دائما اسمعها تردد هذه العبارة (لا يموت الانسان مرتين ان لم يكن اليوم فغدا كل منا يموت) .

الرسالة الاخيرة من فيصل الملك الى سندرسن الصديق

استمرت المراسلة واللقاءات بين اعضاء العائلة المالكة في العراق وبين الدكتور سندرسن باشا منذ ان غادر العراق في العام ١٩٥٨ وبعد قيام ثورة ١٤ تموز عثر على اخر رسالة كان الملك فيصل قد كتبها الى الدكتور سندرسن ولكن لسنا نعلم هل ان الرسالة المذكورة هي مسودة رسالة قد ارسلت ام انها الاصلية ولم ترسل وهذا هو نص الرسالة :

القصر بغداد

٢٥ حزيران ١٩٥٨

عزيزي دوكي اشكرك كثيرا على محفظة الصور الجميلة الحبيبة لا استطيع ان اعبر لك عن مدى تقييمي لهذه افكرة فهذه المحفظة مفيدة جدا ولا استطيع ان احملها في اسفاري فحسب لانها دائما تذكرني بك ارجو ان تكون انت والسيدة دوكي بخير لم يكن الجو لطيفا عندكم كما اعتقد الاسرة كلها هنا بخير وخالي يون الان في استنبول حيث امضى فيها الايام العشرة الاخيرة اثر عودته من انكلترا . اننا نعد العدة جميعا للسفر الى انكلترا ونأمل ان نغادر في العاشر من الشهر القادم خالتي بديعة وافراد عائلتها سيقضون الصيف في لندن في الشقة التي اعدوها لذلك اشكرك مجددا على الهدية الرائعة مع افضل امنياتي وامنيات العائلة للسيدة دوكي ولك .

المخلص فيصل

حكايات عن الباشا الطبيب

يقول الاستاذ الباحث الفاضل نجدت فتحي صفوت عن سندرسن وكتابه الذي ضم مذكراته (عشرة الاف ليلية وليلة) ما يلي تعليقا على الكتاب وصاحبه :

(حينما صدر كتاب الدكتور سندرسن عن ذكرياته خلال مذكراته (عشرة الاف ليلة وليلة) كنت في انكلترا فبادرت الى اقتنائه وقراءته وكان لي ملاحظات رأيت ان ابديها لمؤلفه فكتب له كتابا ضمنته تلك الملاحظات مع عبارات التهنئة والمجاملة المعتادة .

وما لبثت ان تلقيت مكالمة هاتفية من الدكتور سندرسن يشكرني فيها على رسالتي ويدعوني لتناول الشاي معه في منزله في احدى القرى القريبة من لندن قبلت الدعوة ولما وصلت الى المدينة التي يقيم فيها وجدت سيارته وسائقها ولما دخلت حديقة الدار وجدت فيها بركة وفي وسطها قفة عراقية صغرية فوقفت اتأملها مبتسما فلما رآني سندرسن لما خرج ليكون في استقبالي ولمس مدى ما ثارته القفة في نفسي من تأمل وتقييم اعلمني بانه اوصي على تلك القفة بذلك الحجم الصغير لان منظر القفاف في دجلة كان من اجمل ما يروق له ولمثل هذا السبب جلب هذه لتذكرة بايامه السعيدة في العراق ولقد وجدت سندرسن باشا رجلا متهرما في الثالثة والثمانين من عمره وقد انحنت قامته المديدة واخذ يترنح في مشيئته وعلى عينيه نظارتان سميكتان وعادت بي الذاكرة الى (سندرسن باشا) التي تكاد الارض تهتز من تحت قدميه وهو يصول ويجول في الكلية الطبية التي كان عميدها في اوائل الاربعينات وكنت اراه عندما اقوم بزيارة لاصدقائي في الكلية نفسها ومن طلبتها .

حدثني سندرسن عن ظروف وضع الكتاب فقال انه بعد ان توفيت زوجته الزي شعر بفراغ عظيم وهو لم يرزق بولد وليس له نسيب او قريب وكانت بخدمته امرأة عجوز تعتني بامره حملت الينا الشاي وكان لم يستطع الخروج من الدار كثيرا ويروق له ان يعمل على تنظيم حديقة داره بنفسه فلا

يلبث ان يعيا لذلك فكر في كتابة مذكراته عن العراق لاجل سد الفراغ الهائل ويستعيد ذكرى ايامه السعيدة . قلت له ان كتابه وان لاقى رواجا كبيرا جدا في بريطانيا فانه شخصيا معروف في العراق اكثر مما يعرف عنه ابناء وطنه لطول قامته والعمل فيه لذلك اقترح ان يترجم الكتاب الى اللغة العربية لان سوقه الحقيقي هو العراق فاتفق معي في ذلك وقال ان احدى دور النشر اللبنانية اتصلت به واستأذنته بترجمته وانها تتفاوض في الامر مع ناشريه .

ولم اره بعد ذلك وبعد سنة واحدة تقريبا من ذلك اللقاء قرأت نعي الدكتور سندرسن في صحيفة التايمس اللندنية .

من المؤكد ان يكون للدكتور هاري سندرسن ومن خلال خدمته الطويلة في العراق احداث ذات نتائج ايجابية وسلبية على حد سواء وذلك طبقا للحدث الذي كان هو فيه طرفا فشخص مثل هذا الانكليزي الذي امضى في العراق زهاء سبعة وعشرين عاما لو اراد ان يدون مذكراته اليومية لضاقت بها نفسه قبل ان تضيق بها صفحات كتب المذكرات وسنورد هنا حكايتين عنه اوردهما احد طلابه (الدكتور كمال السامرائي) عندما بدأ الدكتور السامرائي بنشر مذكراته في اوائل التسعينات وميزة هاتين الحكايتين هو موقف سلبي جوبه به من قبل احدى اميرات العائلة المالكة لطبيب العائلة الخاص نفسه ولنستمع للدكتور السامرائي وهو يقص علينا الحدث كما عاشه هو بمعية الدكتور سندرسن .

قال الدكتور السامرائي (كنت اعتني بسمو الاميرة راجحة بنت الملك فيصل الاول اثناء حملها من زوجها عبدالجبار محمود وهو من طياري القوة الجوية وقد احيل على التقاعد بطلب منه بعد ايام قليلة من زواجه وحين حانت ساعة الولادة استدعيت على عجل الى دار الاميرة راجحة في الكرادة

الشرقية وهو بيت متواضع . حين دخلت مخدع الاميرة كانت عمتها (صالحة) اخت الملك فيصل الاول وسيدة اخرى هي اخت زوجها عبدالجبار محمود وبعد الفحص قررت ان يكون توليد الاميرة بالملقط ورأيت ان اخبر الاميرة اولا بهذا القرار ولما قلت لها بأني ساطلب الدكتور سندرسن ليشاركني في هذه المسؤولية قالت لي بامتعاض (ابعد عني هذا الرجل يا دكتور فاني لا اريد ان اراه) فقلت لها اذن ساكتفي باخباره فقالت (ولا ارجو ذلك انا اقرر مصيري بنفسي وعمتي الاميرة صالحة وزوجي يشهدان على ذلك) وحاولت تليفونيا ان احصل على طبيب مخدر فاخفقت فلم يكن في وقتها طبيب مختص بالتخدير فشرحت ذلك للاميرة وبينت لها ضرورة استدعاء الدكتور سندرسن اضطرارا فاجازتني على مضض لاستدعائه ليقوم بعملية التخدير ولما استدعيت الدكتور سندرسن كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة صباحا ونقلت له قراري بتطبيق الملقط ولما سألني ما حاجتك الي وكفاية انك اخبرتني بذلك فقلت له لكنني احتاج الى من يخدر الاميرة وسمعت الدكتور سندرسن يقول لي سأتوجه اليك حالا وسأمر في طريقي الى صالة العمليات في المستشفى الملكي لاخذ منها قنينة المخدر وقناعة وسأقوم انا بتخدير الاميرة . وصل الدكتور سندرسن الى بيت الاميرة بسرعة لم اتوقعها فحيا الاميرة راجحة فردت عليه بتحية تخلو من الصميمية والحرارة وتجاهل سندرسن موقفها وتشاغل عنها بخلع سترته وشرع يرش المخدر على القناع الذي غطى انف الاميرة وهذا المخدر قوي الرائحة خانق فقاومت الاميرة مقاومة شديدة من يديها وحاولت ان تنهض فاعدناها الى فراشها وحاول سندرسن بمعسول الكلام بان يبقيها هادئة وتتنشق المخدر بارتياح وهدوء وقال لها (كوني فتاة طيبة واسترخي) فما سمعت الاميرة هذه العبارة حتى امسكت بقناع

المخدر وقذفته في وجه سندرسن فاستغرب من حركتها المفاجئة وهي على وشك ان تغط في نومها من جراء تأثير المخدر وزأرت كاللبوة الجريحة فخاطبت الدكتور سندرسن بتخاليط من العربية والانكليزية .

(كن مؤدبا يا رجل وخاطبني بلقب الاميرة ولا تنسى بانني بنت الملك فيصل الاول ولست اي بنت اخرى فانا افضل الموت على ان لا تخاطبني بكامل اسمي ولقبي) وبهتت سحنة الدكتور سندرسن وتهدل حنكه فاسرع بالاعتذار منها على انها بقيت حانقة مخيفة فرأيت ان أشرح للاميرة ما قاله الدكتور سندرسن وان عبارته مألوفة عند ملته الانكليزية ولا يقصد منها الاهانة بأي حال ردت الاميرة تقول (بل هي اهانة بالنسبة لي وأي اهانة) وعاد الدكتور سندرسن يعتذر منها بقوله ان من سلوك المهنة ان يحتمل الطبيب شتيمة المريض فكيف اذا جاءت الشتيمة من هذه الاميرة وعاد فوضع المخدر على القناع حتى نامت الاميرة واتممت عملية تنظيف الملقط الولادي بسلام وكان الوليد بنتا سميت (حزيمه)(١٥) .

سندرسن يتحدث لطلابه عن انشاء كلية الطب

في هذه السطور ينقل الينا الاستاذ الدكتور كمال السامرائي انطباعاته عن استاذه الدكتور سندرسن وهو يصغي اليه في اول محاضرة يلقيها (العميد) على طلبة الصف الاول فما كان من الطالب الا ان يتخذ في ذاكرته شيئا عن تلك المحاضرة ويسجل بقلمه بعد عقود من السنين سطوراً عن حياة التلمذة . يقول الدكتور كمال في صباح يوم ١٩٣٣/١٠/٢١ قرأنا على لوحة الاعلانات ان يحضر طلبة الصف الاول لاستماع محاضرة يلقيها الاستاذ سندرسن عميد كلية الطب في نشأة الكلية الطبية الملكية العراقية في قاعة المحاضرات رقم (١) وهي القاعة المدرجة الوحيدة في الكلية وعرفنا ان هذه المحاضرة كانت

تلقى على طلبة الصف الاول في كل سنة جامعية قال سندرسن فيما قاله في محاضرته (ان اول مدرسة لتعليم الطب في بغداد كانت من اعمال الخليفة العباسي هارون الرشيد قبل زهاء الف عام وان هذا الخليفة سيأخذه الفرح والعجب ان يعيد تأسيس تلك المدرسة احد انساله وهو الملك فيصل الاول وان يكون احد المعلمين فيها طبيب غير مسلم اسمه (ابن سندر) ويقصد بذلك نفسه Sinderson مثلما كان اول طبيب في مدرسة هارون الرشيد ابن يختيشوع وهو الاخر طبيب غير مسلم ايضا وهكذا لم يكن هارون الرشيد يفرق بين المسلم وغير المسلم الا بالعلم ولهارون الرشيد الثناء منا على هذه النظرة المحايدة كما يجب ان نشكر في هذه المناسبة كل من صاحب الجلالة الملك فيصل الاول والدكتور (هلتون) والدكتور حنا خياط والدكتور فيكس وثلاثتهم من اساتذة هذه الكلية وقد بذلوا المستحيل لاستحداث هذه الكلية وختم كلمته بقوله باننا في هذه الكلية سنتبع مناهج الدروس في كلية الطب بجامعة ادنبرة حيث درست انا هذه الصناعة الشريفة .

خلاصة خدمات سندرسن في العراق

بعد هذه الدراسة عن حياة الدكتور سندرسن باشا في العراق نستطيع ان نستنتج ما يلي بايجاز :

١ - نستطيع القول بان سندرسن باشا كان ضابط ارتباط بين السفارة البريطانية في بغداد وبين البلاط .

٢ - لا بد ان نقدر للدكتور سندرسن جهوده في انشاء كلية الطب والعمل على رفع مستواها العلمي ما استطاع الى ذلك سبيلا .

٣ - باعتباره الطبيب الخاص للعائلة المالكة منذ تتويج الملك فيصل الاول

وحتى تاريخ مغادرته للعراق ١٩٤٦ فانه اضافة على اختصاصه الطبي فانه عمل مستشارا وسكرتيرا ومرافقا اذ استطاع ان يمثل المكانة المرموقة بين افراد العائلة المالكة هو وزوجته .

٤ - بحكم كونه انكليزيا فانه وقف موقفا سلبيا تجاه كل العناصر الوطنية والقومية التي التقى بها من خلال تواجده بالعراق .

٥ - بعد تركه العراق لم يتخلف عن المشاركة في اي نشاط عراقي بريطاني فقد انتخب الدكتور سندرسن باشا نائبا لرئيس الجمعية العراقية-البريطانية في لندن The Anglo-Iraqi Society والتي كانت تضم في عضويتها كبار الشخصيات البريطانية والعراقية وكان رئيس الجمعية الامير زيد سفير العراق في لندن .

٦ - ظل حنينه الى العراق وشعبه حتى اواخر ايامه اذ وافته المنية في العام ١٩٧٤ وكانت زوجته الزي قد توفيت في العام ١٩٦٧ ولم تنجب له عقب .

٧ - منح الدكتور سندرسن عدة اوسمة عربية وبريطانية اضافة الى منحه لقب (Sir) وكان عنوان اسمه يكتب هكذا :

Sir Harry Sindrson Pasha
K.B.E., C.M.G., M.V.O.,
Vice President of The Anglo-Iraqi Society

٨ - قالت المس بل في وصفه انه السندباد طبيب الملك الخاص سندرسن اني احب هذا الرجل ان له قلب من ذهب وهو الى جانب ذلك رفيق حسن جدير بالذكران كل من المس بل والدكتور سندرسن عملا معا في العراق حيث كان الاثنان من بين اعضاء الحملة البريطانية .

الهوامش

١ - يقصد الدكتور سندرسن (بالملا) المرحوم الملا خضر الذي كان قد قدم الكثير من الخدمات الممتازة لفرع التشريح لطول خبرته السابقة بالجثث وتحضيرها منذ ان كان يعمل في مستشفى العزل بهذا الخصوص ولعل من اطرف الثناء الذي استحقه الملا خضر ما جاء في تقرير عمادة الكلية الطبية عن نشاطاته وهذا نصه :

(عندما دخل الطلاب لاول عهدهم بالمهنة الى صالة التشريح العملي بوجوه باهتة تتصارع حكمتهم مع رهبتهم في الثبات على اختيار المهنة والمضي في تعلمها كان مجرد وجود الملا خضر قريبا من معظمهم كافيا لان يعيد لهم الرزانة وان يملأ في نفوسهم الثقة بالمستقبل واطمئنان الى المهنة التي اختاروها) .

٢ - لم يكن ما اورده الدكتور سندرسن فيما يخص الطلبة المقبولون في الكلية الطبية صحيحا للسنة الدراسية الاولى فان عدد المقبولين لم يكن اثني عشر طالبا بل عشرين طالبا سبعة منهم من المسلمين وثمانية من ايهود وخمسة من المسيحيين وهذه اسماءهم :

منير عبدالنور - جاك عبود - البير الياس - يعقوب ازاكي - رؤوف داود سميح - خالد حالت - خليل اسماعيل - كامل عيسى - صيون منشي - فؤاد مراد الشيخ - البير نسيم - محمد احسان القيمقمجي - كزلي ربيع - علي السيد - عبدالمجيد الشهربلي - بيتون رسام - عبدالمجيد شلاش - يوسف شينة - يونان عبو اليونان - مظفر مدحت الزهاوي .

٣- الطالب الكردي الذي يعنيه الدكتور سندرسن هو بابا علي الشيخ محمود

والذي قبل في الكلية الطبية للعام الدراسي ٣٢-٣٣ وهو ابن الشيخ محمود ولكنه لم يواصل الدراسة في الطب بل تركها وغادر الى لندن فانضم هناك الى احدى الجامعات ودرس الاقتصاد اسياسي ولقد تم اختياره ليشغل منصب وزير الاشغال والمواصلات بعد قيام ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ .

٤ - يذكر موسى الشابندر انه سمع من نوري السعيد عند وفاة الملك فيصل ان المرحوم فيصل اثناء عودته الى بغداد من لندن خلال تمرد الاثوريين لم يكن يأكل سوى البيض والبرتقال . انظر ذكريات بغدادية صفحة ١٢٩ .

٥ - حول الكلمات الاخيرة التي ذكرها سندرسن ونسبت الى المرحوم الملك فيصل قبل وفاته بلحظات يكشف موسى الشابندر سرا ظل كاتما في صدره لسنين طويلة منذ وفاة الملك فيصل وحتى كتابة مذكراته ونشرها والتي وضع لها عنوان (ذكريات بغدادية) فلقد ورد في الصفحة ١٣٣ من تلك المذكرات ما يلي حرفيا حول موضوع الكلمات الاخيرة . يقول الشابندر (وفيما كان الباشا يقصد نوري السعيد مخبوصا بالبرقيات والمحادثات التلفونية اتت الى فكرة اما يكن من المصلحة ان ترسل برقية الى بغداد تتضمن اخر كلمات الملك الراحل قبل وفاته وعندما فاتحت رستم حيدر في الموضوع حبذ الرأي ورتبنا نحن الاثنين برقية تحتوي على توصية فيصل بوجوب اتحاد الكلمة وتوحيد الصفوف وعرضنا الامر على وزير الخارجية نوري باشا فوافق وارسلناها وهكذا كان اصل البرقية التي نشرتها الصحف وعلقت عليها وتناولتها صحف العالم العربي ودخلت في التاريخ ككلمات ذهبية تفوه بها الملك فيصل عند مفارقته الحياة واصبحت نبراسا للرأي العام العربي . ليت شعري كم من صفحات التاريخ تنشأ هكذا انا ورستم افترينا على التاريخ بتلك البرقية ولكن خدمنا بها ذكرى

المغفور له الملك فيصل وخدمنا بقدر الامكان وحدة العرب والعراقيين .

٦ - تقول السيدة عصمت السعيد في كتابها (نوري السعيد) عن حادثة مقتل الملك غازي ما يلي في الصفحة ٤٠ من الكتاب المذكور وكيف ان نوري السعيد نفسه هو الذي كان قد طلب استدعاء سندرسن لمعاينة الملك المصاب على ان يحضر بمعيته الدكتور صائب شوكت وهذا خلافا لما اورده الدكتور سندرسن من انه هو الذي طلَب الاتصال بنوري السعيد . قالت الدكتورة عصمت السعيد (بعد رنين متواصل للهاتف لم يتوقف ذهبت لرفع السماعة واذا باصوات استغاثة تصيح عبر الهاتف آلو . . . آلو اين نوري باشا هنا قصر الزهور ، آلو . . . آلو هزتني نبرات الصوت المضطرب فاجبت بذهول الدنيا ليل ونوري باشا نائم فاجابني المتكلم مستغيثا ايقظيه فجلالة الملكة تطلبه اسرعي ذهبت الى غرفة نوري طارقة الباب طرقات متواصلة ففتح الباب وعندما رآني قال ماذا قلت تلفون فامتعض وجهه وصاح تلفون ايش في نصف الليل فاجبت على الفور جلالة الملكة تطلبك بسرعة التلفون من قصر الزهور رفع السماعة نوري وسمع اقوال المرافق اكفهر وجهه وصاح اطلبوا الدكتور سندرسن والدكتور صائب شوكت حالا وسوف اصل على جناح السرعة) .

٧ - الاميرة بديعة هي شقيقة الامير عبدالاله وكانت قد اقترنت بالشريف حسين واتخذت من ضاحية المنصور في بغداد مسكنا لها وما زال الشارع الذي كانت تسكن فيه يدعى (بشارع الاميرات) ولقد نجت صبيحة الرابع عشر من تموز يوم الثورة هي وافراد عائلتها وبعد مرور اسبوعين على قيام الثورة طلبت مغادرة بغداد الى القاهرة فتم لها ذلك ولقد اتخذت من بيروت ردحا من الزمن مقرا لاقامتها .

٨ - الاميرة صالحة هي شقيقة الملك علي وعمة الوصي عبدالاله وكانت

تسكن دارا في شارع ابي نؤاس بالقرب من فندق بغداد وقد تم هدمه واقيم على ارضه بناية وكالة الانباء العراقية .

٩ - عندما دخل عبيد المضايفي في خدمة الامير عبدالاله بعد ان تولى الوصاية على عرش العراق كان برتبة نقيب وظل يعمل بمعيته حتى تدرج بالرتب ووصل الى رتبة لواء عندما انفجرت ثورة ١٤ تموز ولم يكن عبيد المضايفي عراقيا بل هو حجازي كان ابوه من اعضاء حاشية الملك فيصل الاول عند قدومه للعراق في العام ١٩٢١م .

١٠- تقول الدكتورة عصمت السعيد عن حادث اعتقال زوجها صباح السعيد ما يلي فوجئت بسيارة شحن يمثلها جنود واقفة اما دارنا واذا بصباح زوجي ينزل برفقة جنديين فركضت نحو الباب لاستطلاع الجند واذا صباح يهدئني قائلا لا تجزعي يا عزيزتي لقد امرت الحكومة بتوقيفي فعندما اخذوني من مسكني في دائرة السكك الحديدية طلبت منهم قبل ذهابنا الى ادارة شرطة المرور من هنا لاخبرك والوالدة بانني موقوف وتضيف السيدة عصمت ان سبب اطلاق سراح زوجها يعود الى قرينة السيد رشيد عالي الكيلاني .

١١- الاميرة جليلة هي صغرى بنات الملك علي والد عبدالاله ولقد اقترنت بالشريف الدكتور حازم وكانت قد اصيبت بمرض عقلي ادى بها الانتحار حرقا وتوفيت في مستشفى السامرائي في شهر كانون الاول عام ١٩٥٥م ودفنت في المقبرة الملكية في الاعظمية .

١٢- كان دار الدكتور سندرسن باشا يقع في شارع العسكري المطل على نهر دجلة والمقابل حاليا لدار التمريض الخاص وان تسمية الشارع المذكور (بالعسكري) جاء نسبة الى اولاد جعفر العكسري اللذين كانت بيوتهم

هناك وبعد قيام ثورة ١٤ تموز اطلق عليه اسم (شارع دجلة) .

١٣- دوكي هو اللقب الذي كان الملك فيصل الثاني يطلقه على الدكتور سندرسن باشا وظل يخاطبه به حتى نهاية حياته .

١٤- اخطأ الدكتور في تاريخ وفاة الملكة عالية فان الملكة الراحلة انتقلت الى دار الخلود في يوم الخميس ٢١ كانون الاول ١٩٥٠ .

١٥- اطلقت الاميرة راجحة اسم (حزيمة) على ابنتها تيمنا باسم والدتها الملكة (حزيمة) بنت الشريف ناصر وزوجة الملك فيصل الاول .

المصادر

خواطر واحاديث في التاريخ	نجدة فتحي صفوة
مذكرات سندرسن باشا	ترجمة سليم طه التكريتي
تاريخ الطب في العراق	د . هاشم الوتري د . معمر الشابندر
حديث الثمانين	د . كمال السامرائي
تاريخ الطب العراقي	عبد الحميد العلوجي
ذكريات بغدادية	موسى الشابندر
نوري السعيد رجل الدولة والانسان	د . عصمت السعيد
بغداد القديمة	عبدالكريم العلاف
العراق في رسائل المس بيل	ترجمة وتعليق جعفر الخياط قدم له وزاده تعليقا عبدالحميد العلوجي
خلق الملوك	ترجمة عبدالكريم الناصري جمع وتحقيق بثينة عبدالكريم الناصري
مذكرات رستم حيدر	تحقيق نجدة فتحي صفوة
مذكراتي في العراق	ساطع الحصري
مذكرات جعفر العسكري	تحقيق نجدة فتحي صفوة
العراق بين ولايتين	ارنولد ولسن ترجمة جعفر الخياط
مغامرات لجمن في العراق والجزيرة العربية	ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي
بغداد كما عرفتها	امين المميز
ثورة ١٩٢٠	د . وميض عمر نضمي
لورنس كما عرفته	صبحي العمري
الثورة العربية	الكولونيل لورنس المكتبة العصرية بيروت
اعمدة الحكمة السبعة	ترجمة د . سليم النعيمي

يقظة العرب — جورج انطونيوس ترجمة ناصر الاسد
فيصل بن الحسين — مديرية الدعاية والنشر
فيصل الاول — امين الريحاني
ملوك العرب — امين الريحاني
فيصل الاول ملك العراق — محمد عبدالحسين
الثورة العراقية — ارنولد ولسن ترجمة جعفر الخياط
المخفي من حياة لورنس
من رسائل لورنس (مختارات) — ترجمة الدكتور عبدالمنعم الناصر
حكايات سياسية عن تاريخ العراق الحديث — خيري العمري
علي البازركان — الواقع الحقيقة في الثورة العراقية
كراس حفلة تأبين الملك فيصل — خطية الاب الكرملي ص٦

الدوريات

مجلة لغة العرب — الجزء الثالث السنة الرابعة ١٩٢٦ مقالة بعنوان الانسة بيل بقلم يوسف غنيمة
مجلة افاق ربية — السنة الحادية عشرة ك٢ ٨٦ البحث عن جنة عدن ترجمة مدحت الجادر
الدليل العراقي لعام ١٩٣٦
ملف النهار — رفيق الخوري ١٩٨٦
جريدة العراق — ١٩٢٦
جريدة نداء الشعب — ١٩٢٦
جريدة العالم العربي — ١٩٢٦
مجلة العروبة — العدد ٥ ايار السنة ١٩٤٧

فهرس